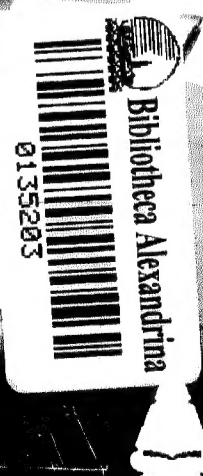


فؤاد دودة

# شعر ومشعراي



المكتبة المصرية / الجامعة للكتاب



شعر وشعراء

فؤاد دواره

الإخراج الفني : هاشم الأشمونى

---

فؤاد دواره

شعر

وشعراء



إهداء ..

---

إلى روح صديق العمر ..  
د. ابراهيم ابراهيم دسوقي ..  
رفيق سنوات الشعر والأحلام البكر ..

فؤاد دواره

## فهرس

٨	● اهداء
٩	● تقديم
	القسم الأول :
	● شعر :
١٣	١ - الخمر في الشعر الجاهلي .....
٣٥	٢ - اتجاهات ثورية في شعر الشام .....
٤٢	٣ - دفاع عن الشاعر غير المثقف .....
٥٥	٤ - «ذكريات شباب» للدكتور عبد القادر القط .....
٦٣	٥ - «أقول لكم» لصلاح عبد الصبور .....
٧١	٦ - «أنشودة الطريق» لكمال نشأت .....
٧٨	٧ - «في العاصفة» لكيلاي حسن سند .....
٨٤	٨ - «أغاني الصبا» للملك عبد العزيز .....
٩٢	٩ - «همسة الروح» لروحية القليني .....
٩٥	١٠ - «باقه نور» لعبده بدوى .....
٩٨	١١ - «أيام من عمرى» لابراهيم محمد نجا .....
١٠٤	١٢ - «خواطر انسان» لاسماعيل حسن .....
١٠٨	١٣ - «شقق» للعوضي الوكيل .....
١٠٨	١٤ - «أغاني العودة» لعلى هاشم رشيد .....
١١٧	١٥ - «غدا نلتقى» للشاعر السوداني سيد أحمد الحار دلو .....
١٢١	١٦ - «الشقاء في خطر» للشاعر الجزائري مالك بن حداد .....
١٢٦	١٧ - «أحزان المساء» للشاعر الإنجليزى روبرت بروك .....
١٣٠	١٨ - «عن القمر والطين» أشعار عامية لصلاح جاهين .....



## القسم الثاني :-

### ○ شعراء :

١٣٣	١٩ - النابغة . . . وظاهرة الاعتذار في شعره
١٥٤	٢٠ - قيس بن ذريح . . . شعره وعشقه
١٦١	٢١ ابن الدمينه . . . ديوانه وقصة حياته
١٦٩	٢٢ - عمر الخيام . . . بين التصوف والمجون
١٨٠	٢٣ - ثورة المتنبى . . . . .
١٩٨	٢٤ - ابن زيدون . . . وشعره الغزلى
٢١٧	٢٥ - خليل مطران . . . وشعره الثورى
٢٢٦	٢٦ - عبد الرحمن شكرى . . . ومفهومه للشعر
٢٣٣	٢٧ - أحمد فتحى . . . شاعر الكرنك . . . . .
٢٤٠	٢٨ - نزار قباني . . . شاعر النهود !
٢٦٧	٢٩ - عبد اللطيف النشار . . . عميد شعراء الإسكندرية
٢٧٨	٣٠ - محسن الجوهري والأويرا السياسية
٢٩٣	٣١ - بيرم التونسي . . . والهجاء الاجتماعى
٣٠٦	٣٢ - أحمد فؤاد قاعود . . . والملحمة الزجلية
٣١٤	● للمؤلف . . . . .



## تقديم

---

معظم الأدباء والمتأدين يمرون في مستهل هوايتهم للأدب بمرحلة يقرضون فيها الشعر ، ويداعبون شيطانه ، أما أنا فلا أذكر أنى كتبت طوال حياتى بيتاً واحداً موزوناً . كل ما كتبتة حين مررت بتلك المرحلة المبكرة لا يتجاوز بضع مقطوعات من النثر العاطفى ، خجلت حتى من تسميتها « شعراً مثوراً » كما كان يفعل أصدقائى وزملائى .

وقد تكفى هذه الحقيقة وحدها لتفسير قلة اهتمامى بالشعر وينقده ، بالرغم من أنه كان أكثر فروع الأدب حظاً من اهتمام أساتذتى فى الجامعة ، فالشعر كان دائماً ، ومازال ، عماد الدراسة الأدبية والنقدية والتاريخية فى أقسام اللغة العربية بكلية الآداب .

ومع إعجابى بقدر غير قليل من نماذج الشعر العربى التى درستها فى الجامعة ، وشغفى ببعض قائلها ، مما تنعكس آثاره فى عدد من مقالات هذا الكتاب ، فقد وجدتنى عقب تخريجى أندفع ، فترة غير قصيرة ، فى طريق آخر بعيداً عن الشعر ، بل بعيداً عن الأدب العربى كله . . فقد أحسست وقتها بحاجتى الملحة إلى دراسة نماذج كثيرة من الآداب الأجنبية التى لم يتح لى التعمق فى دراستها فى الجامعة .

واستهوتني بعض هذه النماذج فأقبلت عليها قارئاً ومترجماً  
وملخصاً . . . وحين شرعت أؤلف وجدتني أكتب عدداً من القصص  
القصيرة ذات مسحة رومانسية ، ما لبثت أن انصرفت عنها إلى  
المقالات والدراسات النقدية . . . وكان من الطبيعي بعد ذلك أن  
يكون حظ الشعر من هذه المقالات أقل من حظ القصة والمسرحية .

وليس معنى هذا أني لا أحب الشعر أولاً أحسن تذوقه ، إذ لو كان  
الأمر كذلك ( وأرجو ألا يجد القارئ في صفحات هذا الكتاب  
ما يكذب دعواي ) لما كان هناك أي داع لنشر هذا الكتاب الذي يضم  
كل ما كتبت عن الشعر من مقالات وأبحاث . . . كل ما في الأمر أني  
كأني متذوق عادي لي مزاجي الخاص في تذوق الشعر . فالشعر في  
نظري غناء قبل أن يكون أي شيء آخر ، والغناء لا يكون دون  
موسيقى أصيلة شجية هي التي تميز الشعر عن النثر . .

حقاً إن للنثر الجيد موسيقاه الخاصة ، ولكنها موسيقى من نوع آخر  
خفى تستشعره النفس أكثر مما تميزه الأذن . . . أما موسيقى الشعر  
فيجب أن تطرب لها النفس والأذن معا ، وينفس القدر . .

ومن طبيعة الغناء أن يعبر عن المشاعر والانفعالات أكثر مما يعبر  
عن الحقائق والأفكار المجردة ، فإذا عبر عنها فبقدر ودون تعمق أو  
مغالة غير أن كثيراً من الشعراء المحدثين ، هنا وفي الخارج ، يقولون  
بعكس ذلك تماماً ويرددون أفكار « باوند » و « إليوت » و « دون » ،  
وينهجون نهجهم .

وقد قرأت كثيراً من نماذج هذا الشعر الفكري الجديد في العربية  
والإنجليزية وتابعت نظريات أصحابه وآرائهم ، وأجهدت نفسي في

فهمه وتذوقه ، ومع ذلك لم أستطع أن أغير مفهومى عن الشعر ، ولم أستطع أن أحب شعر الفكر مثل حى لشعر العاطفة والغناء ، حتى كدت أشعر أنى حين أتناول الشعر بالنقد أكون منحازا للمدرسة بعينها ، أو خاصصا لأحكام ذوق خاص ، ومن واجب الناقد الا ينحاز وألا يخضع الأعمال الفنية لمزاجه وذوقه الشخصى ، ومن هنا كان انصرافى عن متابعة انتاجنا الشعرى بنفس الاهتمام الذى تابعت به انتاجنا القصصى والمسرحى .

وهكذا لم أجدنى يوما متحمسا للمشاركة فى المعارك الدائرة بين أنصار الشعر التقليدى والشعر الجديد ، فقد كنت أحس أنها معارك مصطنعة لا جدوى من ورائها ، وأن الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الشعراء الجدد حسم هذه المعركة ، هى أن يقدموا مزيدا من الشعر الجديد الجميل ، بدلا من أن يبددوا طاقاتهم فى كتابة مقالات نقدية يعيدون فيها ويزيدون ما سبق أن قالوه . .

تلك هى الأسباب الخاصة التى اهتمت إليها وأنا أجمع مقالاتى عن الشعر والشعراء ، وألاحظ قلتها بالنسبة لما كتبه عن القصة والمسرح . . وتبقى بعد ذلك أسباب عامة ، فلا خلاف - فيما أعتقد - على أن الشعر هو أكثر الفنون الأدبية ذاتية ، وأكثرها التصاقا بنفس قائله وخضوعا لمزاجه ونزواته ، ومن ثم كان من الصعب إخضاعه لمقاييس فنية عامة تغلب عليها الموضوعية ، ويبدو أن هذه الحقيقة كانت كذلك من العوامل التى صرفتنى عن تكريس مزيد من الجهد لنقد الشعر ، وأنا أحاول أن أنتهج لىفى فى النقد نهجا موضوعيا قدر الامكان . فقد وجدت أن تحقق ذلك أيسر وأسلم فى ميدان القصة والمسرحية . فمهما قيل عن تحقيق ذاتية الفنان فيها ،

فلا بد أن يلتزم مع ذلك حدا أدنى من الموضوعية المستندة إلى الحقائق النفسية والاجتماعية الواقعية والمشاركة بين الناس جميعا ، ومن ثم كان تقويم هذين الفنين على أسس موضوعية أيسر ، كما قلت ، وأقرب منا لا من تقويم الشعر على نفس الأسس .

ولست مع القائلين بأن الشعر لم يعد له مكان في العصر الحديث ، عصر الذرة والسرعة والمصالح المادية الطاغية قد يكون من الصحيح أن نثر حياتنا المعاصرة أكثر من شعرها ، ولكن هذا لا يمنع من أن الحاجة إلى الغناء مازالت حاجة أساسية من حاجات الانسان ، لازمته منذ أقدم العصور ، والأرجح أنها ستلازمه أبد الدهر ، فإذا بدا اليوم أن الشعر منزو بعض الشيء بالقياس إلى بقية إنتاجنا الأدبي ، فما ذلك إلا لندرة الشعراء الكبار في عصرنا ، وما لى لا أقول لانعدامهم . . فالشاعر الكبير هو ذلك الذى يشدو بأنغام نفسه القوية الصادقة ، فإذا به فى الوقت ذاته يغنى أشجان أمته وعصره يكفى أن يظهر مثل هذا الشاعر لترهف له الأذان ، ويستعيد الشعر مكانته الهامة فى حياتنا . .

فإذا بدا لك بعد ذلك أن هذا الكتاب لا يقدم صورة كاملة لانتاجنا الشعرى فى السنوات الأخيرة ، فأنت محق فيما بدا لك ، فما قصدت بالكتاب إلى شىء من هذا ، وإنما هو مجموعة من المقالات والدراسات عن الشعر والشعراء كتبت فى فترات مختلفة بمناهج متباينة ، تصورت أن فى نشرها معا شيئا من النفع للقراء والدارسين ، فإذا تحققت ذلك فأنا به سعيد ، وإن لم يتحقق فقد قدمت أعذارى ، الخاص منها والعام .

فؤاد دواره

القسم الأول :

شعر

(١)

الخمر في الشعر الجاهلي

الخمر من أقدم الموضوعات التي تناولها الأدب – ولسنا ندرى متى عرف  
الإنسان هذا الشراب المسكر لأول مرة . ولكنه قد عرفه على أية حال قبل أن  
يعرف الأدب ، بل قبل أن يعرف الكتابة ، لأن أقدم النصوص التي وصلت  
إلينا فيها ذكر له ، فالشاعر الفرعوني حين يتغزل يقول :

« إذا قدمت خفق قلبي ، وطوقتها بذراعي ، فشعرت بالسعادة في  
أعماق نفسي . . وإذا دنت مني وفتحت ذراعيها لي ، فكأن أركب روائح  
العمود تغمرني . . فإذا أدنت شفتيها من شفتي فهناك السكر ولا خمر . . »  
وفي « العهد القديم » ذكر كثير للخمر من أمثله ما جاء على لسان الملك  
سليمان في « نشيد الانشاد :

« اسقني قبالات فمك فحبك أشهى من الخمر ، وعطرك طيب الشذى »  
وقد اختص اليونان القدماء الخمر بإله خاص من آلهتهم هو « باخوس »  
أو « ديونيزوس » وفي ملاحم هوميروس ذكر كثير لهذا الإله وهذا الشراب .  
وفي القرن السابع قبل الميلاد يقول الشاعر الإغريقي الكيوس :

« إن سمل وزبوس أنجبا باخوس حفيدا ، فخلق الحفيد لذيد الخمر  
خلقا جديدا ، ثم هياها للإنسان وسقاها ، فكانت لهوموم بلسمها  
وسلواها . اقتلها بالماء ، واجعل من الخمر قدرا ، ومن الماء مثلها ، واملأ  
الأقداح حتى نهايتها ، واعطني قدحا وانظر حتى ترائ حسوته ، فقدم  
الثاني . . »

فإذا انتقلنا إلى الصحراء العربية وجدنا العرب هم الآخرون قد عرفوا  
هذا الشراب وتغنوا بذكره منذ أقدم العصور ، والشعر الجاهلي ، وهو أقدم



نص عربى بين أيدينا ، يوضح لنا إلى أى حد كانت الخمر من المقومات الأولى للحياة عند العربى .

فإذا حاولنا تفسير هذه الظاهرة لم نجد ما نقوله سوى أن الانسان هذا المخلوق الضئيل الضعيف ذا النفس المعقدة والعقل القاصر لم يكن ليقوى على مواجهة مظاهر الطبيعة القاسية ومشاكلها المحيرة ، فكان – ومازال – كلما اشتدت عليه الآلام وتفاقمت المشاكل وشعر بخيئته وفشله نشد الحرب ، والحرب غريزة من غرائز الانسان الثابتة ، فهو اذا شعر بخطر مادى شمر عن ساقيه وجرى ، أما إذا كان الخطر من النوع النفسى فليس ينفعه الجرى وإنما قد يجديه شرود الذهن ونشوة الحس التى تسببها الخمر . فالخمر فى حقيقتها ، وفى جميع العصور ، ليست إلا لوناً من ألوان الحرب البشرى .

ولا شك فى أن للخمر صلة وثيقة بالأدب ، فالأدب فى أبسط صوره ليس إلا عرضاً لتجربة حسية أو نفسية يمر بها الأديب والخمر ، بما تشيعه فى الحس من نشوة وفى العاطفة من ارهاق وحساسية ، تجربة قيمة قد يجد فيها الأديب مجالاً واسعاً لإبراز فنه . ومن المسلم به بعد ذلك أن الصدق فى التعبير من أهم الشروط التى يجب توفرها فى النتاج الأدبى الجيد ، والخمر بما تدفع شاربيها إليه من تهور وصراحة فى التعبير والتفكير قد تساعد الأديب على توفير هذا الشرط فى انتاجه . وفى هذا يقول « النويرى » فى كتابه « نهاية الأرب » : « إن النديم لم يسم نديماً إلا لأنه يقول فى حالة سكره ما يندم عليه وقت صحوه » .



ونعود إلى العرب فى جاهليتهم لنرى أنهم برغم ضالة انتاج أرضهم قد شربوا الخمر بكثرة ، بل أدمنها بعضهم حتى إذا امتنع الواحد منهم عن تعاطيها مرض . يقول « ابن قتيبة فى كتابه « الأشربة » :

- « كان الرسول قد نهى وفد عبد القيس عن شرب المسكر . ثم وفدوا إليه  
فراهم مصفرة ألوانهم سيئة حالهم . فسألهم عن قصتهم فأعلموه أن ذلك  
لائتمارهم بما أمرهم به من ترك شرابهم فأذن لهم في شربه » .

وفي هذا المعنى يقول كعب بن سعد الغنوي :

تقولُ سُليمى ما لجسَمِك شاحباً  
كَأنك يَحْمِيك الشراب طَبيب

ويورد صاحب كتاب « شعراء النصرانية » قصة تبين لنا كيف كان  
الجاهلي يسرف في شرب الخمر مضحياً في سبيلها بأعز ما يملك حتى  
زوجته .

جاء عروة بن الورد بنى النضير يوماً فسقوه الخمر حتى اذا انتشى  
منعه ، ولا شيء معه إلا امرأته « سلمى » فرهنها ولم يزل يشرب حتى  
غلقت « ولما هم بالانصراف طلب إليها أن تنطلق معه فقالت لا سبيل  
إلى ذلك قد أغلقتنى . فانصرف عروة وحده وهو يقول :

سَقَوْنِ الخمرَ ثم تَكْنِفُونِ  
عُدَاةً مِنْ كَلْبٍ وَزَوْرٍ  
وَقَالَتْ لَسْتُ بِعَدَاةٍ سَلْمَى  
بِمَنْ مِمَّنْ مَا لَدَيْكَ وَلَا فَقِيرٍ  
وَلَا وَابِيكَ لَوْ مُلِكْتُ أَمْرِي  
وَمَنْ لِي بِالتَّدْبِيرِ فِي الْأُمُورِ  
إِذَا مَلَكَتْ عَصَمَةً أَمْ وَهْبٍ  
عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسْبِكَ الْصُدُورِ

ولعل مما يؤكد عظم مكانة الخمر في حياة العربي الجاهلي أن الله تعالى حينما أراد تحريمها لم يحرمها دفعة واحدة لعلمه بمكانتها القوية في نفس العربي ، وإنما تدرج في تحريمها كما نعلم .

وهناك دليل آخر على مكانة الخمر في حياة الجاهليين نستمدّه من اللغة ذاتها فكثرة المفردات التي تدل على الخمر في اللغة العربية دليل واضح على ما كان لها من أهمية عند أصحاب هذه اللغة . وقد استطعت أن أحصى من هذه الأسماء نيفا وخمسين اسما .

ولقد عرف الجاهليون أنواعا كثيرة من الخمر . يقول عمر بن الخطاب : « إن الخمر من خمسة أشياء : من البر والشعير والتمر والزبيب والعسل » ويضيف « ابن قتيبة » إلى هذه الأنواع نوعا سادسا فيقول إن اللبن هو الآخر مسكر والعرب يقولون « قوم يلبنون » إذا ظهر منهم سفة وجهل . ويقولون « قوم روي » إذا شربوا اللبن الرائب فسكروا . ومن هذا قول بشر بن حازم :

فأما تميمٌ تميمٌ بن مُرٍ  
فألفاهم القومُ روي نياما .

وحقّ البان الخيل يقول إنها تسكر أيضا . ولم أعثر على ذكر لهذه الأنواع من الخمور فيما قرأت من الشعر الجاهلي . وإنما الذي استلقت نظري بصفة خاصة في هذا الشعر هو ذكر بلدان كثيرة خارج الجزيرة العربية كانت تأتيهم منها الخمر ، فاذا تذكرنا ما نعلمه عن ضالة نتاج الجزيرة

الزراعى بحيث لا يكاد يكفى أهلها غذاء أدركنا أن جُلَّ خورهم كانت  
تستورد من الخارج . يقول الأعشى :

وسبيثة مما تمتق بابل  
كدم الذبيح سلبتها جريا لها

و« بابل » هذه التى يكثر ذكرها مقترنة بالخمرة فى الشعر الجاهلى يقول  
عنها ياقوت الحموى فى معجمه إنها ناحية منها الكوفة والحلة ينسب إليها  
السحر والخمر .

ويقول عمرو بن كلثوم :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا  
ولا تبقى خور الأندرينا

و« اندرينا » اسم قرية فى جنوب حلب فيها كروم .  
ويقول حسان :

من خمير بيسان تخيرتها  
ترياقة تسرع فتر العظم

و« بيسان » مدينة بالأردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين  
واليها ينسب الخمر . وهى لا تزال موجودة إلى الآن .

ويقول امرؤ القيس :

فظللت فى دمن الديار كأننى  
نشوان باكره صبوخ قدام  
أنف كلون دم الفزال معتق  
من خمير عانة أو كروم شبام

و« عانة » بلد مشهور بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة ،  
و« شمام » جبل عظيم فيه شجر وعيون بالقرب من صنعاء .  
ويقول عنترة :  
.. أو عاتقاً من أذرعاتٍ معتقاً مما تعتق ملوك الأعجم

و« أذرعات » بلد في أطراف الشام تجاور أرض البلقاء وعمان  
وينسب إليها الخمر .

وهكذا ترى أن الشعراء الجاهليين يصفون الخمر مرة بأنها من  
الشام ، ومرة بأنها من بابل أى من العراق ، ومما تعتق ملوك الأعجم أى  
من فارس ، وتكرر هذه الأوصاف كثيراً حتى نستطيع أن نجزم بأن جل  
الخمر كانت ترد للجزيرة العربية من هذه الجهات الثلاث . ومما يؤيد  
ذلك ذكر الخمر مقترنة بالتاجر في مواضع كثيرة .

فيقول عنترة :

وكان فارة تاجر بقسيمٍ .  
سبقت عوارضها إليك من الفم

بل إن كلمة تاجر أصبحت تستعمل للدلالة على الخمار ، فيقول  
« الزوزنى » في شرحه لبيد :

بل أنت لاتدرين كم من ليلةٍ  
طلق لذيذٍ هوها وندائها  
قد بت سامرها وغاية تاجر  
وافيت إذ رفعت وعزّ مدائها

يقول إنه أراد بالتاجر الخمار ، والغاية راية ينصبها ليعرف مكانه .  
ولعل هذه الحقيقة تفسر سبب ارتفاع أثمان الخمر وقتذاك ،  
وما يتبعه من فخر العربى بشرائها ، حتى انه يبذل فيها أحيانا النوق  
والخيول . يقول طرفه :

لا تَعْمُرُ الخمرُ وإن طافوا بها  
بسبأ الشول والكوم البكر

ويقول المنخل البشكرى :

ولقد شربت الخمر  
بالخيل الإنث وبالدكور  
ولقد شربت الخمر  
بالمبد الصحيح وبالأسير

ولعل فى أبيات طرفه بين العبد ما يساعدنا على تصور مكانة الخمر فى  
حياة عرب الجاهلية ، فهو يقول :

وان تبغى فى حلقة القوم تلقى  
وان تقتنصنى فى الحوانيت تصطد  
مضى تأتى أصيخك كاساً روية  
وان كنت عنها ذاغى فافن وازدد  
وان يلتق الحى الجميع تلاقى  
إلى ذروة المجد الكريم المصمد  
ندامى بيض كالنجوم وقينة  
تروخ علينا بين بزد ونجسد  
رحيب قطاب الحبيب منها رفيقة  
بحس الندامى بضه المتجرد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبثرت لنا  
على رجليها مطروفة لم تشد  
وما زال ثرابي الخمور ولذي  
وبيمي وإنفاقي طريفى ومثلدى  
إلى أن تحامتنى المشيرة كلها  
وأفردت أفراد البعير المعبّد  
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى  
فذرى أباذرها بما ملكت يدي  
فلولا ثلاث هن من حاجه الفتى  
وجذك لم أحفل متى قام عودى  
فمنهن سبقى المعاذلات بشرية  
كميت متى ما نفل بالماء تزيد

إن طرفة يفجر فى هذه الأبيات باشتراكه فى حلقات قومه وجدهم ،  
وفخر كذلك بارتياحه الخوانيت والخمارات ، وهو يشرب الخمر مع  
علمه بأنها قد لا تخلو من مضار لأنه يعلم أيضا أنها مظهر من مظاهر  
الفتوة والثراء ، فهو يدعوك لكأس روية ولكنه يستدرك قائلا : « وإن  
كنت عنها فى غنى فاغن وازدد » . وهو يرتفع بنفسه إلى ذروة المجد  
الكريم المصمد ، ولا يأنف بعد ذلك — وفى البيت التالى مباشرة —  
عن ذكر نداماه وقينته البضة المتجرد ، وكان هذا لا يتنافى مع ذاك ،  
بل يتفقان !

ثم هو يذكر أن إسرافه فى اللهو والشراب قد دفعه إلى بيع طريفه  
وتالده حتى تحامته عشيرته وتجنبته كما تجنب البعيد الأجرب ، يذكر

ذلك دون ما أسى ، بل على العكس في كثير من الفخر والاعتزاز .  
ونحن نعلم أن رباط العربى بقييلته كان قوام حياته ، فإذا ما انفصم  
هذا الرباط ولم ير الفرد في ذلك شيئا ، فما ذلك الا للأهمية التى يعطيها  
لسبب هذا الانفصام وأنه ليس مما يمكن يُعير به على كل حال .

وطرفه يبرر بعد ذلك شربه للخمر بشىء من التحدى فيقول لك  
مادمت لا تستطيع دفع الموت عنى متى أقبل ، فدعنى أعش حياتى كما  
أريد فإنى إنما أرغب فى هذه الحياة لثلاث خصال أولها – وبالتالى  
أهمها – شرب الخمر .

ومثله امرؤ القيس حين يودع شبابه فلا يهيمه منه إلا خصال أربع  
أولها كذلك شرب الخمر :

وأصبحتُ ودَّعْتُ الصِّبَا غير أننى  
أراقبُ خَلَاتٍ من العيش أربعا  
فمنهن قولى للندامى ترفقوا  
يُدَاجُونَ نَشَاجاً من الخمر مترعا

وقد يبالغ الشاعر منهم فى إظهار حبه للخمر فيقول إنه لا يبالى  
بضرب أو موت ولكنه يبالى اذا حرم يوما واحدا من شرب الخمر ، أو  
يطلب إلى زوجته أن تسقى قبره بها بعد موته كما يقول أبو محجن  
الثقفى :

ضربتُ فلم أجزع ولم أك جازعا-  
لحادثٍ دهمٍ فى الحكومةِ جائرٍ



وانى لذو صبرٍ وقدمات إخوتى  
ولست عن الصهباء يوماً بصابر  
ويقول حاتم الطائي مخاطباً زوجته :  
أماوى إمامتُ فاسمعى بنطفةٍ  
من الخمر رياء فانضحن بها قبرى  
فلو أن عين الخمر فى رأسٍ شارفٍ  
من الأسد وردٍ لاعتلجنا على الخمر

\*\*\*

ويقترن ذكر الخمر بذكر الموت فى مواضع كثيرة من الشعر  
الجاهلى . ترى هل كان الموت من الدوافع التى تجعلهم يدمنون  
الخمر ؟ إن الرجل منهم ليعلم أن حينه سيحين لا ريب ، بل هو يعلم  
أنه ربما مات بأسرع مما قدر لنفسه ، لذلك فهو يقبل على اللذات  
يفترق منها بقدر ما يستطيع مخافة أن تأتى غارة بعد ساعة تقضى  
عليه قبل أن يتزود بكفايته من المتع واللذات التى لم يحرمها قانون  
ولا دين ، بل على العكس فامتلاكه لها دليل على قوته وفتوته . وقد  
رأينا « طرفه » يشير إلى هذا المعنى فى معلقته . التى يقول فيها  
أيضا :

لذرنى أروى هامقى فى حيايتها  
خافة شرب فى المماتِ مُصَرَّد  
كريمٌ يُروى نفسه فى حياته  
ستعلمُ إن مُتنا صَدَى أينا الصَّيْدِ  
أرى قبرَ نحامٍ بخيل بما له  
كقبرِ غوىءٍ فى البطالةِ مُفسد

ويقول أبو عجن الثقفى :

إذا مت فادفننى إلى أصل كَرْمَةٍ  
تُرَوِّى عظامى فى الترابِ عروقُها  
ولا تدفننى فى الغلاةِ فلأننى  
أخافُ إذا ماتت ألا أذوقُها

ويقول عبيد بن الأبرص :

إنْ أَشْرَبَ الخمرَ أو أَرْزَأَها ثَمنا  
فلا محالةَ يوما أننى صاحى  
ولا محالة من قبرٍ بمحنيةٍ  
وكفى كَسْرًا الشورِ وضاحٍ

ويقول أمروء القيس :

تمتع من الدنيا فلأنك فانٍ  
من النشوات والنساء الحسان

\*\*\*

ومن تقاليد الجاهليين المعروفة التى إن دلت على شىء فإنما تدل على إدراكهم لخطر الخمر فى حياة الفرد . . أنهم كانوا يحرمون شربها على الرجل حتى يأخذ ثأره ويتنقم لقتيل أسرته وفى هذا يقول أمروء القيس :

قد قرت العينان من مالِك  
ومن بنى عمرو ومن كاهلٍ  
ومن بنى غنيم بن دُودان إذ  
نقلدُ أعلامهم على السافل

حَلْتُ لِي الْخَمْرُ وَكُنْتُ إِمْرًا  
 عَنْ شَرْبِهَا فِي شَغْلٍ شَاغِلٍ  
 فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحَقِّ  
 إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ  
 ويقول المهلهل في رثاء أخيه كليب :

خَذَ الْعَهْدَ الْأَكِيدَ عَلَى عَمْرِي  
 بَتَرَكِي كُلَّ مَاحُوتِ الدِيَارِ  
 وَهَجَرِي الْغَنَائِيَّ وَشَرِبَ كَأْسٍ  
 وَلَبَسَى جُبَّةً لَا تَسْتَعَارُ  
 وَلَسْتُ بِخَالِعٍ دِرْعِي وَسِيفِي  
 إِلَى أَنْ يَجْلُعَ اللَّيْلُ النَّهَارُ  
 وَإِلَّا أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرِ  
 فَلَا يَبْقَى لَهَا أَبَدًا أَثَارُ  
 وكذلك يقول تأبط شرا :

فَأَدْرَكْنَا الشَّارَ مِنْهُمْ وَلَمَّا  
 يَنْجُ قَلْحَيْنِ إِلَّا الْأَقْلُ  
 حَلْتُ الْخَمْرُ وَكَانَتْ حَرَامًا  
 وَبَلَايَ مَا أَلْتُ تَحُلُ

حين ندرك هذه المكانة الهامة التي احتلتها الخمر في حياة العرب في  
 الجاهلية نتوقع أن نجد لها تحتل جزءا كبيرا من دواوين شعرائهم ،  
 ولكنك اذا تصفحت ديوانا كديوان « طرفة » الذي يعتبرها أولى خصال  
 ثلاث يهاب الردي من أجلها ، يدهشك ألا تجد لها ذكراً إلا في ستة

أبيات أخرى غير التي ذكرناها ، وكذلك الحال مع معظم الشعراء الآخرين تظل تعلق في دواوينهم فلا تعثر إلا على البيت أو الأبيات القليلة التي تصور شدة تعلقه بالخمر وادمانه لها . ثم لا شيء سوى أبيات أخرى قليلة تستطيع في الأغلب أن تحصيها على الأصابع ، وغالبا ما تحيى في معرض المدح أو الهجاء أو الغزل ، وقد لا تجد لها ذكرا على الإطلاق في بعض الدواوين مثل دواوين عامر بن الطفيل والنابعة وأميرة بن أبي الصلت . وقد يكون ذلك راجعا إلى ضياع كثير من الشعر الجاهلي أو لغيره من الأسباب التي لسنا في معرض مناقشتها وإنما نحن نقرر حقائق ملموسة بين أيدينا لا يستثنى من ذلك سوى شاعر واحد ، هو الأعشى بالطبع ، فقد أحصينا له وحده ما لا يقل عن مائة وخمسين بيتا في الخمر في حين أن كل ما استطعنا جمعه من شعر الشعراء الآخرين مجتمعين لا يزيد على مائتي بيت .

ونستطيع أن نقسم هذا القدر من الشعر إلى قسمين واضحين : أحدهما وهو جل شعر الخمر الجاهلي يتحدث فيه الشاعر عن الخمر كما يتحدث عن ناقته أو عن فرسه ، فهو يذكرها ويذكر حبه لها وشدة تعلقه بها وفوائدها . ويصفها ويصف لونها وصفاءها يبالغ في ذكر قدمها ويصف إناءها ودينها ومجالسها وشاربيها وندمانها ، ويفخر بغلاء الثمن الذي بذله في سبيلها وهو في ذلك كله يشبه المحسوس بالمحسوس شأنه حينها يصف ناقته أو يصف فرسه وريحه . وتحس في كل ذلك صدقه وبساطته ، ولا تملك إلا أن تشاركه عواطفه وأحاسيسه نحوها شأنك حينما تسمعه يعبر عن عواطفه نحو ناقته أو فرسه أو ما يشابهها مما له كبير الأثر في حياته .

وفي هذا القسم - كما في القسم الآخر - يذ الأعشى جميع شعراء  
الجاهلية . وقد قالوا قديماً « إن أشعر الناس الأعشى اذا طرب » ، وهو  
حكم صحيح لا غبار عليه ، فالجاهليون مغرمون بتشبيه الخمر بالدم  
ولكن أحدا منهم لم يرتفع الى مستوى الأعشى حين قال :

فترى ابريقهم مسترعفاً  
بشمولٍ صُفِّقَتْ من ماءٍ شَنّ  
أو :

وسبيئتي مما تمعّق بابلُ  
كدم الذبيح سلبتها جريالها

والجاهليون يقولون كثيراً في صفاء الخمر ولكن أحداً منهم لم يقل  
أبلغ من قول الأعشى :

تريك القتلى من فوقها وهي فوقه  
اذا ذاقها من ذاقها يتمطق

وهم يبالغون في وصف طيب رائحتها ويشبهونها بالمسك ، ولكن  
الأعشى هو الذي يتفوق عليهم جميعاً حين يقول :

وأدكن عاتقٍ حجل سَبَحَل  
صَبَحْتُ بِرَاجِهِ شرباً كراماً  
من اللان مُلَنَ على المطايا  
كريح المسك تستل الزكاما

والأخطل نفسه وهو متأخر عليه كثيراً يعترف - على

حد رواية صاحب « الأغاني » - بتفوق بيتي الأعشى  
هذين على أبياته هو التي يقول فيها :

وَنَظَّلَ تُنْصَفُنَا بِهَا قَرْوِيَّة  
إِيرِيْقُهَا بِرِقَاعِهَا مَلْثُومٌ  
وَإِذَا تَعَاوَزَتِ الْأَكْفُ زُجَاجُهَا  
نَفَخَتْ فَيْشَمَ رِيَاخَهَا الْمَرْكُومَ

والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة ..

\*\*\*

أما القسم الثاني من شعر الخمر عند الجاهليين فهو في وصف  
تأثيرها النفسي وفي الجسم ، والشعراء الجاهليون يكادون يجمعون على  
أنها تدفعهم إلى الكرم والعطاء ، فيقول عمرو بن كلثوم :

مَشْعَمَةٌ كَأَنَّ الْحَصَّ فِيهَا  
إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا مَخِينَا  
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أَمَرْتُ  
عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا

ويقول طرفة :

إِذَا مَا شَرِبُوهَا وَانْتَشَرُوا  
وَهَبُوا كُلَّ أَمُونٍ وَطَنَرِ

وَإِذَا شَرِبْتَ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ  
مَالِي ، وَعِزِّي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ

وتقول الخرنق أخت طرفة :

إن يشربوا يهبوا  
وان يذروا يتوافظوا عن منطقي الهجر

وهم مجمعون أيضا على أنها تدفعهم إلى الشجاعة وتجعلهم  
يستشعرون العظمة إذا ما شربوها فكأنهم الملوك . يقول حسان :

ونشربها فتركنا ملوكاً  
وأسدأ ماينهننا اللقاء

ويقول المنخل اليشكري :

شربتُ الخمر حتى خلْتُ أني  
أهو قابوس أو عبد المدان  
أمشى في بني عدس بين زيد  
رخی البالد منطلق اللسان

إلى أن يقول :

فلذا شربتُ فلأني  
ربُّ الخورنق والسدير  
واذا صحوْتُ فلأني  
ربُّ الشوبة والبعر

ويقول الأعشى :

من قهوة صينت ببابل حبة  
تدع الفقى ملكاً أغر متوجاً

ولعل الأخطل قد تأثر بهذا المعنى حين قال :

إذا مأنديى علنى ثم علنى  
ثلاث زجاجات لمن هدير  
خرجت أجر الدليل منى كائننى .  
عليك أمير المؤمنين أمير

\*\*\*

ولا يخلو وصف الجاهليين لتأثير الخمر من فكاهة وخفة ظل تذكرنا بما  
نسمعه أو نقرأه عن شاربها في أيامنا هذه :  
يقول دريد بن الصمه :

يأنديى اسقيان خمرة  
ودعان أبصر الشبين شيا  
ويقول الأعشى :

شربت الراح بالقلتين حتى  
حسبت دجاجة مرت حمرا

ويقول آخر :

شربنا شربة من ذات عرق  
بأطراف الزجاج لها هدير  
وأخرى بالروق ثم رحنبا  
نرى العصفور أعظم من بعمير  
وأبصرت الذباب إذا علنا  
أجل من الهبل من النسور



ويقول الأعشى :

وطلاءُ خسرواني إذا  
ذاقه الشبغُ تغنى وارجحن

\*\*\*

وأمدت الخمر الشعراء الجاهليين بكمية ضخمة من الصور والتشبيهات احسنوا استغلالها في جميع أغراض الشعر الأخرى . . ولقد رأينا كيف كانت الخمر من دواعي فخرهم ومحاسنهم ، وسنرى الآن كيف تداخلت في الأغراض الأخرى من المدح والهجاء إلى البكاء على الأطلال والثناء . أما الغزل فصلته بالخمر وثيقة ، لا في الشعر الجاهلي فحسب ، ولكن في كل الشعر العربي والغربي قديمه وحديثه . وسنكتفى لتأييد ما نقول بإيراد بعض أمثلة قليلة مما لدينا في كل غرض .

في المدح : يقول الأعشى :

له خلق على الأيام يصفو  
كما رقت على دهر عفار

ويقول طرفة :

وهم ما هم إذا مالبسوا  
نسج داوود لبأس محتضر  
وتساقى القوم كأساً مرة  
وعلا الخيل دماء كالشعر

لَا تَعِزُّ الْخَمْرُ وَإِنْ طَافُوا بِهَا  
بِسَبَاءِ الثَّوْلِ وَالْكُومِ الْبُكَرِ  
فَإِذَا مَا شَرَبُوا وَانْتَشَرُوا  
وَهَبُوا كُلُّ أَمْهٍ وَطَمِرَ

وفي الهجاء يقول عبيد بن الأبرص :  
وَأَنْتَ اسرُّ أَلْهَآكُ دُفٌّ وَقَنْبِينَةٌ  
فَتَصْبُحُ خَمُورًا وَتَمُوتُ كَذَاكُ  
ويقول دريد بن الصمة :

هَلَا نَمِيتُمْ أَهْلَكُمْ عَنْ سَفَاهَتِهِ  
إِذْ تَشْرَبُونَ وَغَاوَى الْخَمْرُ مَدْحُورُ  
وفي البكاء على الأطلال يقول امرؤ القيس :  
فَظَلَلْتُ فِي دِيْنِ الدِّيَارِ كَأَنِّي  
نَشْوَانُ بَاكِرُهُ صَبُوحِ مَدَامِ  
ويقول عبيد بن الأبرص بعد أن يذكر الأطلال ويقايا الديار في عدة  
أبيات :

ظَلَلْتُ بِهَا كَأَنِّي شَارِبُ  
صَهْبَاءٍ مِمَّا عَتَقْتُ بَابِلُ  
وفي الرثاء يقول قسي بن ساعدة يرثي أخويه :  
أَصْبَ عَلَى قَبْرَيْكُمَا مِنْ نُدَامَةٍ  
فَلَا تَنَالَاهَا أَبَلُ ثَرَاكُمَا

ويقول أوسنُ بن حجر يرثى فضالةَ بنَ كلده الأسدى  
وكان له عليه فضل كثير :

ليبك الشربُ والمدامَةُ والـ  
فتيان طُرا وطامعُ طمعا  
وفى الغزل يقول امرؤ القيس :

أغادى الصبوح عند هرة وفرتنا  
وليدا وهل أفنى شبابى فيرهز  
إذا ذقتُ فاهما قلتُ طممُ مدامية  
معتقة بما تجيء به التجر  
ويقول أبو ذؤيب الهذلي :

فلو أن إماما عند ابن بُجَرة عندها  
من الخمر لم تبُللْ لهاق بناطل  
ويقول الأعشى :

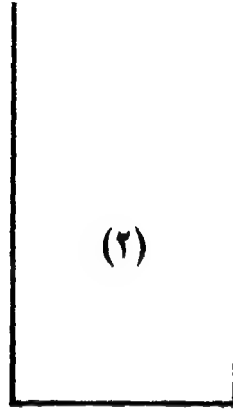
وما صهبا من عانة في الذراع محمولة  
ثوت في الخرس أعواما وجاءت وهى مقتولة  
بماء المُرْزنة القراء راحت وهى مشمولة  
بأشهى منك للظمان لو أنك مبدولة

\*\*\*

وبعد ، فهذه دراسة سريعة لظاهرة أدبية قديمة كادت تنقرض اليوم  
من شعرنا الحديث ، فلم يعد للخمر اليوم مثل تلك المكانة الهامة التى  
كانت لها فى حياة أسلافنا من العرب القدماء ، ولم تعد تجربة احتساؤها

ذات أهمية كبيرة تستحق التسجيل إلا في أضيق الحدود ، وباعتبارها  
تجربة ذاتية خالصة شأنها شأن غيرها من التجارب الفردية التي  
لا يحرص الشاعر اليوم على تصويرها إلا بقدر ما لها من دلالة عامة  
وقدرة على التعبير عما يجيش بنفسه من أزمات وانفعالات عصرية .

(١٩٤٩)



اتجاهات ثورية في شعر الشام

كان انبثاق فكرة القومية العربية في العصر الحديث نتاج حركة فكرية أدبية خالصة بدأت بالاهتمام بدراسة اللغة العربية وآدابها ، وكان أشقاؤنا اللبنانيون والسوريون هم طلائع هذه الحركة وروادها . هذه حقيقة هامة تؤكد ها كل دراسة جادة لنشأة فكرة القومية العربية ، وفي هذا المعنى يقول الأمير « مصطفى الشهابي » في كتابه « القومية العربية » :

« ان اليقظة الأدبية والثقافية الحديثة أوجدت منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر شعورا عربيا عند فئة من عرب الدولة العثمانية مسلميهم ومسيحيهم على السواء . وكان المسيحيون أسبق من غيرهم إلى التحسس بهذا الشعور ، وإلى المجاهرة بالحركة القومية ، العربية . . ولعل لا أخطيء اذا قلت إن الشعور الجماعي بالقومية العربية والعمل لها بدأ يذر قرنه في بيروت ، ثم ظهر في دمشق ، ثم أخذ ينتشر في سائر الأقطار العربية . وهذا الترتيب يساير اليقظة الأدبية الحديثة في الشام ، فقد نشأت في بيروت وجبل لبنان منذ أواسط القرن التاسع عشر يوم كان من روادها الأول المعلم « ناصيف اليازجي » والمعلم « بطرس البستاني » ، والشيخ « يوسف الأسير » . . وغيرهم ثم برزت هذه اليقظة الأدبية بدمشق في زمن الوالي « مدحت باشا » ، وكان الشيخ « طاهر الجزائري » من أكبر العاملين لها . . »

وينبغي أن نتوقف هنا قليلا لتذكر أن سوريا ولبنان كانتا حتى عام ١٩١٨ وحدة سياسية وثقافية واحدة بحيث كان من العسير الفصل بين

التيارات الفكرية والقومية التي عرفها كل من القطرين ، وكانت كلمتا « الشام » و« سوريا » تستعملان للدلالة على القطرين معا ، ففي عام ١٨٥٧ مثلا كون فريق من الشبان الوطنيين جمعية ثقافية في بيروت تهدف إلى نشر العلوم والآداب وإحياء التراث العربي ، وأسموها « الجمعية العلمية السورية » ، ومن بين هؤلاء الشبان أنفسهم تكونت جمعية أخرى سرية ذات طابع سياسي ، انبثقت منها أول دعوة صريحة للوحدة العربية في شكل قصائد ثورية قالها الشاعر الأديب « ابراهيم اليازجي » وهاجم فيها الاستعمار العثماني ، ودعا العرب إلى جمع صفوفهم والذود عن حريتهم وكرامتهم ، يقول في إحداها :

« فالترك قوم لا يفوز  
لديهم إلا المشاكس  
أولستم العرب الكرام  
ومن هم الشم المعاطس  
فاستوقدوا لقتالهم  
نارا تروع كل قابس ،

ويقول في قصيدة أخرى :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب  
فقد طوى السيل حتى غاصت الركب  
فيم التعلل بالأمال تخدعكم  
وانتم بين راحت القنا سلب  
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم  
تستغضبون فلا يبدو لكم غضب



وقام الشعر السورى منذ ذلك الوقت بدوره الهام فى تنمية هذه الفكرة العربية والدعوة لها ، ولا عجب ، فقد كان الشعر دائما ، ولدى العرب خاصة ، عنصرا هاما من عناصر الحياة الفكرية ، والحركات السياسية والاجتماعية ، يتقدم الركب ، ويشحذ الهمم ، ويسجل البطولات ويخلدها ، حتى لقد قيل قديما إن الشعر هو ديوان العرب يحوى سجل أيامهم وتاريخهم . ودارس الشعر السورى فى الخمسين سنة الماضية لن يصعب عليه أن يتبين فيه كثيرا من الاتجاهات الإيجابية الثورية التى سحلت كفاح أسقائنا فى الشمال فى سبيل حريتهم واستقلالهم ، وكيف تجاوب شعراؤهم مع أحداث النضال المرير الذى خاضوه حتى حرروا بلادهم من نير الاستعمارين التركى والفرنسى ، وكان الشاعر السورى دائما فى طليعة المنادين بوحدة العرب ، وجمع شملهم .

قد استشعر الاستعمار العثمانى خطر الدور الذى يقوم به الشعراء والمفكرون ، فنالهم بكثير من الأذى والنكال ، وكان معظم من أعدمهم الوالى التركى « جمال باشا » فى مذبحه عام ١٩١٦ من الأدباء والمثقفين استشهدوا إلى جانب إخوانهم من الضباط والزعماء السياسيين ، وكانت التهمة التى أعدموا من أجلها هى العمل لاستقلال العرب وانفصالهم عن الدولة العثمانية ، وما أشرفها من تهمة خلدت أسماءهم فى أمجد صفحات التاريخ .

وظن « جمال باشا » أنه بهذه المذبحة الجماعية التى قتل فيها أكثر من ثلاثين وطنيا من العرب ، قد أخمد الجذوة التى أشعلها الشعر الوطنى



والفكر الحر ، ولكنه كان واحما ، إذ سجل الشعر السوري هذه المذبحة  
الرهية ولعن مدبريها ، ومضى في طريقه الأول يؤجج نار الثورة في  
صدور العرب في كل مكان ، وقد حفظ لنا التاريخ قصائد كثيرة لشعراء  
سوريا في هذا الاتجاه ، منها القصيدة التي قالها « محمد الشريقي » وهو  
سجين في قلعة دمشق عام ١٩١٦ ، وفيها يقول :

« الله شبان البلاد وشبها  
باسم البلاد على الجلود تعلق  
يتقدمون إلى الردى بتبسم  
لا يرهبون الموت وهو محقق  
ليكل لنا الأوغاد ما شاءوا من أذى  
لا بد أن الظلم يوما يحق  
نقموا علينا أن نحب بلادنا  
والحب في شرع الإله مصلق  
وقضوا على بأن أزج بمحبس  
من دونه باب المسرة مغلق  
زعموا بأن السجن يومن عزمي  
يا بش ما زعم الظلوم الأحمق

\*\*\*

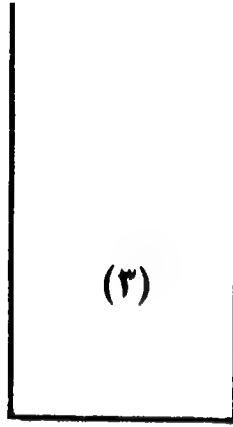
وارتفع صوت شعراء سوريا في المهجر الأمريكي قويا عنيفا يندد  
بوحشية المستعمرين الأتراك ، ويؤكد فكرة الكفاح العربي المشترك ،  
وها هو ذا « الشاعر القروي » ، يخاطب شهداء المذبحة في قصيدة وطنية  
نشرت في ذلك الوقت ، يؤكد فيها أن المحنة لم تزد العرب إلا ارتباطا  
 واتحادا :

« قد علقتم يد الجاني ملطخة  
فقدست بكم الأعواد والمسدا  
حتى غدا كل حر لو نصبت له  
حبل المنون على هدابه سجدا  
بل علقوكم بصدر الأفق أو سمة  
منها الشرياء تلظى صدورها حسدا  
أكرم بحبل غدا للعرب رابطة  
وعقدة وحدت للعرب معتقدا

وقام الشعر السورى بدور بطولى فى مقاومة الاستعمار الفرنسى وأعوانه منذ اللحظة التى وطأت فيه أقدامه أرض الشام عقب موقعه « ميسلون » المشهورة عام ١٩٢٠ ، حتى ساعة جلأته مهزوما عام ١٩٤٦ ، ويكفى أن نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، أسماء بعض الشعراء الذين جلأوا فى هذا الميدان ، ليرجع إلى دواوينهم من شاء أن يعيش مع إخواننا أبناء الشام فى ذكريات نضالهم المجيد ضد الاستعمار الفرنسى ومؤامراته ، ومن أبرز هؤلاء الشعراء : خير الدين الزركلى ، خليل مردم ، شفيق جبرى ، عمر أبوريشة ، سليمان العيسى ، ابراهيم طوقان ، بدر الدين الحامد ، بدوى الجبل .. وغيرهم .

ودارس القصائد الوطنية والثورية التى قالها هؤلاء الشعراء وغيرهم فى شتى المناسبات والأحداث سيلحظ على الفور ظاهرة رائعة حقاً لخصها الدكتور أمجد الطرابلسى فى قوله : « الثورة لم تكن فى نظر الشعراء فى بلاد الشام ثورة الشام وحده بل ثورة العرب . ورجال الثورة لم يعلنوا ثورتهم باسم جبل الدروز أو دمشق أو سورية ، بل بناسم

العروبة ولخير العروبة » . وهكذا نرى أننا مدينون بالكثير لشعراء الشام ، ووعيمهم القومي السليم ، فقد كان لهم فضل السبق في الدعوة للوحدة العربية ، وما لبثت أن رددت « القاهرة » و« بغداد » وبقية العواصم العربية أصدااء الصيحة التي انبعثت من بيروت ودمشق .  
( فبراير ١٩٦٠ )



دفاع عن الشاعر غير المثقف !..

« ثارت مناقشة - وأنا طالب بليسانس الأدب العربى بجامعة الاسكندرية - مع بعض الزملاء حول أثر الثقافة على الشعراء ، فوجدتني أدافع عن شعر الفطرة الصادقة ، والطبيعة البسيطة الغنية بالمشاعر ، وأهاجم شعراء الصنعة ممن يتضح أثر الثقافة واضحا في شعرهم ، وكان ذلك في محاضره لأستاذنا الدكتور محمد طه الحاجرى ، فما كان منه إلا أن حسم المناقشة بأن طلب منى أن أثبت وجهة نظرى في مقال أكتبه ، وكلف أشد المتحمسين لمعارضتى بتأييد آرائه في مقال آخر ، على أن يقرأ كل منا مقاله بعد أسبوعين ، ونستأنف المناقشة على ضوء ماكتبناه ، فكان هذا المقال الذى لا يخلو من سذاجة . والذى قد أكون عدلت الآن عن كثير من الآراء التى أوردتها فيه ، ولكنى رأيت اثباته هنا مع ذلك ، لما فيه من طرافة ، ولما يستثيره في النفس من ذكريات تلك الأيام الخوالى ، حينما كانت الحماسة والأحلام الزاهية المشرقة لا تزال تستبد بالنفس وبكل ما يصدر عنها . . »

من الواضح أنه لا سبيل إلى الزعم بأن الشاعر غير المثقف أفضل من ذلك المثقف ثقافة عميقة مهضومة . فمما لا شك فيه أن الشعر ، والفن بشكل عام ليس خلقا من العدم ، ومن ثم فكلمنا اتسعت ثقافة الشاعر وعمقت ، كان أقدر على التحليق والتجويد . فإذا كان الانسان العادى في عصرنا هذا مطالبا بأن يلم بثقافات عديدة متشعبة ، ليستطيع أن يعتبر نفسه انسانا اجتماعيا يشارك من حوله حياتهم ويختلف ألوان نشاطهم . فما بالك بذلك الذى يتصدى للانتاج الفنى شعرا كان أو غير شعر ، ولكن الذى أزعمه في هذا المقال أن النفس الشاعرة

قد توجد — بل وجدت بالفعل — دون أن تتقيد بعلم أو ثقافة ، وكثيرا ما عبرت عن نفسها وأجادت التعبير ، وتفوقت في بعض الأحيان على تلك النفس المعقدة التي تأثرت بالثقافات والحضارات المختلفة .

وهدفى في هذا المقال هو الدفاع عن هذه النفس الشاعرة متى وجدت ، والزعم بأن شاعريتها وجمال أدائها يرجعان ، أكثر ما يرجعان ، إلى فطريتها وسذاجتها الهامسة ، بحيث اذا أتينا بهذا الشاعر وزودناه بقدر من العلم والثقافة فستكون النتيجة واحدة من اثنين :

إما أن هذه الثقافة سنفسد عليه نعمة نفسه التي تصدر عن قلبه مباشرة دون تكلف أو عناء ، وتحيلها الى لون من النظم العقيم يجهد الشاعر نفسه في رصفه ليجهدك بعد ذلك في فهمه ، وليلدل على أنه استفاد مما لفتته من ثقافة وعلم ، واما أنه سيستطيع أن يستوعب هذه الثقافة ويتركها لتؤثر في عقله وقلبه فتعمق أفكاره وتوسع آفاقه فينتج لنا شعرا يتجه إلى العقول قبل أن يتجه إلى القلوب ويخاطب الذهن بالمنطق والقضايا أكثر مما يداعب النفس بالصور والايحاءات .

وفي كلتا الحالتين نكون قد خسرنا أكثر مما كسبنا ، لأننا فقدنا تلك النفس النادرة المعبرة عن نفسها في تلقائية وعذوبة ، والتي تتغنى بالشعر كما يتغنى العندليب بالشدو ، وكما تتأرجح الزهرة بالعطر . . فإذا استطعت أن تسأل الطير لماذا يترنم والزهر لماذا يتأرجح ، ففي إمكانك أن تسأل هذا الشاعر المطبوع غير المثقف لماذا يقول الشعر ! . وإذا كان من حقه أن تتحكم في الأنعام التي يرددها الطائر المفرد أو أن تنجح في

تطعيم الورود بعطور مجتلبه من الخارج ، فمن حقا أن تلقح نفس هذا الشاعر بما شئت من العلوم والثقافات ! .

وليس معنى هذا أننا نطالب جميع الشعراء بقول مثل هذا الشعر الفطرى الساذج ، فللشعر العقل ، الذى لا ينتج إلا بعد جهد وتحصيل وصنعة ، جماله الذى لا ينكر ولذته التى نحصلها بعد أن نجهد عقولنا فى فهمه واستكناه ألغازه . . غير أن هذا الجمال وتلك اللذة لا تكفيان لكى نفرض على كل الشعراء ما نشاء من ثقافات ، بل يكفيان منهم من يجد فى نفسه الرغبة فى التحصيل . . والظما للتعلم فى مختلف الثقافات ، وفى أدبنا العربى - بل فى كل أدب - الكثير من هؤلاء . فلنكف بهم ولنترك بعد ذلك لكل شاعر حرية اختيار الطريق التى تناسبه وتتفق مع ميوله وملكاته .

ولأسارع إلى تحديد ما أعنيه بهذه الثقافة التى قد يصلح حال بعض الشعراء بدونها ، قبل أن يلتبس علينا الأمر ويتشعب بنا الحديث .

ولعل بحثنا فى طبيعة الفن الشعرى ذاته ما يساعد على هذا التحديد ، كما يساعد على توضيح وجهة نظرنا فى الدفاع عن هذا الشاعر غير المثقف .

هناك حقيقة لا يمكن إغفالها أو المكابرة فيها وهى أن الشعر ، ككل فن من الفنون الأخرى ، يقوم جانب كبير منه على أساس من الصنعة التى لا بد معها من أدوات اذا لم تتوفر للفنان استحالة عليه أن ينتج شيئا .

فالمصور مثلا لا بد له من الريشة والألوان ثم اللوحة ، ولا بد له

كذلك من خبرة مكتسبة يستطيع أن يستخدم بواسطتها هذه الأدوات بنجاح ليبرع عما يريد . . وكذلك الأمر مع الشاعر فآدواته هى الألفاظ والأوزان والقوافى ، فإذا لم يعرف قواعد استعمالها الصحيحة استحال عليه أن يقول شعرا . إذن فالإلمام بهذا الجانب الحرفى الخالص من الفن الشعرى لا يعتبر لونا من الثقافة التى نتحدث عنها .

ومن قديم نسمع أن الشعر هو لغة العاطفة والوجدان فى حين أن النثر هو لغة العقل والمنطق ، وإن كان الواقع أن النثر يستطيع هو الآخر أن يعبر أجمل تعبير عن العاطفة ، فما الفرق إذن بين لغة العاطفة هذه ولغة العقل ؟

الواقع أن الفرق بينها هو الفرق بين الفن والعلم . . فمن طبيعة العاطفة أو الوجدان أو الشعور ، سمها ما شئت ، وإنما أقصد بها هذه الطاقة الانفعالية التى تمكنا من أن نحب وأن نكره ، أن نغضب ونسعد ، وأن نتجهم ونحزن . . هى تلك القدرة التى تجعلنا نشعر باللذة العميقة استجابة لمؤثر ما ، فى حين نشعر بالألم يتخلل صدورنا نتيجة لمؤثر آخر . .

من طبيعة هذه العاطفة أن تتلقى المؤثرات فرادى ، وتتفاعل لكل مؤثر تتلقاه انفعالا مباشرا دون أن تتقصى أسبابه أو نتائجه . . ودون أن تحاول تصنيف هذه المؤثرات ؛ كل نوع على حدة لتخلص فى النهاية بقانون عام ، فهذا هو عمل العقل . . وعندى أن هذه القوانين هى أخطر شىء بالنسبة للفن الذى يتولى عرض الجزئيات الصغيرة بعد أن يلونها بإحساس الفنان . .



والتجربة التافهة التي يزدرىها العقل ويحقرها العلم هي نفسها الميدان الخصب أمام الفنان الموهوب ، يعرضها رسماً أو شعراً أو ما شاء له فنه الذي يمارسه .

وهذه الحقيقة هي أوضح ما تكون بالنسبة للشعر الذي هو أحد شطري التعبير اللفظي – ويخيل إلى أحيانا أن الطبيعة اختصته بالموسيقى الواضحة وقيدته بالأوزان والقوافي لتعفيه بعد ذلك من عناء التفكير والمنطق والقضايا التي تثقل النثر عادة . فالشعر الحق – كما ترى – هو « نبضة قلب قبل أن يكون لمعة فكر » ، وهو خفقة حياة قبل أن يكون فكرة ذهن ، وهو حالة نفسية قبل أن يكون قضية فكرية ، وهو ظلال انسان قبل أن يكون التمتع أفكار ، ووسوسة أفئدة قبل أن يكون رنين ألفاظ » ، وانصت معي إلى هذه النفس الشاعرة التي يبدو أنها قاست كثيراً من قيود الفكر والمنطق التي حاول بعض النقاد أن يفرضها على الشعر في عصره . . تلك هي نفس « البحتري » نفذت إلى أحدث الحقائق الشعرية من قرون طويلة :

كلفتمونا حدود منطقكم  
والشعر يفنى عن صدقه كذبه  
ولم يكن ذو الجروح يلهج  
بالمنطق مانوعه وماسببه  
والشعر لمح تكفى إشارته  
وليس بالهذر طولت خطبه

\*\*\*

وتأتى بعد ذلك ناحية أخرى لا مفر لكل شاعر ، بل لكل أديب أو

فنان ، من أن يلهم بها إلهاما كبيرا ، وهى من حسن الحظ لا يمكن  
تعتبر من الثقافة التى نتحدث عنها . . . وتلك هى الحياة ذاتها معد  
الأول ، على الشاعر أن يحس بها إحساسا عميقا خاصا ، ويلاحظ  
ما حوله ملاحظة دقيقة نافذة ، ويغمز نفسه غمرا بما تحيط به الحياة .  
تجارب . عليه أن ينفذ جيدا نصيحة الأديب والشاعر الفرنسى الك  
« جورج ديهاى » لأديب ناشئ إذ يقول له : « لا تنس أن تعيش عث  
أولا . عش بكل قواك ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام ، وأكتب ثلاثة أي  
لتملا ثلاث صفحات » .

وما نتحدث ناقد من نقاد الفن أو الأدب إلا وفرض على الفنان المنت  
مثل هذه الخبرة بالحياة والملاحظة الدقيقة لها ، وذلك لأن الفن ما هو  
ألا اختيار للتفاصيل الحية المعبرة من حياة « كل يوم » ، وعرضها  
ثوب جديد لا يبعدها كثيرا عن الواقع بل يكاد يقربها ويرزها إلينا .  
وهذا أمر لا تستطيع الثقافة أن تعلمنا إياه ، وإنما هو استعداد فطرة  
تنمية فينا الخبرة بالحياة .

وانصت معى إلى أستاذنا الجليل طه حسين يردد مثل هذه الحقيقة  
فى كتابه « فصول فى الأدب والنقد » :

« والحق الذى لا شك فيه أن الأديب أجدر الناس بأن يكون هذ  
الحيوان الاجتماعى الذى نتحدث عنه الفيلسوف القديم ، فهو لا يعيش  
إلا بالناس وهو لا يعيش إلا للناس . منهم يستمد خواطره وآراءه ،  
وإليهم يوجه خواطره وآراءه . ينتج إن غلوا حسه وشعوره وعقله  
بالظواهر والحوادث والواقعات ، وينعم إن أحس أنهم سيسغون ما يقدم

إليهم من غذاء . وهو مفلس ان محاش في بيئة لا تستمتع ولا تظهر له انها تستمتع بما يقدم إليها من ثمرات » .

والشاعر الغنى الفطرة الصادق الحس هو الذى يعرف كيف يستفيد من الناس ومن الحياة ليختار منها التفاصيل الدالة الغنية بفيضها الانسانى ، ولعل الدكتور محمد مندور يزيد هذه النقطة وضوحا حين يتحدث عن هذه التفاصيل التى لا يحتاج التقاطها إلى ثقافة وعلم بقدر ما يحتاج إلى سليقة وصدق حس فيقول :

« هذه التفاصيل الصغيرة هى التى تحركنا لأنها نسيج الحياة ، نسيجها الحق . وبهذه التوافه عبر الموهوبون من الأدباء عن أكبر المشاعر . وموضع الإعجاز هو أن نقول الأشياء الكبيرة بألفاظ صغيرة ؛ ولا تحسب هذا أمرا هينا فليس أشق من أن نلاحظ ما نراه كل يوم » .

ويتحدث فى موضع آخر عن هذا النوع من الشعر الذى يدافع عنه فيقول :

« هو أدب يصاغ من الحياة وكأنه قطع منها فيه ما فى الحياة من تفاهة ونبل ، فيه ما فيها من عظمة وحقارة ، فيه ما فيها من ضوء وظلام . هو أدب حياة ، والحياة شيء أليف قريب منى ومنكم تلقاها فتتعرف عليها للحظتك وتستمتع إلى سرها فتصدق له لأن قلبك قد أحس فى غموض بذلك السر وجاء الشاعر يهمس إليك فيبصرك بمكانه لهذا تهتز مشاعرك ... »

لكل أن يرجع إلى نفسه ، فهي منبع المعرفة ، منبعها الوحيد وما هذا الشاعر وغيره إلا سبل تسوق كلامنا إلى نفسه .

وعلى هذا الأساس أزعّم أن الشاعر متى توفرت له الموهبة الصادقة فيكفيه أن يتزود بما يتزود به الشعراء من أدوات ليستطيعوا قرض الشعر ، ثم ينطلق بعد ذلك في الحياة يلتقط « فئاتها » ويعكس لنا استجاباته لمظاهرها وأحداثها .

أما إذا أرغمناه على الثقافة والتحصيل ، فقد نفسد عليه فطرته وصدق تعبيره ونجبره على أن يفكر بعقل غير عقله ، وعلى أن يحس بحس دخيل على حسه . ولست مغاليا في ذلك ، لأنى أشرت من قبل إلى ما للشعر المثقف الذى يدفعنا إلى الجهد والتفكير والروية من لذة ومكانة ، كل ما فى الأمر أنى لا أريد أن نحرم — بدعوى الثقافة — من هذا الشعر الساذج الذى هو الأصل ، وهو الأقرب لطبيعة الشعر والفن .

ولست فى زعمى هذا مجددا أو مخترا فقد يلمح المتروى ظلالة كثيرة لهذه الفكرة فى كتب النقد القديمة والحديثة . فهذا « الأمدى » فى « الموازنه » يفضل الشاعر فقط على الشاعر العالم اذ يقول بعد أن يفضل نوع الشعر الذى يمتاز « بحلو اللفظ وجودة الرصف وحسن الديباجة وكثرة الماء » أنه . . ان اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن ، فذلك زائد فى بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه . قالوا واذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، وكانت عبارته مقصرة عنها ، ولسانه غير مدرك لما يعتمد

دقيق المعنى من فلسفة يونان وحكمة الهند أو أدب الفرس ، ويكون أكثر مايورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وان اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه - قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ومعاني لطيفة حسنة ، فإن شئت دعوناك حكيمًا أو سمينًاك فيلسوفًا ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك بليغا .

ويقول « الأمدى » في موضع آخر :

« قال صاحب أبي تمام : قد أقررتم لأبي تمام بالعلم وبالشعر والرواية ولا محالة أن العلم في شعره أظهر منه في شعر البحتري والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم . قال صاحب البحتري ( ومن المعروف أن الأمدى كان يعبر دائما عن آرائه هو على لسان صاحب البحتري ) : فقد كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا ، وكان الأصمعي شاعرا عالما ، وكان الكسائي كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء ، فقد كان التجويد في الشعر ليست علته العلم ، ولو كانت علته العلم لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم ، فقد سقط فضل أبي تمام من هذا الوجه على البحتري ، وصار أفضل وأولى بالسبق إذ كان معلوما شائعا أن شعر العلماء دون شعر الشعراء ، ومع ذلك فإن أبا تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وبكلام العرب ، فيعمد إلى ادخال ألفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره . . » .

ولعل في تعريف أبي هلال العسكري للبلاغة ما يؤيد بعض ما ذهبنا إليه ، فهو يحدد البلاغة بأنها « كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتجيبه في نفسه لتمكنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض

حسن » ، ولا شك أنه يشير بذلك إلى التجربة الفنية التي يمر بها الأديب أو الشاعر ، ويشترط تمكنها من نفسه ليستطيع أن ينقلها بأمانة إلى نفس السامع أو قلبه . كل ذلك دون أن يشير إلى عقل أو ثقافة .

والمستقصى لأمثال هذه الاشارات في كتب النقد القديمة يعثر على الكثير مما يؤيد وجهة نظرنا أما في النقد الحديث فقد أشرنا إلى بعض آرائه ونضيف إليها الآن ما زعمه بعضهم من « أن الشعر يستمد معظم مؤثراته وانفعالاته من وراء الوعي ، وإن الوعي يبدأ عمله عند مرحلة النظم التي لا بد فيها من اختيار الألفاظ التي تعبر عن معاني خاصة ، وتنسيقها على نحو معين لتنشئ وزنا معيناً وقافية معينة » .

وإذا صح هذا فمعناه أنه لا دخل للعقل إطلاقاً في الشعر إلا في مرحلة النظم ، وبالتالي لا دخل للعلم والثقافة إلا في هذه الناحية أيضاً ، بل هناك مفكر أوروبي مشهور يبالغ فيزعم أن الشعر لا يحتاج حتى إلى علم بالحياة — كما أسلفنا — وهو « جورج ديهامل » حين يقول :

« إن الشعر لا يحتاج إلى خبرة بالحياة بل ربما احتاج إلى جهل بها ، بينما المسرحية تحتاج إلى تجارب ، وأما القصة فعمل النضوج » .

في هذا القول مبالغة لا شك فيها ولكنه يكفي مع ذلك للتدليل على أننا لم نعد القصد حينما حصرنا ما يحتاجه الشاعر من العلم في ناحيتين اثنتين فقط وهما أدوات الشعر والحياة .

والدارس لأدبنا العربي بالذات يستطيع أن يقرر وهو مطمئن أن شعر الشعراء الجاهليين من أمرىء القيس وطرفة وعنترة إلى عروة ابن

الورد وشعراء الصعاليك هو أروع ما أنتجت لغة الضاد من حيث  
الصدق والقرب من النفس ، وما ذلك إلا لفطرية هؤلاء الشعراء  
وبعدهم عن الثقافة والمدنية . والأمثلة على صدق ذلك كثيرة ، فنكتفى  
بإيراد أبيات قليلة لبعض شعراء الجاهلية لندلل على صدق هذه  
الحقيقة . يقول الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى نحرها  
عاش ولم ينقل إلى قابر  
ويقول عترة :

يا عبل ما أخشى الحمام وإنما  
أخشى على عينيك وقت بكاك

ويقول عروة أبو الصعاليك :

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى  
بوجهي شحوب الحق والحق جاهد  
لأن امرؤ عافى إناءى شركة  
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد  
أقسّم جسمي في جسم كثير  
وأحسو قراح الماء والماء بارد

فنأمل هذه السذاجة وهذه البساطة في الأداء والتشبيه مما يجعل  
الشاعر قريبا من نفوسنا نافذا إلى قلوبنا ، ثم راجع ما شئت من شعر  
العباسيين بصفة خاصة ، لتدرك ما نرمي إليه . فقد تروّعك في هذا  
الشعر الأخير الفكرة ، وتلك القدرة على خلق الصور وتعتيقها ،

ولكنك قلما تحس مع ذلك أن الشاعر قريب إلى قلبك معبر عن دخيلة نفسك .

ويعد فلقد أصاب الشاعر اليوناني القديم حين قال :

« تأمل في دخيلة قلبك ثم قل الشعر »

وكذلك « نيتشة » الذي يقول :

« من بين كل أنواع الكتابة أحب فقط تلك التي يكتبها الكاتب بدماء قلبه » .

إن نفس الشاعر الفطري الساذج تشبه بحيرة عميقة واسعة وصافية يستطيع الناظر فيها أن يرى أبعد أغوارها بوضوح تام ، ومتى تزودت هذه النفس بالعلم والثقافة صعب عليها أن تطلعك على طبيعتها وأغوارها ، تماما كالبحيرة الصافية وقد شابتها الشوائب وتخللتها النباتات والأزهار — التي وإن تكن جميلة مفيدة في بعض الأحوال إلا أنها ستحرم الناظر في البحيرة من رؤية أعماقها .

وسواء شئنا أم أبينا ، فرَضنا على الشاعر أشق أنواع الثقافات أم فرضنا عليه أخطر أنواع الجهل ، فالفن الشعري سائر في طريقه لن يعوقه أو يحوله عن طريقه ما يزعمه أو نتحمس له وندافع عنه .

(١٩٤٩)



(٤)

« ذكريات شباب »

للدكتور عبد القادر القط

الصراع الدامى الذى يدور بين الحين والآخر بين أنصار الشعر الجديد وأتباع الشعر القديم فى حاجة إلى رأى عادل يقوله واحد من البعيدين عن المعركة غير المتعصبين لأى من طرفيها . والحق أنى لم أشغل نفسى كثيرا بهذه المعركة لعلمى أنها تمثل ظاهرة طبيعية لا بد وأن تصاحب كل حركة تجديد سواء فى ميدان الفنون أو السياسة أو الفكر . .

والشعر الجديد شأنه فى هذا الصراع شأن أى حركة تجديدية أخرى ، والنماذج القليلة التى أتيج لى دراستها تسمح لى بأن أميل إلى الرأى القائل بأن نسبة الشعر الردىء فى هذه النماذج أكثر بكثير من الشعر الجيد ، وأن عددا قليلا من أتباع هذه المدرسة المجددة هم الذين استطاعوا أن يقدموا لنا شعرا حقيقيا يفيض بالعاطفة الصادقة والصور الانسانية الموحية ، وأن عددا أكبر من بين هؤلاء الشعراء الشبان قد أساء بانتاجه إلى هذه المدرسة وقلل من شأنها . .

وينبغى أن نلاحظ هنا ظاهرة هامة ، فمعظم الشعراء الذين قدموا نماذج جيدة من الشعر الجديد لهم قصائد أخرى ممتازة من الشعر التقليدى القديم ، فى حين أن الغالبية العظمى من الشعراء الشبان المزعومين ليس لهم انتاج يذكر فى هذا الميدان . .

ومعنى هذا ببساطة أن الشاعر المجيد فى الاطار التقليدى هو نفسه الذى يستطيع أن يقدم لنا - متى أراد - قصائد ممتازة بالأسلوب الجديد ، فالمشكلة ليست مشكلة شكل فى بقدر ما هى مشكلة الموهبة

الشعرية الصادقة ، وما كل من نغم كلامه وأخضعه لأوزان الشعر — القديم منها أو الجديد — بشاعر ، إذا أن طبائع الأشياء تحتّم أن يكون المتنازون في كل ميدان قلة بالنسبة للمتوسطين والضعفاء . . وإذا كنا نلاحظ كثرة الضعفاء والأدعياء كثرة زائدة بين الشعراء الجدد فما ذلك إلا لسهولة نظمهم وقلة قيوده . .

وعندى أن خير ما يوضح هذه المشكلة هو مقارنة الشعر بفن من الفنون الأخرى ، وليكن الرسم ، فقد ظهرت في الرسم مذاهب عديدة حديثة ما بين « سريالية » و « رمزية » و « كوبيزم » وغيرها ، ويؤكد خبراء الرسم أن كل الفنانين الذين نبغوا في هذه المذاهب وقدموا أعمالا جديدة بالبقاء ، بدأوا كلهم بالرسم حسب القواعد الكلاسيكية وأتقنوها وأبدعوا فيها أعمالا كثيرة ، ثم تطوروا بعد ذلك بانتاجهم إلى هذه المذاهب الحديثة التي قد تبدو لنا أحيانا سهلة التناول والعلاج . .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الشعر ، فالشاعر الذي يريد أن يقدم انتاجا ممتازا من الشعر الجديد لابد وأن يبدأ بالشعر القديم ، ويعانى تجربة التجويد داخل قيوده وإطاراته المحكمة ، فإذا ما توصل إلى تقديم انتاج طيب يرضى جميع الأذواق ويقره الخليل بن أحمد وسيبويه ، ويستطيع تذوقه الأساتذة عزيز أباطة وأحمد رامى وخالد الجرنوسى ، كان من حقه بعد ذلك أن يتجه لتوسيع آفاق تعبيره ، ويتحرر من القيود التي يفرضها الشعر القديم ليقول لنا شعرا جديدا لن يكون ، في الأغلب ، إلا صادقا ممتازا . .

هذه حقيقة جهرية بالنسبة لمن يمارس أى فن من الفنون الجميلة تستوى في ذلك فنون الأدب مع غيرها من الفنون ، فالفنان المنتج مهما

امتازت مواهبه لا يستطيع أن يتفوق في فنه إلا بعد أن يتعرف على تجارب من سبقوه في الميدان تعرف الدارس المتعمق ، ومن هنا كانت أهمية حفظ تراث الأجيال السابقة في الفنون والآداب وتيسيرها للدارسين والفنانين المنتجين .

وهذه الحقيقة أصدق ما تكون بالنسبة للشعر والشعراء ، وإلا فدلوني على شاعر يمتاز واحد في أى عصر من العصور لم يحفظ عن ظهر قلب آلاف الأبيات من إنتاج من سبقوه من الشعراء . .



تلك كلمة كان لابد منها قبل التعرض لديوان الدكتور القط « ذكريات شباب » فقد كثر هذه الأيام الحديث حول هذه المشكلة ؛ كما عاجلها صاحب الديوان بشيء من التفصيل في مقدمته .

والدكتور القط ناقد قبل أن يكون شاعرا ، أو إن أردنا الدقة ، عرفه الناس ناقدًا قبل أن يعرفوه شاعراً ، اذ الواقع أن مرحلة قول الشعر لديه كانت متقدمة من الناحية الزمنية على مرحلة النقد . وهذا أمر طبيعي لا يغيره صدور الديوان هذه الأيام بعد أن هجر الدكتور قول الشعر وتفرغ للنقد الأدبي حتى أصبح قرينا لاسمه في الأذهان .

لذلك كان من الطبيعي أن يصدر ديوانه ذاك القديم الجديد بمقدمة طويلة استغرقت أكثر من ثلاثين صفحة قطع بها الطريق على زملائه النقاد ، وحاول أن يفند فيها كل النقاط التي تصور أنهم سيثيرونها في تقديمهم للديوان .

بدأ الشاعر الناقد مقدمته برد قصائد الديوان إلى أوائل الأربعينات ، فهي لذلك لا ترضيه كل الرضا ، خاصة وأنه قد تحمس - كناقد - لطلائع الشعر الجديد في حين أن كل قصائد الديوان تتبع المنهج التقليدي في الشعر ، وتكاد تقتصر كلها على علاج تجارب ذاتية داخل ذلك الاطار القديم . ويدافع بعد ذلك عن الشعر القديم ويعدد مزاياه ، ويشرح عناصر الفساد التي طرأت على الشعر الجديد فجعلت « الناس يشكون في قدرته على أن يخلف الشعر القديم ويصبح اللون الأوحده في شعرنا الحديث » ..

ويتهى من ذلك إلى القول بأن « النماذج الناجحة من هذا الشعر - الجديد - لا تتأتى إلا لمن راض ذوقه اللغوى والفنى رياضة طويلة بالقراءة في الشعر القديم والحديث ، وممارسة الأشكال التقليدية بما فيها من قيود تفرض على الشاعر أن يولى فنه كثيراً من الجهد والعناية ، وتكسبه القدرة على أن يسيطر على اللغة ويستخدمها بكل ما لها من امكانيات » .

وواضح أننى متفق مع الدكتور القط في هذا الرأى كل الاتفاق . ولكنى كنت أريد أن يمضى به إلى غايته الطبيعية ، إذ لا يكفى الشاعر أن يتمرس بالشعر العربى القديم والحديث ، ويخرج من هذا التمرس بخبرة فنية ومقدرة لغوية ، لا يشك أحد في حاجته الشديدة إليهما ، بل ينبغى عليه أن يبذل بعد ذلك جهداً كبيراً ليتحرر من تأثيرات هذا التمرس الطويل ليقدم لنا انتاجه الذاق الأصيل ، ويعبر عن نفسه بصورة الخاصة ولغته الطبيعية الصادقة ، فلا ينقل لنا أفكاره وأحاسيسه

بلغة العصر الجاهلي وصور الشعر العباسي ، ولا يهم بعد ذلك ان كان قد اختار نهج الشعر القديم بقيوده ، أم فضل التحرر منها وانضم لأنصار الشعر الجديد .

وهذا هو نفسه العيب الأساسي في ديوان « ذكريات شباب » فتمرس صاحبه الطويل بالشعر العربي القديم لم يفرض عليه نهجه وقيوده فحسب ، واغما فرض عليه كذلك معظم صوره وأخيلته ، وجعله يفضل استعمال كثير من الألفاظ القديمة الغربية على حياتنا وعلى مشاعرنا ، وقد فطن إلى هذه الحقيقة فاعتذر عنها في مقدمته وحاول شرح بعضها مما قد يعنى القارئ البحث عنه في المعاجم !

وقصائد الديوان مليئة بالصور والتشبيهات المرتبطة بحياة العرب الجاهليين في الصحراء مما يتصل بالفيافي والقفار والخيل والنوق والسيوف والرعى ، وغير ذلك مما انقطعت صلتنا به ، وأصبح غريباً على بيتنا وأفكارنا ، وبالتالي بعيداً عن أن ينجح في نقل أحاسيس الشاعر إلينا بالقوة المنشودة .

أما مضمون الديوان فيدور معظمه - على حد تعبير صاحبه - « حول تجارب عاطفية مما يعرض لكل شاب في مطلع ضباه . وهى تجارب يغلب عليها الشعور بالحيرة بين مثالية الشباب وواقع الحياة ، وتتسم بكثير من الاحساس الحاد بالحرمان والتفكير القلق في المستقبل » .

ولعل ايراد عناوين بعض القصائد يكفى لتأكيد هذه الحقيقة مثل :

« قلق » ، « انطلاق » ، « حلم يقظة » ، « اذكريني » ، « ثورة الألم »  
« جنة الأوهام » ، « حطم تماثيلك » ، « أذهبي » .. وغير ذلك ..

وقد أعجبني رأى الأستاذ محمود أمين العالم فى شعر الدكتور القط  
فهو يرى أنه « من حيث المضمون فاقد لهدف محدود وإن كشف عن  
جهد دائب للوضوح والاستقرار . ولكنه سامان ، ملول ، قلق ،  
متعلق برؤى بعيدة غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص . وهذا مما يشيع  
فى شعره أحيانا مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة كذلك .. »

وفى مقدمة الديوان بعد هذا نقاط تحتاج إلى مناقشة لا يتسع المجال  
لها ، كما لا يتسع لتحليل القصائد تحليلا مفصلا ، لذا أراى مضطرا إلى  
الاكتفاء بنظرة سريعة عابرة أستعرض بها أهم قصائد الديوان .

ففى قصيدة « قلق » يصور الشاعر حيرته بين عواطفه وآماله  
الغامضة ، وهى قرية من الحيرة التى تفيض بها رباعيات « الخيام » ،  
وقصيدة « لست أدري » لايلىا أبو ماضى ، ونفس النغمة النفسية  
الحائرة القلقة تتردد فى معظم قصائد الديوان . أما النغمة الواقعة  
المستبشرة التى نجدها فى قصيدة « عرافة » فى مثل قوله :

« يا فتنى لا ترهى الغيب الخيىء ولا دجاه  
هو صنع أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه  
غرس من الأفراح والأترار والسلوى نراه  
نلقى به فى يومنا ونذوق من غدنا جناه  
تهب الحياة لنا غدا من مثل ما تهب الحياة »

هذه النغمة الواقعة المتفائلة لانكاد نجدها بعد ذلك إلا فى قصيدة

« لن أنام » التي تنفرد بين قصائد الديوان بدعوتها للكفاح وتبشيرها بانتصار الشعب على الطغاة والظالمين . .

وتعتبر قصيدة « مثال » من أجمل قصائد الديوان فهي تصور ، بأسلوب قصصي ، التناقض الخالد بين أحلام الفنان وحياله المجنح وبين واقع حياة الدم والطين ، وقد زاد من جمالها خلوها من الألفاظ والصور الغربية ، وتنطبق نفس الملاحظة على قصائد « غياب » ، « اذكريني » ، « حطم تماثيلك » ، و « رجاء » التي يقول فيها :

« تعالى . . فالأسى فن

إلى الأرواح سباق

عميق ذلك الحزن

وما في الفرح أعماق ،

« أذا ما عطر أنفاسك

تلاشت فيه أنفاسي

شربت الفرح من كأسك

وعفت الهم من كأسى ،

وفي الديوان أبيات أخرى رقيقة تفيض بالصلق والشاعرية وتصور تلك المرحلة القلقة من حياة الشباب التي كتب الدكتور القط فيها قصائده ، ولكنى أستطيع أن أقول مع ذلك وأنا مطمئن تماما أن حركتنا الأدبية المعاصرة لم تخسر كثيرا بتحول الدكتور القط من شاعر على هذا المستوى إلى ناقد واع في طليعه نقادنا المخلصين . .

(مارس ١٩٥٩)



(٥)

« أقول لكم »

لصالح عبد الصبور

هناك شبه إجماع على أن « صلاح عبد الصبور » واحد من الشعراء الشبان القلائل الذين تعتمد حركة الشعر الجديد على مواهبهم وانتاجهم . . ولقد أصبح الشعر الجديد اليوم حقيقة مقبولة نظريا ، بعد أن جاهد « صلاح » وزملاؤه من أجل إرساء مفاهيمه في الأذهان ، وأصبح كل ما ينقصه أن تتعدد النماذج الجيدة حتى تفحم أعداء الشعر الجديد ورا فضيه . . ولذلك استقبل ديوان « صلاح عبد الصبور » الجديد : « أقول لكم » بلهفة كبيرة من جانب المؤيدين للشعر الجديد والمعارضين له على السواء . . أما الدكتور « لويس عوض » وهو من أشد المتحمسين للشعر الجديد ، بل واحد من أوائل من بشروا به ، فقد كانت فرحته بالديوان ناقصة لأنه — على حد قوله — لم يجد فيه « شيئا كثيرا دامغا » يرد به على أعداء الجديد ثم يضيف : « وجدت أن صلاح عبد الصبور لم يتطور كثيرا عما كان عليه منذ أعوام وإن بقيت له ملكته واصحة في كل صفحة من صفحات ديوانه الجديد وضوح الشمس في ضحاها » .

ولم يمنعه هذا الرأي من أن يشيد بقصيدة « الظل والصليب » ويصفها بأنها « من أجمل شعره فاطبة ، بل هي من أجود ما قرأت من الشعر في لغات عديدة » . .

وكذلك قصيدة « كلمات لا تعرف السعادة » التي قال عنها « إن صلاح عبد الصبور قد سجل بها مستوى رفيعا لا شك في ارتفاعه » .

أما بقية قصائد الديوان فيرى « الدكتور لويس عوض » أنها عبرت عن أفكار ومشاعر قديمة لا يستحق كسر عمود الشعر من أجل التعبير

عنها ، لأن « الأصل في ثورة العروض التي قام بها الشعر الجديد ، وخرج بها عن عمود الشعر التقليدي ، هو أن مضمون الحياة التي عرفها الأولون يختلف عن مضمون الحياة كما نعرفها اليوم ، وهو يحتم تجديد صورة الأدب بما يجعلها أقدر على حمل مضمون الحياة الجديدة . ويدخل في هذا المضمون لا موضوع الشعر فحسب ، ولكن كذلك حساسية الشاعر للحياة وطبيعة انفعاله بها وتأمله لها وتعبيره عنها لغة وتخيلًا وتصويرًا » .

هذا هو موقف الدكتور « لويس عوض » من الديوان ، وهو كما قلنا من أشد المتحمسين للشعر الجديد . . أما موقف المعارضين على حركة الشعر الجديد فمعروف ، ولا يحتاج إلى التسجيل ، وإن كنا نرى أن نكتفي بالإشارة إلى الرأي الذي كتبه الشاعر « مصطفى بهجت بدوي » حينما اعترف بشاعرية صلاح عبد الصبور ، ولكنه اعترض على أساليب تعبيره ووجد أنه ينظم شعره « لاهثًا مكدودًا خائفًا أن يطلع عليه نثر النهار فإذا بقصائده تعكس هذا كله : الشيء الذي يريده . . أي روح الشعر ، والشيء الذي يعانيه . . أي الجهد والصعوبة والقلقلة ، والشيء الذي يخافه . . أي النثر ! ولعبد الصبور سرحات وشطحات لا يكاد يفهمها إلا هو » . .

أما الشاعر نفسه فقد اقتبس على ظهر الديوان تحت عنوان « اعتذار » نصًا من النشيد الثالث من « تشايلد هارولد » لبيرون ، عبر فيه الشاعر الانجليزي الكبير عن عجزه عن تجسيد أفكاره ، والتعبير عما يجول بنفسه من أحاسيس وخواطر ، ثم استعار بعد ذلك نصًا آخر من

كتاب « زهرة العمر » لتوفيق الحكيم ، اعترف فيه بنفس العجز الذى أحسه كل فنان حقيقى وهو يحاول اسكان مشاعره وأحاسيسه بناء من الكلمات والعبارات ، وبعد هذين النصين كتب « صلاح عبد الصبور » كلمة ثالثة تتسق معها فى النغم والموضوع :

« كان ما أحاوله فى هذا الديوان كبيرا كالشعر .. كالفن .. كالحياة ، ولكنه حين خرج إلى الوجود لم يكن إلا قصائد تنبىء عن مجهود لشاعر عربى فى الثلاثين من عمره ، كتبها وهو يلهث ، فى الليل ، خوفا من أن يسفر وجه النهار ، عن نثر أيامه البغيض .

ولا أعرف نقدا لهذا الديوان أصدق مما سطره صاحبه بنفسه على ظهر غلافه .. فالمحاولة لاغبار عليها ، وهى ليست كبيرة كالشعر أو الفن ، أو الحياة فحسب ، وانما تجاوزت بطموحها كل ذلك إلى الحكمة .. والتفلسف ، وازجاء النصيح للأجيال .. ومن هنا بدت الهوة عميقة بين ضخامة المحاولة وطموحها ، وإمكانات الشاعر المحدودة بحكم السن ، والخبرة ، ونثر الأيام والصحافة .. فجاء التعبير نثريا فى أجزاء غير قليلة لا تربطه بالشعر إلا أوهى الأسباب ، كمثل هذه الأبيات من قصيدة « صوت فلاح » :

« والصخرة السمراء ظلت بين منكبىه ثابتة

كانت له عمامة عريضة تعلوه

وقامة مديدة كأنها وثن

ولحية ، الملح والفلفل ، لوناها .

ووجهه مثل أديم الأرض مجدور

والفأس والدرّة في جانبهِ تكوما  
وجاء أهله ، وأسبلوا جفونه  
وكفّنوا جثمانه ، وقبلوا جيئه ،

وارتفع صوت الشاعر في أبيات أخرى ينثر الحكمة ذات اليمين  
والشمال في نغمة لم تخل من الخطابية التي طالما عبناها على شعرنا  
القديم ، ويتضح ذلك بصفة خاصة في قصيدة « أقول لكم » :

« سأحكى حكمتي للناس ، للأصحاب ، للتاريخ ، إن أذنت  
مسامعه الجليّة لي ، فإن طابت وإن حسنت  
سيفرح قلبي المملوء بالحب ، يطيب القلب . . » ،  
« إلى ، إلى ، يا غرباء ، يا فقراء ، يا مرضى  
كسرى القلب والأعضاء قد انزلت مائدتي  
إلى إلى  
لتطعم كسرة من حكمة الأجيال مغموسة  
بطيش زماننا الممرح . . »

وفي أجزاء ثالثة انبهمت الصور والرموز عند الشاعر بحيث يصعب  
فهمها حيناً ، ويصعب الربط بينها داخل الجو الذهني للقصيدة حيناً  
آخر ، ومن الأمثلة على ذلك قوله في قصيدة « الشيء الحزين » :

« لعله التذكّار  
تذكّار يوم تافه . . بلا قرار  
أو ليلة قد ضمها النسيان في إزار  
لو غصت في دقائق البحار  
لجمعت كفاك من محارها . .  
تذكّار »

لعله الندم  
فأنت لو دفنت جثة بأرض  
لأورقت جذورها وأينعت ثمار  
ثقيلة القدم ،

ولعل مما يفسر هذا الاغراب الواضح في الخيال أن نعلم أن الصورة  
الأخيرة مأخوذة بنصها من قصيدة « ت . س . اليوت » المشهورة :  
« الأرض الخراب » فقد جاء فيها ما ترجمته :

« أى شتيتسون  
يا من كنت معى على السفائن فى ميلادى  
هل بدأت الخضره تثبت  
من الجثة التى زرعته فى حديقتك فى العام الماضى ؟ »

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الدكتور « لويس عوض » قد لاحظ أن  
مدخل قصيدة « أقول لكم » . . « ملء هذه الأصداى التى تبلغ حد  
الاقتباس الصريح من قصيدة اليوت المشهورة « أغنية العاشق ج  
برومروك » ، وأن فكرة قصيدة « الظل والصليب » مقتبسة من قصيدة  
للشاعر الفرنسى المشهور أراجون » . .

وإذا تذكرت كذلك أن « صلاح عبد الصبور » قد اقتبس فى  
ديوانه الأول « الناس فى بلادى » فى أكثر من موضع من شعر « إليوت  
وأشار إلى هذه الحقيقة « بدر الديب » مقدم الديوان ، وذكر مثالا  
عليها قول الشاعر :

« وأنا لست أميرا  
لا ، ولست المضحك المراح فى قصر الأمير »

ونضيف إلى ذلك كله أن الإشارات في قصيدة « رحلة في الليل » إلى الشطرنج ، استعملها « إليوت » أيضا في « الأرض الخراب » ، وكذلك الصلة الواضحة بين قوله « اننى خاو ومملوء بقش وغبار » وبين قول « إليوت » في مستهل قصيدته « الرجال الجوف » : « نحن الرجال بالقش حشينا » . .

فاذا أضفنا هذه الشواهد الصريحة إلى تلك الأصداء الإليوتية الكثيرة التي تتردد في شعر « صلاح عبد الصبور » من نغمات الملال والسأم والضياع ، والميل إلى الغموض والإبهام ، والاستعانة بالأساطير والخرافات ، والميل إلى تقسيم القصيدة ، وتفتيت وحدتها الخارجية بزعم تحقيق وحدة أخرى داخلية ، ومحاولة خلق مواقف مسرحية ، وكلها خصائص مدرسة « إليوت » الشعرية . . لم يعد لدينا شك بعد ذلك في شدة تأثر « صلاح عبد الصبور » بالشاعر الإنجليزي الكبير . . وهو تأثر يمثل خطرا واضحا عليه وعلى حركة الشعر الجديد كلها باعتباره واحدا من أهم عمدها . .

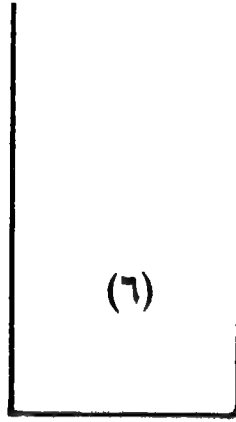
ولا ينبعث هذا الخطر من مجرد التأثر والاقتباس ، ولا من انفصال تجربتنا ومشاعرنا وتراثنا عن التجربة والمشاعر ورموز التراث التي صدر عنها « إليوت » . . ولكن يضاف إلى ذلك اعتبار آخر هام ، ينبغي أن يفتن إليه كل شعرائنا ونقادنا ، وهو أن « إليوت » أصبح الآن يمثل مدرسة منهارة في الفكر الأوربي الحديث ، وأن أكثر من ناقد جامعى كبير يرفضون معظم شعره ويعتبرونه نوعا من الخديعة التي عشت في عقول الكثيرين من الشعراء الجدد في أوروبا وأمريكا ، فأفسدت شعرهم وشوّهته ، وهو ما نحرص على ألا يتكرر مع شعرائنا

العرب ، وبخاصة مع شاعر صادق الموهبة كصلاح عبد الصبور استطاع في ديوانه الجديد أن يعبر في براعة وامتياز عن الفكر والعاطفة في حياة جيلنا المعاصر ، رغم ما شاب هذا التعبير من ملاحظات . . واستطاع أن يعبر من قبل في ديوانه الأول « الناس في بلادى » عن تجارب عاطفية ووطنية واجتماعية بأسلوب شعري رائع وجديد . . وإذا كان ديوانه الجديد قد تميز على ديوانه الأول بعمق الفكر وروعة التعبير ، فعندى أن « الناس في بلادى » يتميز بحرارة التجربة الذاتية واتساع مداها إلى خارج الذات في نطاق انساني رحب نكاد نفتقده تماما في الديوان الجديد رغم ما فيه من حكم مبثوثة ، ومواعظ تملأ الكثير من قصائده . .

وبعد ، فإن حركة الشعر الجديد ما زالت أحوج ما تكون إلى المزيد من النماذج الشعرية الممتازة ، فهي وحدها التي تستطيع أن تكسب له أرضا جديدة وأنصارا .

( أغسطس ١٩٦١ )





« أنشودة الطريق »

لكمال نشأت

الشاعر الصاخب ذو الصبوات نضج وشاب فؤاده ، وأصبح أبا  
يفتح ديوانه الجديد بقصيدة جميلة يناجى فيها وحيدته ، ويصف هدأة  
نومتها والآمال والأحلام التى تمثلها ، ثم يرسم هذه اللوحة الجميلة  
المنمنمة :

« نامت نهاد  
وبقية من بسة فوق الشفاه  
لما تزل فوق الشفاه  
ويد بجانب خدها  
ويد تنام بصدرها  
والأرنب المنقوش فى الثوب الصغير  
نزق المسير  
وصفارة مترنحة ..  
وعلى الوساد  
كالزهرة المتفتحة  
نامت نهاد »

وتنام « نهاد » ويحلم أبوها بمستقبلها ومستقبل جيلها وقد « جف  
به القتاد » ، يوم تكبر وتسأله عن ماضى أيامه وعن الجيل الذى  
صاحبه وهل عاش فيه كما يريد ، فيقول لها : ويحك يا نهاد لم  
تنصفيه :

« أنا قد أكلت الجوع والألم المرير  
وعرفت ما معنى الضياع

كل الضياع  
ومشيت حيث خطى المنون

وعلى الدجون  
وعلى الصباح  
آثار دم سال من هذى الجراح  
كافحت عمرى يا نهاد  
ولك الكفاح  
فلقد أردت لك الحياة  
بيضاء يغمرها سلام  
وضحى رغيد  
إنى أردت لك الحياة  
ولجيلك المرجو يا كنزى الوحيد

ويستيقظ الشاعر من حلم يقظته على صوت الأم تطمئن على  
« نهاد » ، فيجد نفسه إلى جوار سريرها ويده تحرك مروحة ، « وعلى  
الوساد كالزهرة المتفتحة نامت نهاد »

والقصيدة جميلة صادقة الانفعال ، استطاع أن يجمع فيها بين  
أدق التفصيلات الأليفة ، كنقش الأرنب على ثوب الصغيرة ، وبين  
المدلول الانساني العريض المتمثل في كفاح الآباء ومعاناتهم من أجل  
أن يصنعوا لأبنائهم مستقبلا أفضل يسوده أمن وسلام . . ولم تطف  
عاطفة الشاعر على القصيدة فتحولها إلى مجرد تعبيرات وجدانية مشوشة  
لأرباط بينها ، وإنما استطاع أن يهذب هذه العاطفة ويقدمها في شكل  
قصيدة قوية البناء حسنة التصميم ، تبدأ بعرض عام لجو البيت  
والطفلة نائمة ، ومدى ما تمثله هذه الطفلة لأبيها ، ثم يعرض لها

لوحة مفصلة أثناء نومها ، يخرج منها إلى جو الحلم على نحو ما أسلفنا ، ثم يعود في النهاية إلى الجو العام المصاحب لنومها الذي بدأ به القصيدة .

\*\*\*

ولا يشارك هذه القصيدة في متانة بنائها وحسن تصميمها سوى قصيدة « منى » التي يبدأها الشاعر بالغزل في عيني « منى » ويعطى جوا عاما لما كان بينهما من حب وذكرىات ، ثم يزيد هذا التعميم تفصيلا فيقول :

« وآه يا منى  
لو كنت تذكرين  
أحلامنا . . وحبنا القديم  
ورفقة صفار  
إذا مضى النهار  
تفرقوا وعاودوا ان أشرق النهار  
وكنت يا منى  
في جمعهم صغيرة نحيلة القوام  
كأنك العصفور . . »

ويعضى الشاعر يذكر « منى » بتفصيلات ما كان بينهما من حب وهو بريء ، ثم إذا به يتوقف فجأة ليتساءل كيف تشتت الهناء ، وكيف مرت أيام وشهور وسنون طوحت بهما من حبهما وعن حبهما ، فسار في طريق وسارت هي في طريق ، ثم يسألها :

« فأين أنت الآن من دوامة الحياة  
أزوجة نجر في مسيرها الأطفال ؟ »

لقد عاد إلى الحى القديم بعد عشرين سنة ، وعاد به الخيال إلى  
أيام الطفولة وأنكرت عيناه ما ترى . . لقد « تهدمت دكانة الحلاق في  
أول الزقاق » ومكان بيتهم القديم رأى عمارة شاهقة . . فهكذا الحياة  
« تبدل الجماد والأيام والانسان »

ولكن الشاعر لا يتوقف عند هذه النغمة الحزينة الأسيفة ، بل  
يختم قصيدته ختاماً حلوا مشرقاً تتردد فيه نفس نغمات الغزل العذب  
التي استهل بها القصيدة . فيقول في تفاؤل حبيب بالغد وبالحياة :

« لعل في زقاقنا وحيننا القديم  
في هذه الساعات  
رواية جديدة تعيدنا الحياة  
وعاشقين ينسجان قصة الصبا  
وحبه الطهور  
وبعد حفنة من السنين ينشد الفتى  
لحبه القديم  
ما أنشد الفؤاد في عينيك من لحون :  
« كأرض أورشليم  
ودمعة اليتيم  
في الطهر والصفاء  
عينك يا منى . . »

\* \* \*

ان الشاعر الصاخب ذا الصبوات سعيد بما قدمه في ديوانه الجديد  
 « أنشودة الطريق » من شعر عائلي يراه بابا جديدا في شعرنا العربي لم  
 يسبقه إلى الاجادة فيه إلا قليلون ، وهو سعيد كذلك بما قدمه في  
 الديوان من شعر وطني أسهم به في معاركنا وانتصاراتنا ، وترجم  
 بعضه إلى اللغتين الصينية والروسية . . وهو محق في سعادته بلا  
 ريب ، ولكن ليس إلى الحد الذى يغبر من صورة شعره في أذهاننا ،  
 فمازال الطابع الغالب على الديوان هو شعر الحيرة والغربة والضياع  
 وذكرىات الدموع والجراح . . والقلب الوامق الذى لا يكف عن  
 الوجيب حتى ليضيق به الشاعر فيخاطبة في قصيدة حديثة من أجمل  
 وأصدق ما في الديوان قائلا :

« يا قلب  
 يا طفلا حملنى همه  
 يمشى فى النور ويتركنى عبد الظلمة  
 الشعر الأبيض فى الفودين  
 وتمز كيانك نظرة عين ؟  
 يا قلب كفاك »

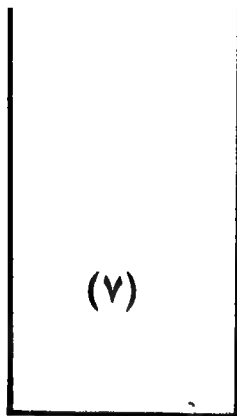
\*\*\*

وإذا كان لنا على الشاعر مآخذ أو ملاحظات ، فهي ملاحظات  
 تفصيلية تتصل ببعض الأخيلة الشعرية المهترئة والتشبيهات القلقة .  
 أما ما نلاحظه عليه بشكل عام فهو أنه شاعر مقل في إنتاجه ، وفي توليد  
 الصور الشعرية وعلاجها ، وقد تكون هذه ميزة في أحيان كثيرة ،  
 فتبعد بشعره عن التكلف والصنعة اللتين طالما أفسدتا الكثير من شعر

شعرائنا ، ولكنها في أحيان أخرى تتحول إلى نوع من الكسل يقلل من قيمة كثير من القصائد فتبدو القصيدة غير مكتملة الصور وكأنها مبتورة ، وهذا ما لاحظناه على قصائد « عودة البطل » ، « أطفال القرية » ، « شهيد » ، « شيراز » ، « غريب » فكلها كانت في حاجة إلى مزيد من التنمية والعلاج الشعري الأكثر عمقا وإفاضة . .

وبعد ، فما زال « كمال نشأت » الذي قارب الأربعين وشاب فوداه ، هو نفسه ذلك الشاعر الصاخب ذو الصبوات الذي طالما ملأ ليلى شبابنا بصوته المتهدج وقصيدة العذب الرقيق ، وما زالت في شاعريته أفاويق نرجو ألا تشغله أشعار الأسرة ومسئولياتها عن متابعة الهزج بها بين الحين والحين . .

( يونيو ١٩٦١ )



« في العاصفة »

الكيلاني حسن ،



لو أنك مثلى لا تعرف شيئا عن هذا الشاعر لكان باستطاعتك أن تستشف الكثير من خفايا نفسه ومقومات وجدانه من خلال قصائده القليلة المنشورة في هذا الديوان الصغير ، وتلك بلا شك إحدى مزايا الشعر الجيد الذى تحس معه أن الشاعر يتغنى فى صدق وبساطة بموضوعات قريبة من نفسه لصيقة بروحه ، ولا يتكلف علاج موضوعات لا يكاد يربطه بها أى وشاح نفسى لا لشيء إلا لأن هذه الموضوعات هى الرائجة هذه الأيام ، أو ليقال إنه يتجاوب مع الأحداث وينفعل بالمناسبات .

وستحس من خلال قصائد الديوان كذلك أن الشاعر ملتهب الوجدان بتجربة الفن ، يدرك أن الطريق شاق وشائك ، فقد وجدته كذلك وعانى كثيرا أثناء المسير ، ولكنه ليس متشائما ولا يائسا مع ذلك ، بل على العكس يتطلع دائما إلى غد مشرق مغرد الأطيار ، ويؤمن أن أبناء هذا الغد إنما سيصلون إليه وسيعيشونه عن طريق معاناتنا نحن ومن خلال آلامنا ودمائنا المسفوحة على الطريق . .  
فيخاطبهم فى القصيدة الأولى فى الديوان قائلا :

« فلتذكروا أنا عبرنا ألف ألف فنطرة  
ولم تزل عظامنا من حولكم . . مبعثرة  
كم جبهة عالية ، ملهمة . . مفكرة  
ما أبدعته فى سجل الخالدين مفخرة  
تهالكت على الثرى ساقطة معفرة  
وللرياح حولها مناحة . . وزنجرة .

ويتكرر هذا المعنى فى عدة قصائد بالديوان ليؤكد أنه إحدى المقومات النفسية للشاعر المتطلع إلى حياة أرحب وأخصب للأجيال القادمة يسهم فى التمهيد لها بمضيه فى تجربته الفنية واقتلاع الأشواك من الطريق وبذر البذور الطيبة مكانها ، ويبلغ هذا المعنى فى قصيدة « الشمس والعاصفة » التى استوحاها من أسطورة يابانية ، فنرى فى أول القصيدة الشمس وقد ألقت خيوطها الذهب على الأرض السعيدة الهائثة ، وإذا برب العاصفة يستشيط غضبا ويستعين برياحه وأمواجه وصواعقه ليحيل الكون إلى بركان يتلظى بالخراب والدمار . .

« والشمس تناضل جاهدة كأسير خلف القضبان  
وارتفع على الأرض ضجيج لن نسكت أبدا الهوان  
فأوى للمعبد قديس ، يتلو آيات ، ومثنى  
وصغار الصبية قد ضجوا بدفوف ، ضجوا بأغانى  
وهناك على القمم شباب ينتشر ، وبين الوديان من كل جرى عملاق . .  
ممشوق . . كعمود الزان

قد حمل الجعبة واستلقى ، ليدك حصون الطفيان  
سمعتة الآلهة فثارت ، ما مصدر هذا الطوفان ؟  
والتفتت فالشمس سجين مازال من القيد يعانى  
فكوها ، فكوا قبضتكم عن هذا المعبود الثانى  
ولتلقوا فى السجن إله العاصفة ، إله المدوان  
فارتفعت أفراس شتى ، ومباهج فى كل مكان  
عادت للشمس أشعتها . . لتسجل نصر الانسان »

والشمس هنا رمز كبير للحرية والرخاء والسلام وكل ما هو خير وجليل ، ومن ثم فإن إنتصارها على إله العاصفة معناه إنتصار كل هذه

المعانى على قيم الشر والعدوان والطغيان . . وهذا ما يؤكد هذه السمة النفسية المتفائلة المؤمنة بالغد عند كيلانى حسن سند .

وهذه القصيدة من أجل قصائد الديوان ، وفيها مع ذلك عيب من عيوبه الجوهرية وهو اضطراب الصورة الشعرية في بعض الأحيان وعدم نضجها فحين يصف إله العاصفة مثلاً بقوله :

لحيته تمتد جبالا ، آلاف أفاع . . رقطاء . .

نجد أن الصورة لا تتناسب مع ما يريد أن يسبغه عليه من رهبة وقوة وبطش ، وحين يصف فرحة الكون بالشمس قائلاً :

« فتؤذن للفجر ديوك ، ويثرثر أطفال الدار  
ويصفر راع أغنية فترد ذوات المنقار »

نرى أنه هبط بصورة الشعرية المحلقة إلى مستوى العادى والمألوف ، وأكد أقول المبتذل من الصور والأفكار . ويتكرر هذا العيب في كثير من أبيات الديوان ، ويصل إلى غايته في حديث الفلاح المتحرر وهو يعبر عن فرحته فيقول :

« فلتمرحى يا شاة في حقلنا  
فأنت مثلى كنت في محنة  
وأنت يا ديكى يابن الدرى  
غرد مع الأطيار في الأيكة  
من خلقتك الينبوع ، حلو الرؤى  
كصفحة المرأة في الجلوة »

وواضح ما في هذه الأبيات من سداجة مضحكة تقترب من أناشيد التلاميذ الصغار في المدارس ، وليس معنى هذا أننا نرفض

السذاجة والبساطة في الأداء الشعري ، فعكس ذلك الصحيح ولكن السذاجة المطلوبة هي تلك التي تتناغم مع معطيات الحس الصادق بلا تكلف ولا افتعال ، وسأضرب لذلك مثلاً من الديوان نفسه حين يقول الشاعر في قصيدة « إنسان بلا أسطورة » .

« لكننا أفراحنا .. كثيرة .. لا تحصر  
الليل لا ننامه ، نظل فيه نسهر  
وكلمة بسيطة .. تجعلنا نكركر  
وفي الصباح كالطيور دائماً .. ننقر  
لكسرة يابسة ، لكوب ماء نشكر » .

فهذه سذاجة محبة صادقة تؤدي من المشاعر ما قد تعجز عنه الاطالة والصور الكثيفة المعقدة .

والشاعر شديد الارتباط بأبيه وأمه يتكرر التعبير عن هذا الارتباط في عدة قصائد بالديوان ، ولديه كذلك إحساس واع بالفروق الطبقيّة أحسن التعبير عنه في قصيدتي « إنسان بلا أسطورة » و« دات ليلة » ، وإن لم يحسن تصميم بناء القصيدة الأخيرة رغم جمالها فهو يبدؤها بالحديث عن موت المرأة الفقيرة وأثر ذلك فيمن حولها ، فلا يهتم أحد برحيلها سوى قطتها وطيورها الصغير ، وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن حياتها الشقية وحبها للناس ، فإذا انتقل إلى السيدة الثرية قلب الآية فتحدث عن حياتها المترفة أولاً ، ثم انتقل إلى وفاتها وأثره في الناس ونفاقهم لها حتى بعد موتها ، وهذا الترتيب لا يبرز المقابلة على النحو المطلوب .

وفي قصيدة « الكلمات الطيبة » لم يوفق الشاعر إلى الوزن المناسب لمشاعر الحزن والشجن التي تصورها القصيدة ، بل استعمل وزنا سريعا راقصا لا يتسع لابراز أعماق المشاعر التي اضطرت إلى المرور بها مرورا سريعا سرعة الوزن الرأقص . . وإن لم يمنعه ذلك من الالمام بمعان طيبة أصيلة مثل قوله :

« ولأن اللقمة . . عنقاء

لا تبذل . . إلا بمهانة

مازال يدور . . بساقية

جفت ويواصل دورانه »

وفي الديوان الصغير عيوب ومزايا أخرى كثيرة ولكنك لا تملك وأنت تقرأه إلا أن تحس أنك في صحبة شاعر موهوب حقلا تنقصه إلا بعض الدربة والتعمق في المشاعر والتجارب ليصبح واحدا من طليعة شعرائنا الجدد .

(نوفمبر ١٩٦٢)

(٨)

## « أغاني الصبا »

ملك عبد العزيز

« أكثر هذا الشعر قد كتب ما بين السادسة عشرة والحادية والعشرين ، أى فى سن الصبا أو الشباب الأول . . وقد انقطعت بعد ذلك عن قول الشعر حتى أواخر سنة ١٩٥٧ ، إلا قطرات قليلة فى العامين السابقين » .

هكذا تقول الشاعرة الرقيقة « ملك عبد العزيز » فى مستهل تقدمتها لديوانها « أغانى الصبا » ، فاذا حيرك أمر انقطاعها الطويل عن قول الشعر ، فلا تلومن إلا أستاذنا وأستاذها الدكتور مندور الذى اختارها من بين تلميذاته فى كلية الآداب لتكون شريكته فى حياته وجهاده ، انه يفسر سر هذا الانقطاع الطويل قائلا :

« . . كان لنا فى حياتنا المشتركة من الأهوال والمغامرات فى ميادين السياسة والثقافة والحياة العملية ما يهز أقوى النفوس . ومع ذلك فأشهد الله أنى ما أحسست منها يوما غير صلابة العزم واطمئنان الثقة وعمق الايمان مما آزرنى فى أقسى المحن وأمدنى بذلك الفيض الروحى الذى جابهتها به حتى انتصرنا معا فى معركة الحياة ، وان تكن ضراوة تلك المعركة وأعباء الأسرة التى تعول اليوم خمسة أبناء قد استفدت من طاقه الشاعرة ملك ما صبرفها - خلال سنين طويلة - عن مواصلة كتابة الشعر » .

فإذا لم تقتنع بهذا التفسير القوى الذى ساقه ناقدنا الكبير ، فما عليك إلا أن تقلب صفحات الديوان ، لتدرك أن الشاعرة قد اختارت لنفسها ميدانا واحدا لا نقول الشعر إلا فيه ، وهو ميدان

الغناء الوجداني الذي يصور آلام النفس وانفعالاتها بالطبيعة ،  
وحيرتها المبهمة التي لا تكاد تبين . . وطبيعي بالنسبة لمن أختار لشعره  
هذا الميدان الذاق الواحد ، أن يصمت عن الغناء اذا ما شغلته  
أحداث الحياة الخارجية وصروفها . .

\* \* \*

ولم أستطع وأنا أعيش بين صفحات هذا الديوان أن أمنع نفسي  
من تذكر ذلك الجو النفسى الغريب الذى كانت تحيا فيه كثير من  
زميلاتنا طالبات كلية الآداب ، والذي أرجو أن تكون طالبات اليوم  
قد تحررن منه ، كن يعشن فى وحدة نفسية قاحلة فرضتها عليهن كثير  
من الأوضاع الاجتماعية السائدة فى بلادنا . . كن يلتقين فى الصباح  
بأساتذتهن وزملائهن وزميلاتهن ، ويحلقن فى أجواء فنية ممتازة خلقتها  
عبقريات كبار الغرب والشرق ، ويتصلن بأحدث النظريات فى  
ميادين العلوم الانسانية . . وقد يشاركن على استحياء فى بعض  
النشاط الاجتماعى للكلية . . ولكن قلما كن يرتبطن بصداقات  
حقيقية مع زملائهن وزميلاتهن ، واذا حدث ووجدت مثل هذه  
الصداقات فإنها تنتهى عادة عند باب الكلية أو عند محطة الترام . .  
حتى اذا عدن إلى بيوتهن وخلعن ملابس الخروج ، خلعن كل  
ما يتصل بحياتهن الصباحية فى الكلية من أفكار وأحلام وآمال ،  
وبدأن يتصرفن على النحو الذى يرضى أهل البيت ، وهم فى الأغلب  
يتمتعون بعقلية شرقية محافظة ، تنظر إلى الفتاة ، مهما بلغت درجة  
ثقافتها ، باعتبارها « عورة » يجب سترها ومراقبتها ! . .



ومن المؤكد أن حياة الصباح بما فيها من شعر وأفكار وأحلام لا يمكن أن تخلع حقاً كما تخلع الثياب ، وإنما هي تختفى في نفس الفتاة ، وتتخذ لها مسارب تختلف باختلاف تكوينها النفسى . . فإذا كانت مثل هذه الفتاة التى صورت شاعرة فأى موضوع يمكن أن تعالج ، وأى مشاعر يسمح وضعها الاجتماعى بتصويرها دون أن تتعرض للسخرية والاستهجان ؟

إذا أردت أن تعرف الاجابة على هذا السؤال فما عليك إلا أن تقرأ ديوان « أغاني الصبا » الذى كتبت الشاعرة معظم قصائده وهى لا تزال طالبة بكلية الآداب . .

انها تصلى للخريف ، وتناجى نجمة الغروب ، وتخطب الأمواج والرياح والورود . . وترقب اشراق الشمس وغروبها ، وتصور أنات قلبها المفعم بأشواق غير محددة ، وهى أثناء ذلك كله يغلب عليها حزن مرير لا تستطيع أكتناؤه سره ، حتى لكأنها تستشعر ذلك الألم الغامض الذى وصفه « بول فيرلين » بقوله :

« ألا ما أقساه ذلك الألم الذى نستشعره دون أن ندرى له سببا ودون أن يكون فى قلوبنا حب ولا بغض » .

أو على تعبير الشاعرة نفسها :

« ليتنى أعلم داء كامنا  
فأروم البرء للداء الكمين »

هذا الحزن الذى يشيع فى معظم قصائد الديوان استطاعت الشاعرة أن تفلسفه لقلبها :

« لا تحسبن الحزن يقضى على  
شبابك الغض فتدوى الزهور  
فالحنن يشجى أعينى والأسى  
فتسكب الدمع كدر نضير  
والدمع يا قلب كقطر الندى  
يرطب الزهر فيزكو العبيد

وإلى جانب هذا الحزن العميق الذى يسمو أحيانا إلى نوع من  
التصوف القانع ، نستطيع أن نحس الشوق إلى الحياة يتسلل إلى بعض  
القصائد فى خوف ووجل :

« عشت طول العمر حيرانا عليك  
عشت طول العمر ظمأنا إليك  
ثم صاح القلب لما أن رآك  
ها هو النبع فروى شفتيك »

وما تكاد تفرح بهذه النعمة المشرقة حتى تفجأك الشاعرة بمسوح  
سميك من التقوى والتبتل :

« لن أرى غيرك نبعا فى الحياة  
فيك كل الكون يا نبع التقى  
لن أرى غيرك ريا للفضاد  
منك كل الكون يا نبع أستقى »

على أنك تستطيع أن تلتقى بهذه النعمة المشرقة أصفى ما تكون فى  
قصيدة « ألحان » ، حديث الوردة » ، اشراقة » ، وأبيات أخرى قليلة

تتخلّى فيها الشاعرة عن حزنها ذاك الكثيف لتستبدله بنغمات قوية  
مشرقة بالعزم والأمل كقولها :

« اعصفى ! اعصفى يارياح !  
هأنأ ، وحدى .. هنا  
لن تنالى من ثبات مغنما  
أنا أقوى منك يارياح .. أنا »  
أوقولها :

« ياويجهم كيف ظنوا أن بى وهنا  
أنا القوية رغم المظهر الخضر  
ماأعذب الجهد منى فى مقارعة  
وما ألد صراعا بعده ظفرى  
أصارع الدهر - رغم الدهر - أصرعه  
ولو بذلت دمي ينساب كالنهر  
هذى الدماء التى تنصب صاخبة  
أعز عندى مما أنساب للخفر »

تلك « أغاني الصبا » أو مطالع الشباب ، أما أغاني المرحلة التالية  
فاذا كانت قد بدأت من حيث انتهت أغاني الصبا - كما قالت الشاعرة  
فى تقدمتها ، وكما تؤكد هذه الأبيات التى قالتها عام ١٩٥٦ :

فى	فؤادى	نغم
حائر		مضطرب
فى	فؤادى	نغم
ليته		ينسكب

غامض	كالدجى
دامع	كالماء
مرهف	كالندى
ناعم	كالضياء
فيه	خفى
وولوع	عجيب
فيه	نزى
كجراح	المغيب

فإن الشاعرة لم تتوقف مع ذلك عند هذه الذاتية المفرقة ، بل انطلقت فى محاولة جديدة تماما وضح فيها لأول مرة خروجها من قوقعتها الحزينة الدامعة إلى رحابة المجتمع وأصوائه وأحداثه ، فاستطاعت أن تنفعل باستشهاد البطل الشاب « جواد على حسنى » فى معركة « بور سعيد » ، ولعل للأومومة دورها فى إيقاظ هذا الانفعال وإلهابه بأصدق الصور الشعرية وأقواها ، وبخاصة فى مطلع القصيدة الطويلة وختامها الذى تقول فيه :

« جواد يا طفلى الحبيب لم تزل تعيش  
فى خفقة الأمواج فى اختلاجة الشجر  
فى نصرنا ، فى مجدنا النضير  
فى يومنا العزيز فى الغد الكبير »

فإذا أضفت إلى قصيدة « ذكرى جواد » الطويلة تلك الأغاني الحديثة التى أسمتها الشاعرة « إلى نجمة الغروب » بعد أن تلحظ ما فيها من تطور وصدق فى الانفعال والأداء ، أدركت أن فى الشاعرة امكانيات

خصبة نرجو أن تتيح لها التعبير عن نفسها في « أغاني الشباب » . . وفي  
هذه الحقيقة عزاء كبير عن كثير من قصائد الصبا التي قد تضيق بما فيها  
من ذاتية مسرفة ، وانطواء شديد على النفس الحزينة الباكية التي  
لا تملك حتى أن تفصح عن حقيقة مشاعرها وأشواقها . .

( أكتوبر ١٩٥٩ )

(٩)

« همسة الروح »  
لروحية القليني

يغلب على هذا الديوان للشاعرة « روحية القليل » طابع الشعر  
الوجداني العاطفي ، ويقول الأستاذ خالد الجرنوسي في تعريفه  
بالشاعرة والديوان :

« ينبع هذا الشعر من معين واحد . . واحد لا شريك له ، هو . .  
الحب والخير والجمال . . لذلك يسمو بالإحساس ، عن دنيا الناس .  
وأين تلمست فيه الحب والخير والجمال وجدته ! ولكن في صورة قدسية  
تتجسد فيها المشاعر والأحاسيس وتتحول إلى كلمات من نار ونور ، لها  
إشراق ، كما أن لها إحراق لأن لها حرارة الصدق وإشراقة الحق !  
وهذه الشاعرة تعد نسيجا وحدها ، فيما أخذت نفسها به من  
اتجاهات أدبية ، فلا هي مقلدة لأحد ، ولا هي متأثرة بأحد . . ومهما  
يكن شعرها مزيجا من الرومانسية والواقعية . . فهي في رومانسيتها أو  
واقعيها في سمت النساك تشد المجهول ، في غيبوبة حاملة ، تستغرق  
الوعي الحسى ، كصلوات العارفين ! »

ولا أدري لماذا يعيش كثير من الشعراء في بلادنا ، والشاعرات  
بصفة أخص وأوضح ، في عالم من الوحدة الحزينة والتأملات المبهمة  
المضنية . .

فما قرأت ديوان شاعرة من شاعراتنا إلا وأحسست بمدى ما تعانيه  
من وحدة نفسية مريرة محيرة . . وهن في تعبيرهن عن حنينهن وأشواقهن  
يلجأن في العادة إلى أساليب التورية والإبهام ، وقلما تصدر عنهن نغمة  
صريحة صادقة . . على أن في ديوان « همسة الروح » إلى جانب ذلك  
نغمات عديدة صادقة مشرقة من أجملها قصيدة « ليتك تدرى » :

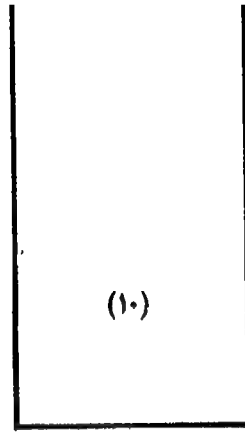
تعدبني وأنت حبيب روحي  
وتشقيني وأنت ضياء عيني  
وتفسو في هواك ولست تدري  
بأن الظلم منك وليس مني  
وتحسب (ظالما) أني عذاب  
لقلبك في الهوى والفدر في  
وتتركني لدمعي في الليالي  
وأشقي في النار بنار ظني  
فليتك يا حبيب الروح تدري  
نصفح راضيا في الحب عني  
ولكني أراك تظن أني  
مللت هواك . ما أقسى التجنى ،

وفي الديوان قصائد أخرى وطنية واجتماعية ووصفية . . . وقد  
توقفت كثيرا عند قصيدة « رثاء الشرنوب » لما لاحظته عليها من تعميم  
لاتحدد معه الشاعرة شيئا من ملامح شخصية الشاعر الراحل . .  
بحيث تصلح القصيدة لرثاء أي زميل آخر . . وكان المفروض أن تلهم  
الزمالة والمعرفة الشخصية الشاعرة بعض الأبيات التي تحدد سمات  
المرثي وتخصه بحزنها وألمها لفقده . .

على أن الديوان يمثل بشكل عام شاعرة ناضجة تعبر عن مشاعرها  
في كثير من الصدق والاعتدال ، فتنقلها إلى نفس القارئ وتثير فيها  
الشجي والانفعال . . وتلك أهم سمات الشعر الجيد . .

( يوليو ١٩٦٠ )





« باقة نور »  
لعبده بدوى

عبدہ بدوى من الشعراء الشبان الذين أتيحت لهم ثقافة لغوية أصيلة ، ثم أتاحت له ظروف حياته أن يتجه بشعره هذه الاتجاهات المتميزة التي نلمحها في ديوانه الثانى « باقة نور » أكثر وضوحا وإشراقا عما كانت عليه في ديوانه الأول « شعبي المنتصر » الذى صدر منذ عامين . .

لقد نشأ الشاعر في بيئة ريفية زاهية الألوان طبعت صورها في نفسه فانعكست في العديد من قصائد ديوانه . . ودرس في وسط ديني محافظ فانتشرت نغمات غيبية مؤمنة في العديد من قصائده . .

وعاش الشاعر يقظة بلاده وانتفاضاتها الوطنية فعبّر عنها في كثير من القصائد الوطنية الصادقة . . ثم ارتبط بالقارة الإفريقية ارتباطات وثيقة كواحد من أبنائها أتيج له أن يعمل ثلاث سنوات مدرسا بالسودان ، ثم سكرتيراً لتحرير مجلة « نهضة إفريقية » فزاد ذلك من وعية بمشكلات القارة وإحساسه بآلامها وآمالها ، ومكنه من متابعة أحداثها وانتفاضاتها التحررية الماردة . . فكان من الطبيعي وهو الشاعر المرهف أن يرتاد هذا الأفق الإفريقى ، وينظم فيه الكثير من ألحانه . . وليس أدل على أصالة هذا الاتجاه لديه من إهداء ديوانه . . فقد أهدى ديوانه الأول « إلى الحياة المرتفعة في اصرار تحت الشمس في السودان الحبيب . . »

وحينما اتسع أفق مشاعره الإفريقية جاء إهداء ديوانه الجديد هكذا : « إلى القارة التي أعيش بضوئها وحبها ، إلى إفريقية . . »

وحينما تقرأ الديوان ستحس أن هذا أنسب إهداء له ، إذ أن

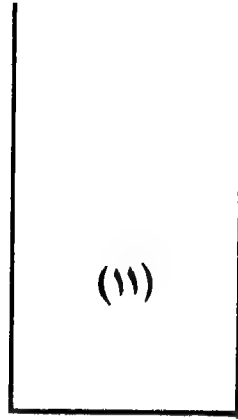
نصف قصائده يعالج موضوعات إفريقية . . ومن أروع هذه القصائد  
« إفريقي » ، « قصة نكروما » التي يختتمها قائلا :

« ويهلل صبح من نور  
فإذا الحرية في الدور  
ترنو في هذب مبهور  
تبدو في غاب مسحور  
في منجم ماس يدور  
في بسمه جار « نيجيري »  
في شعب حر منصور  
رفع الرايات المنقومة  
أغلاها جبهة نكروما »

ومن هذا الجلو الإفريقي المناضل استوحى الشاعر أربع مسرحيات  
شعرية قصيرة ، لو افترقت إلى عنصر الصراع الدرامي فإن نعماتها  
الثورية الصادقة قد تعوض كثيرا من هذا النقص . . وهي تشير ، على  
كل حال إلى أن باستطاعة « عبده بدوى » لو اهتم بدراسة أصول  
الكتابة للمسرح أن يوفق إلى كتابة مسرحية شعرية ناجحة . . وأستطيع  
أن أؤكد من الآن أنها لن تعالج موضوعا غير النضال الإفريقي الذي  
يعيشه الشاعر بكل وجدانه . .

و« عبده بدوى » من الشعراء المتأنقين في اختيار ألفاظهم  
الحريصين على موسيقى أشعارهم . . ويتضح ذلك بصفة أخص في  
قصائده الوجدانية والوصفية مثل « حريق » و« العنقود الأخضر » ،  
« ما بعد السبت » . .

( يوليو ١٩٦٠ )



« أيام من عمري »

لأبراهيم محمد نجا

يقدم الشاعر لديوانه بمقدمة طيبة بعنوان « أنا . . والشعر » يعرف فيها بمفهوم الشعر عنده ، ويتطوره الفن ومذهبه في قول الشعر ، وهي مقدمة هامة في دراسة الشاعر وتفهم شعره ، ومن الممكن أن نوجز أهم الحقائق التي نخرج بها من هذه المقدمة فيما يلي :

● الشعر الذي يستحق أن يسمى شعرا في نظره هو شعر شوقي .  
بدأ يحفظه ويعجب به وبموسيقاه قبل أن يستطيع فهمه أو إدراك معانيه .

● أعجب الشاعر بالشعر العربي القديم ولا سيما المتنبي وأبا تمام والبحترى وأبا العلاء ، وان اختص المتنبي بالمزيد من إعجابه .

● تعرف إلى شعراء مدرسة « أبولو » وأعجب بروحها الرومانسية الرقيقة الحزينة ، فأصبح بفضلها ، وبفضل الحب والشعر وصاحب « العبرات » فتى رومانسيا حالما !

● قرأ شعراء المهجر فأعجب بصورهم الجديدة ولا حظ أن صياغتهم اللغوية ليست فوق مستوى النقد .

● عرف « العقاد » ودرس شعره وأخذ عنه النزعة الفلسفية الواضحة في بعض قصائده .

● تجارب الشاعر « تكاد لا تنبع إلا من تجربتين كبيرتين : الحب والغربة » ويضيف في المقدمة أيضا :

« بالحب والغربة يا قلبي . . بالحب والغربة عرفت الشوق والحنين والسهد والعذاب ، والحيرة والقلق ، وعرفت الآهات والدموع !

وعصرت كل ذلك رحيقا سميته شعرا وقدمته للناس، وما قدمت لهم

في الحقيقة غير قلبي المعذب ، وروحي الحزين !

وكان لي في غربتي صديقان حفيان : الليل والبحر ، أشكو إليهما

فيسمعان ويستجيبان ، وكم ضمنى الليل وحنا على ، وكم هس لي

البحر واستمع إلي ، وكم وجدت عندهما سلوة القلب وعزاء الروح .

● يرفض الشاعر التخطيط في الشعر ، أو الالتزام ما لم يصدر من

أعماق الشاعر .

● ويرفض كذلك الشعر الجديد في شيء من الرفق لأنه « لا شعر

حيث لا وزن ولا قافية » ويفضل له مجال المسرح .

هذه هي أهم محتويات المقدمة الهامة التي صدر بها ديوانه ، ولم أرد

أن أقف عندها كثيرا إلا بعد أن انتهيت من قراءة كل قصائد الديوان

لأعرف إلى أي مدى ينطبق ما جاء فيها على شعر الشاعر ويصدق على

منحى قصائده ومضامينها .

والحقيقة الأولى التي تظالعنا من قراءة ديوان « ابراهيم محمد نجا »

أنه طاقة شعرية طيبة تعرف كيف تنفعل وكيف تعبر عن انفعالاتها في

صدق وقوة إيجاء . ولكني أعتقد مع ذلك أنها طاقة شعرية مبددة

لا يعرف صاحبها كيف يستفيد منها ليقول شعرا قويا باقيا . فإذا بحثت

عن مظاهر هذا التبدد فستجده أوضح ما يكون في هذه المقدمة التي

حرصت على أن أنقل منها فقرات كاملة توضح المرحلة الرومانسية

المغرقة التي مازال الشاعر يعيشها ، وستلمس آثار هذه الرومانسية في

قصائد الديوان ، بل في كل بيت من أبياته .

قد يقول الشاعر إن الرومانسية ليست عيباً ، بل قد تكون ميزة من ميزات الشاعر ومظهرها من مظاهر تميزه ، وهذا حق ، ولكن بشرط أن تتسع هذه الرومانسية وتعمق فيعمق بالتالي أسلوب التعبير عنها ويرتفع بشعر الشاعر من مجرد الشكوى والتأوهات الساذجة إلى صور فنية خصبة متنوعة متعددة الأبعاد تحمل إلى القارئ أحاسيس الشاعر في أبعد أغوارها وتحاطب منه أعماق نفسه ، وتنشئ علاقات جديدة بين الشاعر والأحاسيس المألوفة وبين مواقف الحياة الحاضرة والماضية ، وبين مظاهر الطبيعة وكل ما يحيط بنا من أشياء فبهذا وحده يستطيع الشاعر الرومانسي المعاصر أن يرتفع إلى مستوى التعبير الفني المقتنع ، والا ظل متخلفاً كمن يصف الأطلال ويبكى عليها وسط مدنية القرن العشرين .

وعندى أن الشاعر لم يوفق إلى شيء كثير من هذا ، ولا استطاع أن يكسب شعره أبعاداً فلسفية أو حتى فكرية متعمقة كما أشار في مقدمته ، بل إننا نلاحظ غلبة الأسلوب التثري التقريرى على كثير من أبيات الديوان ، أكتفى منها بهذين المثالين اختارهما اختياراً عشوائياً :

« أنا أعلى منك شأنًا ، أنا أسمى منك قدرا  
 هل يساوى العبد من عاش مع الأيام حرا  
 والذي عاش اختيارا . . دونه من عاش قسرا  
 إن للمخالق في رفعة بعض الخلق سرا »  
 ومن قصيدة بين « ربيع وشجرة » :  
 « عندها بلبل يغنى غناء  
 يجعل القلب هائبا حيث شاء »

ويثير الأحلام في كل نفس  
تبصر الحلم كوكبا وضاء  
كلما زادها من الشدو والأنغام ،  
زادته روحها إصغاء  
وهى مفتونة تكاد تراه  
عاشقا يملأ الحياة بهاء  
فترها تضمه إن أتاها  
وإذا غاب أتبعته النداء  
وأمانى النفوس تبدو رموزا  
حينما تستكن فيها حياء »

ولا تفسير عندى لهذه الظاهرة سوى ما قرره الشاعر نفسه في مقدمة ديوانه ، فاطلاعاته محدودة ، وآفاقه النفسية والفكرية ليست بالسعة التى تزود الشاعر بالصور والأخيلة الخصبة الجديدة . وإن لم يمنع هذا من أن تتردد فى كثير من القصائد نغمات عذبة صادقة أشبه باللحن الساذج الذى يتردد على أروع العازف الذى لم يدرس أصول العزف والموسيقى ، وإنما يستوحى فطرته الصادقة وحسه السليم .

بقيت المسرحية الشعرية « فى سبيل الوطن » التى ذيل بها الشاعر . ديوانه ، وهى فى رأى لا تمت إلى المسرح بصلة ، ولا تمت إلى الشعر إلا بأوهى الأسباب ، وإنما هى حوار منظوم لا يخلو من افتعال وصنعة واضحتين ، فى حين تخلو حتى من مزايا الشاعر الفطرية التى تحدث عنها فى مقدمته حين قال :

« إن الشعر ينبع من أعماقى الباطنة كما تشاء هذه الأعماق ، ثم



أتناوله بالصقل الذى يحمل الشكل ولا يغير الروح ، وبعد ذلك أقدمه للناس ، وليس يعينى إلا أن يكون هذا الشعر صورة واضحة لصدق الشعور وصدق التعبير . وانه لمن الخير أن نترك الشعراء أحرارا يتغنى كل منهم بما يبرز طابعه الأصيل ، ويوضح شخصيته المستقلة ، بدلا من أن نقيدهم باتجاه معين يجعلهم كلهم شخصية مكررة ، لا شخصيات متغايرة » . .

فإذا استطاع الشاعر أن يقول هذا الكلام بالنسبة لكل قصائد الديوان أو معظمها فهو لا يستطيع بحال أن يطبقه على هذه المسرحية الصغيرة التى ذبل بها ديوانه .

(أكتوبر ١٩٦٢)

(١٢)

« خواطر انسان »  
للشاعر السوداني اسماعيل حسن

« لو .. كان حبك .. قد دعا قلبى إلى نبذ الكفاح »  
« وجئت يوم الكربة .. اضطجعت .. مع الأقاحى »  
« وشبعت .. كى أنسى الجياح .. لكى أغرد فى صباحى »

\*\*\*

« ومشيت أرقص فى الخماثل فى يدى تنساب راحى »  
« لحطمت .. ووادت .. حبك .. واصطبرت على جراحى »  
« فالحب عندى أن أسير مع الجموع .. إلى الكفاح »

« والحب عندى أن أخوض معارك .. فيها نجاحى »  
« والحب عندى .. للجموع .. وللسلام .. وللأقاح »

بهذه الترنيمة الحلوة الواعية يستهل الشاعر السوداني الشاب  
اسماعيل حسن ديوانه « خواطر انسان » .. وأنا من المؤمنين بأن  
الشعر غناء قبل أن يكون أى شىء آخر ، والغناء لا يصدر عادة إلا من  
اضطربت نفسه بانفعال حقيقى صادق ، والناس لا تغنى عادة إلا إذا  
طربت ، أو تألمت ، أو هزها الشوق أو الأسى ، أو استثيرت فى نفوسها  
ذكريات غالية .. الناس لا تغنى إلا إذا حقدت وحرقت قلوبها الألم ، أو  
أحبت وأسعدها عشق الجمال وأضناها .. فى مثل هذه الأحوال ترتفع  
حناجرهم بكلمات منغمة تفيض لوعة وأسى ، وبحشا عن التسرية  
والعزاء ، أو بأهازيج فرحة جذلة تحاكى شقشقة العصافير ساعة إشراق  
الشمس .. ومثل هذه الانفعالات الصادقة لا يعرفها محترفو الغناء فى  
كل وقت ، لأنهم يتعيشون بحناجرهم ، كما يتعيش كثير من الشعراء

برصف الكلمات الموزونة دون أن يحركهم أى دافع داخلى أو اضطرام  
نفسى .

وشاعرنا السوداني يغلب على معظم قصائده ذلك الطابع الغنائى  
الذى يستهوينى فى الشعر ، بل لقد ألف عددا من قصائد ديوانه لكى  
تلحن وتغنى . . ولذلك فقد قضيت مع ديوانه ساعات ممتعة حقا . .

وواضح أن الغناء الشعري الذى أعنيه لا ينحصر داخل المعانى  
العاطفية وحدها ، ففى الشعر الوطنى الصادق غناء قوى الإيقاع حاد  
النغمات . . وشاعرنا قد خص هذا الجانب بعدد غير قليل من  
قصائده . . فليس من المعقول وهو الشاعر المرفه الحس أن يستطيع  
الانفصال بمشاعره وأغانيه عن المعارك التى يخوضها شعب بلاده وكل  
الشعوب المكافحة فى سبيل حريتها وكرامتها . . ومن هذا النوع  
قصائد :

« دقت الأجراس » ، « وطنى » ، « الشهيد » ، « العاصفة » ،  
« إصرار » ، « توريت » ، « صوت الجزائر » ، « فجر الأحرار » ،  
« الطوفان » ثم قصيدة « الشرق » التى يستهلها بهذا التساؤل :

« لم لا يثور . . الشرق تنور يفور »

ثم يختمها بهذه الأبيات الثائرة الصادقة :

« حسبوا الزعامة فى القصور وانت يا شعبى فقير »

« حسبوا الزعامة أن يعيش زعيمنا طى الحرير »

« حسبوا الزعامة أن يموت الشرق كى يحيا الأمير »

« واضيعة الشرق الذى يرضى المذلة كالحقير »

« ويسير خلف حثالة فى جوفها . . مات الضمير »

« لم لا يثور . . الشعب قد هد المعازل والجسور »  
« لا . . لن يعيث بأرضه طاغ يدوس على الزهور »  
« من جاء باسم الدين أرضعه الجهالة والفجور »  
« الشعب إن رام — الحياة . . فيها الجنادل . . والصخور ! »

( سبتمبر ١٩٥٩ )



« شفق »

للموضى الوكيل

إذا كان شعراء الجاهلية قد درجوا على بدء كل قصائدهم بذكر الأطلال والبكاء على الأحباب ، فإن شاعرنا الكبير « عزيز أباطة » قد استن لنفسه أخيرا تقليدا جديدا ، فلا يشرع في الكتابة أو الحديث إلا بعد أن يلعن الشعر الجديد ويهجو قائله ممن فقدوا سلامة الذوق ، وأعوزتهم الثقافة العربية الأصيلة ، وهو لذلك سعيد أيما سعادة بديوان « شفق » للشاعر « العوضى الوكيل » لأنه التزم عمود الشعر ولم يحد عن لغة الأجداد الجاهليين ، ومرد ذلك في رأى عزيز أباطة إلى : « مواهب صاحب الديوان ، فهو يتمتع إلى جانب ثقافته العربية بطبع صاف غيداق . يهديه شريف التعبير ، ويصدعه عن كل لفظه حوشيه أو كلم متهافت » .

أما الأستاذ « عزيزا ميرزا » فيرى أن صياغة الديوان « من أمتن ما خطه قلم يمت أصله إلى البحترى أو المثنى . الديباجة فيها إشراقة من حافظ ، ونبضة من مطران ، ونبرة من شوقي . ولكن من أين هذه الروح المشوبة بحب الأسرة تتغنى بعينى « محمدرح » وثوب « شفق » وابتسامة « دسوقي » . . لا . . ان هذا الشعر لأجنبى . والحق أن العوضى في أنشودة بيته الصغير قد أضاف وترا إلى قيثاره الشعر العربى . فلم تعرف لغة الضاد قبله شاعرا أدخل في نطق الشاعرية ما أدخله من موضوعات » . .

ومع ذلك كله ، فما تمضى في قراءة الديوان نفسه إلا وتحس بالصناعة الشعرية واضحة غير مستخفية ، وبأن انفعال الشاعر

بموضوعاته أضعف بكثير مما كنت تتوقع ، ويبدو أن لاختياره للموضوعات دخلا كبيرا في ذلك ، فهي موضوعات ترتبط بالمناسبات والحفلات أكثر مما ترتبط بوجودان الشاعر ومشاعره الحق ، فمعظم قصائد الديوان أنشد في حفلات تكريم أو تأيين ، أو في مناسبات وطنية واجتماعية « تحية بور سعيد » و « إغاثة الشتاء » و « كورنيس النيل » وغير ذلك من القصائد المتشابهة التي يحفل بها الديوان ، وكلها ، مع قصائد التكريم والتأيين والرثاء ، قصائد مهما قيل في نبل ودافعها وصدق بواعثها ، لا يمكن أن تكون تعبيرا حيا عن وجدان الشاعر وانفعالاته ، ولذلك فقل أن تقف عند بيت منها لتستعيده وتحاول أن تسبر أغوار معانيه ومشاعره ، إن هذا اللون من الشعر الذي يدخل في باب المناسبات قد يكون كبير القيمة في وقته ، ولكنه قلما يصمد للزمن ، وقليل منه ما يحرك في القارئ مشاعر الاعجاب بعد انقضاء المناسبة وزمنها . .

وشيء قريب من هذا يمكن أن يقال عن قصائد الجزء الأول من الديوان سماه الشاعر « عالمي الصغير » ، وتحدث فيه عن أسرته وأطفاله في نغمة غلبت عليها الخطابة الشعرية ، والميل إلى الفخر ، وهي للأسف بعض سمات شعرنا العربي القديم ، فأفسدت هذه النغمة على الشاعر موضوعاته الانسانية القريبة من النفس ولم تمكنه من التقاط تفاصيل الحياة الدقيقة التي كان من الممكن أن تحرك فينا حيننا لأطفالنا ولأسرنا . .

• ان الشاعر الذي إذا تأخرت ترقيته أنشد قصيدة طويلة يشبثها في



ديوانه ، واذا تعطلت به سيارة صديقه نظم المناسبة في قصيدة أخرى ،  
والذي يقول مخاطبا أولاده :

« بنى لكم على الأيام مجدى  
ومجد الشعر مجد غير فان  
لئن لم أبن من حجر بناء  
فإن للقائد خير بان »

مثل هذا الشاعر لا ينبغي أن نتوقع منه شعرا إنسانيا صادقا يثرى  
حياتنا الفكرية والعاطفية ويسمو بنفوسنا إلى عوالم الحب والجمال ، مهما  
التزم بعمود الشعر ولغة مضر وربيعة . . !

( فبراير ١٩٦٠ )

(١٤)

## « أغاني العودة »

للشاعر الفلسطيني علي هاشم رشيد

من مأساة فلسطين التي تعيش في قلب كل عربي ، استلهم الشاعر الفلسطيني « على هاشم رشيد » كل قصائد ديوانه « أغاني العودة » . . والشاعر واحد من أبناء فلسطين المثقفين الذين عاشوا المأساة ، وحملوا مسئولية التعبير عنها ، وجندوا أقلامهم ومواهبهم للنضال من أجل تحرير بلادهم من غاصبيها من عصابات صهيون . . وما هذا الديوان الحافل بمعاني الوطنية ، وتأجيج نيران الثأر في صدر كل فلسطيني . . وكل عربي . . هذا الديوان الثائر الملهب ليس إلا جانباً من الجهود التي يبذلها الشاعر في هذا السبيل بوصفه المشرف على ركن فلسطين بإذاعة « صوت العرب » من القاهرة .

ويرى الناقد الفلسطيني « كامل السوافيري » أن للشعر الفلسطيني خصائص تميزه عن شعر الأقطار العربية الأخرى ، وأن معظم هذه الخصائص استمدتها هذا الشعر من طبيعة المعركة القاسية التي خاضها أهل فلسطين ضد الانتداب الإنجليزي والصهيونية ، ويضيف :

« كان الشعر سلاحاً فعالاً قبل الكارثة لأنه أبْقِظَ الوعي القومي ، وندّد بالأنظمة الشاذة ، وفضح أساليب الاستعمار ، وبصّر الأمة بواقعها وكان تمجيداً للبطولة وتخليداً للتضحية ، وتقديساً للبدل والفداء .

أما بعد الكارثة فكان تصويراً لجوانب المأساة الدامية التي شردت

شعبا عن دياره والتي عاش فيها منذ قرون . وكان شوقا وحنينا لهذا الوطن وجمرات متقدة من الحقد والأخذ بالثأر ، وآمالا مشرقة في العودة . . »

وفي الديوان أربعون قصيدة معظمها من الشعر التقليدي ، وخمس قصائد فقط من الشعر الحر ، ومن أروع نماذج النوع الأول القصيدة الأولى في الديوان ، وقد سماها الشاعر « الشريد » وفيها يقول :

« أتراك تعرف يا أخى الانسان ما معنى الضياع  
أتراك تشعر ما أقاسى من شقاء والتياح  
أنا واثق من نبيل حسك إن دعا للخير داع  
فإليك قصة موطنى المنكوب فى هذى البقاع »

ويمضى الشاعر يصور فى أسلوب شعرى رقيق يفيض باللوعة والصدق الإنسانى قصة الآمال والأحلام التى أغتيلت فى أرض السلام . . وقصة الأزهار والأطفال والأمهات الذين فتك بهم العدو الغاصب . . والحمامات السعيدة التى جندلها فى حقول الزيتون ، فإذا بالوطن يعيش فى ليل طويل ، وإذا بأهله يعيشون فى الأكواخ الحقيرة بعد القصور العالية . . ولا يكتفى الشاعر بهذا التصوير الحزين المؤلم ، بل ينتفضق قرب نهاية القصيدة فى نغمة ثورية عالية مؤكدا أن هذه الكوارث كانت شعلا تضىء لنا الطريق ، ويتوعد فى ثقة وإيمان قائلا :

« إن سأصنع من لهب الحقد نارا أى نار

« إنى سأصنع من لبيب الخقد ثأراً أئى ثأر  
إنى سأبنى الوحدة الكبرى ففيها كل نصري  
سيزيل هذا الليل إصرارى وإيمان بصدرى  
أنا مؤمن بمرورى أنا واثق بيزوغ فجرى

\* \* \*

سنسير يا وطنى إليك بزجرات من نضال  
وترف رايات العروبة فوق هامات الرجال  
سنسير جيشاً عارماً لجبا صموداً كالجبال  
سنسير قائدنا ورائدنا إلى يافا جمال .

ومع عمق إحساس الشاعر بمأساة وطنه ، وقسوة الصور التى  
يرسمها للاجئين والمشردين والمعذبين من أبنائه ، فإننا نلاحظ إلى  
جانب هذه الصور القائمة المظلمة دائماً نغمة أمل حلومضى ..  
وإيماناً صادقاً قوياً بالنصر القريب للعروبة وأبناء فلسطين .. وكذلك  
لا تشغل الشاعر مأساة بلاده عن التطلع إلى حركات النضال العربى  
المشرق من حوله ، والمشاركة فى انتصارات العروبة فى كل مكان ،  
فهو يدرك تماماً أن كل نصر يحققه العرب ، وكل تقارب واتحاد بينهم ،  
إنما هو خطوة نحو تحرير فلسطين ورد حقها المهدر إليها .. ومن هاتين  
النغمتين القويتين تستمد « أغاني العودة » جانباً كبيراً من جوانب  
نضجها وروعة مضمونها الانسانى والعربى والفلسطينى فى آن ..

غير أنى آخذ على الديوان عدم العناية باخراجه فى الصورة  
اللائقة ، فالرسوم التى خطتها ريشة الفنان الفلسطينى « نهاد » فى  
مستوى متخلف ، أخشى أن يستغله أعداؤنا فى الدعاية ضدنا ،

والتدليل على أن فنوننا ما زالت في مستوى بدائى ضعيف . . مع أنه  
كان باستطاعتنا أن نفوت عليهم هذه الفرصة ، ونجعل هذا الديوان  
الهام صورة أنيقة رائعة لارتقاء ذوقنا الفنى . .

( أغسطس ١٩٦٠ )

(١٥)

غدا نلتقى  
للشاعر السوداني  
سيد أحمد الخردلو

يقول التعريف المنشور على غلاف الديوان إن الشاعر « رعم أنه لم يتجاوز عامه الثاني والعشرين إلا أنه يقف في طليعة أقرانه شعراء الشباب .. بثقة .. وعافية .. نجعلنا نتطلع إلى ريشته الحلوة بشوق .. وتلهف .. » ويقول أيضا : « بلاده .. جناح الفراش الذى يهم بالتحليق .. عزف لها أحلى ما يقال عن وطن .. » ، « للمرأة معظم شعره .. يهبها أرهف الحروف وأرق الاحساسات .. فى صورة موسقة غزلة . »

والواقع أن هذه الحقائق الثلاث هى المكونات الأساسية لشعر « الحردلو » يضاف إليها عامل رابع لا يقل عنها أهمية وهو تأثر الشاعر الواضح بشعر « نزار قباني » وموسيقاه وألوانه ، والكثير من ألفاظه وتعبيراته ..

أما شباب الشاعر الغض فيؤثر بوضوح فى موضوعات قصائده وحرارة تعبيره ، وإهتزاز الكثير من صوره وبعدها عن التسلسل العقلى والشعورى ..

وشعره الوطنى مرتبط إلى حد بعيد بشعره الغزلى ، وجهه لوطنه أقرب ما يكون لعشق الرجل للمرأة الجميلة الفاتنة ، يتغنى بمحاسنها ويغلو فى تقديرها ، ويغنى فى هيامه بها .. أما شعر الغزل فيطغى على الديوان ويلونه بلونه الأحمر المثير ، ويلاحظ الشاعر السودانى « تاج السر الحسن » بحق « أن نظرة الشاعر للمرأة نظرة استمتاع بحتة » ويرد عليه الشاعر فيقول :



« الشعر الإنساني ليس وقفا على نضالات الإنسان وأحزانه . .  
فالمرأة هذا القمر الذى يذر الدفء ويرشح الأخضرار فى صقيع وجودنا  
مجال إنسانى لم يبدع الله أخصب منه . . كل ما هو مرتبط بالإنسان  
إنسانى . . فالجنس . . بكل حواشيه . . من شهوة وتصوير لمفاتن  
المرأة . . أشياء ضرورية . . تدرج تلقائيا فى يومياتنا . . ولا غضاضة  
فى تصويرها »

وهذا حق أيضا ، وإن كنا لا نريد للشاعر أن يغلق نفسه داخل  
هذه الدائرة الحسية المحدودة . . فما أرحب الآفاق التى يستطيع أن  
يجوبها شاعر موهوب مثله . . فقد تغنى بحبه لبلاده وافتنانه بجمالها ،  
وكتب رسالة حب إلى المجاهدة الجزائرية « جميلة بو حريد » ، وقال  
قصيدة إنسانية على لسان طفلة افريقية تخاطب الجنرال « ديجول »  
وتحاول أن توقف فيه أبوته ليقلع عن جرائمه البشعة فى الجزائر  
وصحرائها . . وخاطب أدباء بلاده فى قصيدة نارية قال فيها :

يا أصدقائى

ما الذى يرهبكم . .

كلكم ألقى بخوف . . قلمه

.....

أنا لا أطيق من أذلوا الكلمة

هذا الإله تقرزوا من أن يكونوا خدمه

وتهالكوا نحو العروش

أكفهم متورمة

« ياسيدى . . سمعا وطاعة

نحن لك

والحمد لك «  
ياللدعارة .. بالجرح الكلمة  
إني لأبصق  
في الوجوه الفجة .. المستسلمة  
يايائمي أحرفكم  
ياخدم الطافوت  
تأبي الكلمة  
هذا الذي قد استسغتم  
ياعيد العظمة  
القيء يخنقني .. لغثيان الأيادي الهرمة  
إني لأبصق  
يارقيق الطغمة المنهزمة  
ماذا إذا أقلامكم ألفت بنار صنمه  
ماذا إذا حطمت  
هذي الدمى المزدحة  
ماذا عليكم  
إن سكبتهم شعبكم في ملحمة ... »

كل هذه تجارب إنسانية خصبة أجاد الشاعر التغني بها إلى جانب  
أهازيجه الكثيرة في المرأة ومحاسنها .. وحداثة سن الشاعر تبشر بأنه  
سيستطيع في إنتاجه القادم أن يتحرر من تأثير « نزار » الواضح لتبدو  
شخصيته الفنية أكثر وضوحا واستقلالا ..

( مايو ١٩٦١ )

(١٦)

## « الشقاء في خطر »

للشاعر الجزائري مالك حداد

ترجمة : ملك أبيض العيسى

من « حلب » الشهباء يأتينا هذا الديوان الشاعر . ألفه شاعر جزائري بلغة أعداء بلاده وغاصبها . . إنه واحد من ذلك الجيل الناضج من أدباء الجزائر الذين لا نعرف عنهم إلا القليل ويعرفون عنهم في فرنسا كل شيء . . محمد ديب . كاتب ياسين . مولود فرعون . مولود معمري . محمد العيد . رومان روكان . جان سيناك . . وغيرهم ممن حرمهم الاستعمار الفرنسي القدرة على التعبير بلغة بلادهم وأهلهم . وكانت تلك في حد ذاتها مأساة تتمثل فيها المأساة الكبرى التي فرضتها فرنسا على كل أبناء الجزائر باحتلالها الطويل الغاشم ، وتصرفاتها البربرية الدامية . .

لقد ولد هذا الشاعر « مالك حداد » - في قسنطينة - ثالث مدن الجزائر - عام ١٩٢٦ ، ولكنه لا يعترف بمولده في هذا التاريخ . . بل يقول :

— لقد ولدت في صباح ٨ مايو سنة ١٩٤٥

وهو اليوم الذي بدأت فيه فرنسا مجزرتها الرهيبة في الجزائر التي سقط فيها خمسون ألف شهيد جزائري ، وأعلنوا بدمائهم الحارة الزكية مولد الثورة الجزائرية الماردة ، التي ظلت نارها متأججة حتى حققت للجزائر حريتها واستقلالها . .

وما لبثت هذه الثورة أن تحولت إلى حرب بطولية وقف فيها الثوار الجزائريون بامكانياتهم الضئيلة موقف الند العنيد أمام فرنسا الدولة الكبرى ومعها كل امكانياتها الضخمة ، وامدادات ذل الغرب

الكبرى ، وأسلحة حلف الأطلنطى . . ومع ذلك فقد عجزت فرنسا خلال هذه السنوات الطويلة عن أن تهزم هؤلاء الثوار المجاهدين ، واضطرت في النهاية إلى الاستسلام أمام بطولاتهم وخرجت مندحرة ليعود الربيع إلى أرض الجزائر . .

وفي هذا الديوان الجزائري الذى كتبه « مالك حداد » بالفرنسية ، وترجمته « ملك العيسى » إلى اللغة العربية ، أو اللغة الأم على حد وصفها الصادق . . نجد مأساة الجزائر كلها في تعبير شعري بديع . . نجد الجراح والعذاب والآلام . . وجثث الشهداء وبطولاتهم . . ونلمس الإصرار الذى يملأ نفوس أهل الجزائر . . وقبل ذلك كل نستشعر تلك الروح الإنسانية السمحة التى تملأ قلوبهم وهم يكافحون من أجل حريتهم ، ويتطلعون في نفس الوقت إلى الربيع والأمل والزهو والموسيقى . . ومستقبل آمن يرفرف فيه سلام على الإنسانية كلها . .

اسمع شاعرهم يخاطب صديقه الجزائري في إنسانية رحبة الآفاق حضارية النغمة :

« إنك لست ضد الفرنسيين . . يجب أن لا تكون ضدهم .  
بل إنك لا تستطيع أن تكون ضدهم .

أتعلم لماذا ؟ اسمع اذن !

رأيت هذا المساء كهلا يعمل في دكانه حتى ساعة متأخرة من الليل . كان صديقي الحذاء المجهد يزدرد قطعة من الخبز . كانت له أصابع ثقيلة واثقة . . قادرة على أن تشد بحرارة على يدك . . قادرة

على نسج إكليل من الزهور لأول أيار . . قادرة كل القدرة على صفع  
رجل غليظ شرير . .

لاتنس هذا الكهل المجهد الذي كان يزدد الجبن . .  
لقد همس في أذني : لن أصنع أحذية عسكرية أبدا .

لقد سبق ابنه على التو إلى الجزائر ليشارك في حرب لم يعلنها هو .  
ان فرنسا هي هذا الكهل الذي كان يكدح في دكانه حتى ساعة  
متأخرة من الليل . . هذا الكهل يمكن أن يكون ابن عم « لدسنوس »  
أو « لبول ايلوار » ليست فرنسا عدوك . .

وفي الديوان صفحات تفيض بالحنين الممزق للوطن ، الذي  
يناديه الشاعر بالأم . . وهو بعيد عنه في أرض فرنسا يتوق إلى أرضه ،  
وإلى دفء ربيع ، ورفقة أهله وقصص بطولاتهم . . وحينما يذكر  
الشاعر مأساة جهله باللغة العربية يثن في أسى ومرارة لا تعرف اليأس  
رغم كل شيء : « ستقول : إن مالكا هذا يستخدم كلمات  
فرنسية . .

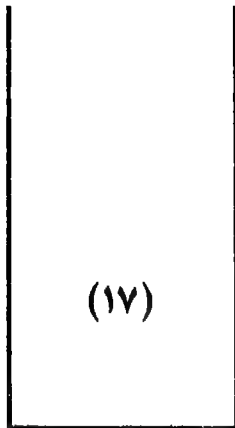
وما أهمية ذلك ؟

أن كلمة الجزائر يمكن أن تقال بالصينية .  
بلى يا أراجون . . تلك هي مأساة اللغة . .  
لو كنت أعرف الغناء لتكملت العربية . .

وفي القصيدة الطويلة التي جعلها الشاعر مقدمة لديوانه وفي  
غيرها من قصائد الديوان يوضح الشاعر الجزائري رأيه في وظيفة  
الشاعر المعاصر . . الشاعر الإنسان في أمة منكوبة بحراب  
الاستعمار :

« خطرة هذه المهنة ، مهنة الشاعر .. يفقد فيها الريش ..  
ولكنه يصنع الأغاني . ذاك ما قاله لى بلبل أعذب غناء منى ..  
هذا البلبل ما أن يتكلم عن الحرية حتى يحمل جناحي عقاب ..  
حتى يصبح عربة منقذة .. حتى يصبح ريا للأرض .. للأرض  
العطشى . »

« اربط قدميك بتراب الجزائر .. التصق به .. انتعله  
فقد ماك ، قدما الجندي الشاعر الجوال ، قد وجدت أخيرا قالبها ..  
سر .. يجب أن تسير .. أن تسير ..  
السير هو طريقتك في الانتظار . في ارتقاب الأحداث .  
دع غيرك ينتظر قبره .. وهو جامد كالموت  
أنت تكتب لأنك تحب . وإذا لم يكن لديك ما تحبه .. فاطرح  
قلمك ..  
بأقدامك ، أقدام الجندي ، أقدام الشاعر الجوال ، ستخط طرقا  
جديدة ..  
ستخط دروبا معطرة بالأساطير . مزروعة بالحلزون . »  
( نوفمبر ١٩٦١ )



## « احزان المساء »

للشاعر الانجليزي : روبرت بروك

ترجمه شعرا : كمال الدين الحناوى



الترجمة من لغة إلى أخرى عملية شاقة مرهقة ، وقل أن يوفق المترجم إلى نقل النص الأدبي الذى يترجمه نقلا أميناً صادقاً ، وذلك لما هو معروف من أن لكل لغة خصائصها الإيحائية والصوتية التى يستحيل ترجمتها بدقة كاملة إلى لغة أخرى . وإذا جاز أن تتحقق نسبة كبيرة من الأمانة فى ترجمة النصوص العلمية لغلبة الحقائق الموضوعية عليها ، فإن ترجمة الأعمال الأدبية أشق وأعسر لما هو معروف من أن التعبير الأدبي معقد تكتنفه الطلال والأياءات والتوريات التى تختلف من لغة إلى أخرى باختلاف البيئة والظروف والعوامل المختلفة التى اشتركت فى تكوين كل منها ، كما تختلف من أديب لآخر باختلاف ثقافته ومحصوله اللغوى والرموز النفسية والبيئية التى يستعملها فى كتابته . .

لذلك اعتبرت عملية الترجمة من قديم عملية خيانة للنص المترجم ، فالمترجم مهما كان أميناً وقادراً لا يمكن أن ينقل إلى لغته كل الإحساسات والإيحاءات المحيطة بالنص الأصل ، ولا بد أن تضع نسبة غير قليلة منها ، يحاول أن يعوضها بالاستعانة ببعض الخصائص الأخرى التى تتميز بها لغته والتى يرى أنها تعادل ما ضاع منه أثناء الترجمة وإن لم تساوها تماماً . .

وإذا صح ذلك بالنسبة لترجمة النثر ، فهو أصح وأكثر وضوحاً بالنسبة للشعر ، وخاصة إذا حاول المترجم أن ينقله شعراً فى لغته التى يترجم إليها . . فللشعر فى كل لغة قيوده والتزاماته وموسيقاه الخاصة التى يتحرر النثر من كثير منها ، وله صوره وأخيلته الملتصقة بالبيئة

والنابعة من طبيعة اللغة وموسقاها وتراثها العريض من الصور البيانية والحيل البلاغية . . ونقل كل ذلك من لغة إلى أخرى كمحاولة صر القيل في مندبل ، أو إدخال الجمل في سم الخياط كما يقولون .

هذه حقائق لابد من أن نضعها في الاعتبار ونحن نحاول الحكم على ترجمة شعر بإحدى اللغات إلى شعر بلغة أخرى . . ولست أغالى حينما أعتبر ذلك أمرا شبه مستحيل ، وأفضل أن نسمى هذا النوع من الترجمة استيحاء للنص الأصلي لا ترجمة له بالمعنى المتعارف عليه . . ودليل على ذلك ديوان « أحزان المساء » للشاعر الانجليزى « روبرت بروك » فى ترجمته العربية التى قدمها « كمال الحناوى » ، وكان من الأمانة بحيث أثبت أمام كل قصيدة أصلها الانجليزى ، فأتاح لنا فرصة طيبة لمقارنة الترجمة بالأصل ، وملاحظة التعديلات التى أدخلها المترجم بحكم اختلاف اللغتين ، واتساع وزن البيت العربى واختلاف إيقاعه عن نظيره الانجليزى ، فاضطر إلى بعض المغالاة فى كثير من الأبيات ، وأضاف إليها تفصيلات وصورا من عنده ليستكمل بقية تفصيلات البيت العربى ، واضطر أحيانا أخرى إلى حذف بعض الصور والتعبيرات لأن الوزن لم يسعفه بالكلمات المناسبة ، أما التقديم والتأخير فهو كثير . . وتلك بعض ضرورات ترجمة الشعر شعرا . .

ولنأخذ مثلا يوضح لنا طبيعة هذه التغييرات التى اضطر الشاعر العربى إلى إدخالها على الأصل المترجم ، وهى قصيدة « عاسرا الطريق » التى نترجم مطلعها فيما يلى ترجمة تقريبية :

« هل أزلت الساعة التي نترك فيها هذا المكان المريح  
الذي جملة كل منا للآخر بضع سويعات ؟  
الآن ، قبله أخيرة محمومة قبل أن يحل القضاء السريع . . »  
أما ترجمة الشاعر « كمال الحناوى » لهذه الأبيات نفسها فهي :  
قد دنت ساعة الرحيل فهيا  
نتزود وقد رضينا الرحيل  
وتعالى أضم صدرك نحوى  
في جنون وأكثر التقبيل  
فطريقى مع الليالى طويل  
والليالى خبرهن طويلا  
كلها ظلمة ولانور فيها  
لمحب يضل فيها السبيل  
ومرور الأيام يقصبك عنى  
خلفا حسرة وصبرا جملا ،

لاشك أن الشاعر العربى قد وفق إلى الاحتفاظ بروح الأبيات  
لإنجليزية ، ولكنه كتب فى الوقت نفسه أبياتا عربية يستطيع أن ينسبها  
إلى نفسه وهو مطمئن تماما . . ويصدق ذلك على كثير من قصائد  
الديوان وأبياته ، ولذلك أفضل أن أعتبر هذا الديوان العربى مستوحى  
من ديوان الشاعر الإنجليزى وليس ترجمة له ، وإن كنت أعتقد مع ذلك  
أن قوالب الشعر الجديد المتحررة كانت أقدر على استيعاب النص  
الإنجليزى ، ومساعدة الشاعر على التقريب بين ترجمته والقصائد  
الأصلية .

( مارس ١٩٦١ )

(١٨)

« عن القمر والطين »

أشعار بالعامية المصرية

لصلاح جاهين

يخطيء من يعتبر أزجال « صلاح جاهين » وأغانيه أدبا شعبيا ، فهو وإن كان يستعمل اللغة العامية وهى لغة الشعب ، ويستعير من الموال الشعبى ، والبكائية الشعبية بعض صورهما وألفاظهما وأوزانهما ، فإن أزجاله فى مجموعها تمثل عقلية الفنان المثقف الواعى بمشاكل عصره ، وليس هذا شأن الأدب الشعبى الذى ينبعث من وجدان الجماعة فى تلقائية وسداجة . .

ويخطيء كذلك من يقارن بين « صلاح جاهين » و« بيرم التونسي » ويعتبر الأول امتدادا للثانى ، فبيرم التونسي فنان التصق بحياة الشعب التصاقا تاما ، ومضى فى هدوء وإصرار يعبر عن آلام الشعب وأشجانه ، وينقد ما يراه حوله من مظاهر الفوضى والابتذال والتخلف ، فى قسوة ورغبة ملحة فى الإصلاح ، ولم يفتأ يقارن بين مظاهر التقدم التى بهرته فى فرنسا وبين مظاهر القذارة والهوان التى تحيط بأهل بلاده ، وتفسد حياتهم وتمتتها . . وهو بموضوعاته التى يعالجها ، وبالأشكال الفنية التى يعبر عنها أقرب ما يكون للفنان الشعبى الأصل المعبر عن وجدان الشعب وانفعالاته من صلاح جاهين الذى يمثل جيلا آخر من الفنانين ، ولونا آخر من الفن الشعرى العامى اللغة ، ولكنه لا يخلو مع ذلك من آثار واضحة للثقافة الواعية ، ومن تعبير صارخ عن أزمة الجيل الذى أنجبته والحيرة المريرة التى تلف حياته ، وتفترس وجدانه ، فتدجئه فى مواقف غير قليلة إلى التعبير الرمزي الغامض الذى لا نجد له نظيرا عند بيرم التونسي .

وفى ديوان « عن القمر والطين » نغمات عاطفية صافية كالغدير ،  
وفيه نغمات وطنية عاصفة ارتبطت بمعارك كفاحنا ، وأصبحت جزءا  
من تاريخ نضالنا ، وفه أغاني عمل تعبر عن وجدان الجماعة وتطلعها  
للمستقبل المشرق الحافل بالمسرات والانتصارات .

والديوان بشكل عام عمل فني ممتاز يمثل اتجاهها خصبا في الشعر  
العامي ، ويعبر ببساطة وإخلاص عن كثير من مشاعرنا وحيرة جيلنا  
وتطلعاته .

وقد كتب الزميل « رجاء النقاش » دراسة طيبة عن الديوان ألحقت  
به ، وهي من خير ما كتبه رجاء النقاش ، وتتميز بالجهد الواضح في  
البحث ، والقدرة الفائقة على تذوق النص ، واكتشاف أسرار الجمال  
الكامنة فيه ، ومحاولة ربطه بالظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة  
به . .

ولكن هذه الدراسة لم تحل من بعض التعميمات التي قد تحتاج إلى  
مزيد من البحث والإثبات ، كقوله إن النقاد لاحظوا « أن مصر - على  
سبيل المثال - لم تنجب شاعرا كبيرا من أبنائها منذ أيام الشاعر الفرعوني  
بنتاؤور . . » ، أو أن « الترف كان هو الجو الأساسي للشعر العربي  
القديم . . » ، أو أن الشعر الفصيح كان « يعيش ويزدهر حول  
القصور وفي مجالس الملوك والأمراء . . » ، أو « ليس في أدبنا كله أكثر  
من موقفين أو ثلاثة تدل على تخليق الخيال العربي » . . . فكل هذه  
تعميمات لا تخلو من مغالاة ، وتحتاج إلى المزيد من الدرس  
والتحصيل .

( إبريل ١٩٦١ )

القسم الثاني :

شعراء

(١٩)

النايعة

وظاهرة الاعتذار في شعره

يكاد يتفق نقاد الأدب العربي ومؤرخوه على أن النابغة الذبياني من أشعر شعراء الجاهلية ، فابن سلام الجمحي يضعه بين الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، مع إمريء القيس والأعشى وزهير ، بل يميزه عليهم بأشياء ، وصاحب « الأغاني » يزعم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعتبره أشعر العرب ، وابن قتيبة يقول عنه « إنه نبغ بالشعر بعدما احتنك ، وهلك قبل أن يهر . » أى أن شعره كله جيد ، ولعل في هذا القدر ما يكفى لتقدير المكانة السامية التى وضعه فيها القدماء من مؤرخى أدبنا العربى .

وإذا كنا سنتناول في هذا المقال الاعتذار فى شعر النابغة ، فمعنى ذلك أننا ستعرض لأجود شعره وأبلغه ، بل ذلك الجانب من شعره الذى رفعه إلى تلك المرتبة الرفيعة بين شعراء عصره ، وشعراء العربية بعامة . فعمربن الخطاب لا يعتبره أشعر الشعراء إلا لقوله :

أتيتك عاريا خلفا ثيابى  
على خوف أن تظن بى الظنون

وكذلك لقوله :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة  
وليس وراء الله للمرء مذهب  
لئن كنت قد بلغت عن خيانه  
لمبلغك الواشى أغش وأكذب



ولست بمستبق أخا لاتلمه  
على شعث أى الرجال المهذب  
وهذه الأبيات كلها فى الاعتذار كما هو واضح .

وهناك بعد ذلك عبارة مشهورة تناقلتها كتب الأدب من قديم إلى يومنا هذا ، وهى : « أشعر الناس إمرؤ القيس اذا غضب ، والناطقة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والأعشى اذا طرب » ، وقد وردت هذه العبارة فى « الأغاني » على لسان يونس النحوى لما سئل عن أشعر الناس فأجاب : « أنا لا أومىء إلى رجل بعينه . . » ثم قال عبارته التى جرت بعد ذلك على كل لسان . ولا يهمننا من هذا القول إلا ما يخص النابغة ، وكيف أنه أشعر الناس اذا رهب ، أى اذا خاف . وماذا يفعل الخائف سوى أن يعتذر ؟ فمدلول العبارة إذن أن أجمل شعر النابغة الذى يرفع من قدره بين شعراء العربية هو شعر فى الاعتذار . . غير أن عبارة « اذا رهب » يكتنفها شىء من اللبس ، لأن تتبع شعر النابغة وحياته تنتهى بنا إلى أنه لم يعتذر إلا للنعمان بن المنذر ، ولا نظن أنه اعتذر إليه عن خوف ، فقد جاء فى « الأغاني » أن أبا عمرو بن العلاء « سئل : أمن مخافته امتدح النابغة النعمان وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك ، فقال لا لعمر الله لا لمخافته فعل إن كان لآمننا أن يوجه النعمان له جيشا وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ولكنه كان راغبا فى عطاياه وعصافيره »

وسواء أكان هذا الاعتذار نتيجة لخوف أم لطمع ، أم لأى دافع من الدوافع الأخرى التى سنناقشها فيما بعد ، فلا خلاف على أنه أشعر ما قاله النابغة وعلى أنه ليس من شعراء الجاهلية من قال فى هذا الغرض

وبرز فيه مثله ، غير أننا نرى مع ذلك أننا إذا عدلنا العبارة السابقة بما لا يغير من مضمونها العام ، فقلنا أن النابغة هو أشعر الناس إذا اعتذر لكننا بذلك أقرب إلى الدقة في تقرير حقيقة الأمر .

\* \* \*

لعل الرواة لم يختلفوا في تدوين حياة شاعر كما اختلفوا حول حياة النابغة ، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل من رواياتهم المتضاربة إلا ما يؤيده النابغة نفسه في ديوانه . أما الزعم بأن في هذا الديوان كثيرا من الشعر المتحل فهذا ما نجدنا مضطرين إلى رفضه أو التغاضي عنه ، حتى يستقيم لنا البحث . وحتى لو صبح هذا الزعم ، فلن يزيد المتحل في الديوان عن أبيات قليلة لا تؤثر على الصورة العامة التي نستطيع تكوينها عن الشاعر من ديوانه .

لقد كان النابغة سيذا من سادة قومه ، فصاحب « الأغاني » يقول عنه أنه « أحد الأشراف الذين غرض الشعر منهم » ، ويقول « إنه كانت تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء فتعرض عليه أشعارها » ، وفي ديوان النابغة ما يؤيد هذه الحقيقة ، بل ما يؤيد كذلك أنه كان بين قومه أكثر من سيد ، فقد كان سفيرا يشفع لهم عند القبائل الأخرى ، وزعيما مرشدا ينههم عن الحرب مرة ، ويأمرهم بها مرة أخرى ، ويحثهم على الاحتفاظ بمحالفاتهم وعهودهم وخاصة مع بنى أسد ، ويخوفهم بطش الغسانيين . . وإن المدق في شعره ليرى أيضا أنه كان له خصوم يعارضون سياسته فهو يرد عليهم ويبين إسفافهم وطيشهم .

ومن مكائنه هذه بين قومه استطاع أن يتصل ببلاط إمارتين كبيرتين هما إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة ، وهذا ثابت أيضا في ديوانه ففيه مدائح كثيرة لأمرء الحيرة لاسيما « النعمان بن المنذر » ، وفيه أيضا مدائح أخرى لأمرء غسان . . أما كيف كان ينتقل الشاعر من الحيرة إلى غسان ، ثم يعود ثانية إلى الحيرة معتذرا للنعمان ، فهذا ما يكتنفه بعض الغموض ، وتعدد فيه الروايات والآراء التي لا يسعنا هنا إلا إيرادها كما هي ثم محاولة الخلوص إلى أقربها إلى المنطق بالرجوع إلى شعر النابغة نفسه .

هناك حقيقة ثابتة اتفقت عليها جميع الروايات وأيدها النابغة بشعره ، وهي أن النابغة كان ذا خطوة كبيرة عند النعمان بن المنذر ، ثم حدث بينها سوء تفاهم أو وشاية ، فهرب النابغة إلى الغساسنة ، أما ماهية سوء التفاهم أو الوشاية فهذا ما اختلفت فيه الروايات .

الرواية الأولى تزعم أن النابغة رأى زوجة النعمان المتجردة يوما وغشيتها ، فسقط نصيفها ، واستترت بيدها وذراعها فكادت ذراعها تستر وجهها لعلها تغلظها . وكان النابغة جالسا ذات يوم عند النعمان مع المنخل بن عبيد بن عامر اليشكري ، وكان النعمان دميا أبرش قبيح المنظر ، وكان المنخل أجمل العرب وكان يرمى بالمتجردة ويتحدث العرب أن ابني النعمان منها كانا من المنخل . فقال النعمان للنابغة يا أبا امامة صف المتجردة في شعرك ، فقال قصيدته التي مطلعها « أمن آل مية . . . » ووصف فيها أجزاء جسمها وصفا دقيقا أثار غيرة المنخل ، فقال للنعمان ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جربه ، فوقر ذلك في نفس النعمان وبلغ النابغة فخافه وهرب إلى غسان .

أما الرواية الثانية فتزعم أن عبد القيس بن خفاف التميمي ، ومرة  
بن سعد بن قريع السعدي عملا هجاء في النعمان على لسان النابغة منه  
أبيات يقول فيها :

ملك يلاعب أمه وقطينة  
رخو المفاصل كالمرود

وهذا البيت لم يرد في ديوان النابغة الذي بين أيدينا وأن كانت قد  
وردت فيه قصيدة أخرى كاملة في هجاء النعمان ( ص ٨٩ ) يقول  
فيها :

خبرون بني الشقيقة ماير  
فع فقما بقرقر أن يزولا  
قبح الله ثم ثنى بلعن  
وارث الصائغ الجبان الجهولا  
من يضر الأدنى ويمعجز عن ضر  
ر الأناصى ومن يخون الخيلا  
يجمع الجيش والأنوف ويغزو  
ثم لا يرزأ العدو فتبلا  
لا أرى الفارس المدجج فيكم  
آل مضر ولا أرى البهلولا

إلى آخر هذه الأبيات مقذعة الهجاء ، ونحن أمام هذه الأبيات بين  
موقفين :

فإما أن النابغة لم يقلها إطلاقا ونسبت إليه عن طريق خفاف ومرة  
بن سعد - كما تقول الرواية - وفي هذه الحالة يصح أن تكون سبب غضب

النعمان عليه ، ولكن أليس من المعقول أيضا مادام النابغة لم يقلها فعلا أن يحاول تبرئة نفسه منها عند النعمان وهو صاحب الخطوة لديه لا أن يفر هاربا إلى غسان ، وإما أن النابغة قال هذه الأبيات فعلا ، ولكن بعد أن هرب إلى غسان ، وفي هذه الحالة لا تكون سبب غضبة النعمان عليه ، بل نتيجة لها ولاحقة عليها . وهذا هو الموقف المعقول - في رأينا - فأنت حينما تقرأ البيت الثالث الذى يصف النعمان فيه بأنه يضر الأدنى ويخون الخليل لابد أن تتساءل عمن يكون هذا الأدنى وهذا الخليل الذى خانته النعمان ، ولن تجد غير النابغة نفسه عمن ينطبق عليه هذا الوصف ، فهو الذى اصطفاه النعمان نديما وخليلا ، ثم غضب عليه وأوشك أن يبطش به لو شاية الواشين .

أما الرواية الثالثة ، فى تفسير سر الجفوة بين النعمان والنابغة فتذهب إلى أن « مرة بن سعد » كان له سيف قاطع يقال له ذو الريقة من كثرة فرنده وجوهره ، فذكره النابغة للنعمان فأخذته ، فاضطغن لذلك « مرة بن سعد » ووشى به إلى النعمان وحررضه عليه ، وهى رواية هزيلة ، غير أنه من الممكن أن نلحقها بالرواية السابقة ، لأن صاحبها لم يذكر لنا كيف وشى « مرة » بالنابغة ، فمن المحتمل أن تكون الوشاية وقد وقعت بالصورة التى أوردتها الرواية السابقة ، أى بدس أبيات على لسان النابغة فى هجاء النعمان .

والدكتور طه حسين يرفض هذه الروايات جميعا ، ويرد كل شعر النابغة فى الاعتذار إلى عوامل سياسية فيقول فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » ( ص ٣١٧ ) :

« . . . وظاهر أننا لانقف عند قصة السيف وقفة الجادين ولا ننظر إلى قصة المتجردة إلا باسمين ، وأن من الحق أن نلتبس أصل هذا السخط في غير هاتين القصتين وربما كان شعر النابغة نفسه على غموضه وكثرة الانتحال فيه هو الذى يستطيع أن يدلنا دلالة قوية أو ضعيفة على أصل هذه القصة ، والظاهر أن أصل هذه القصة سياسى ، فالتنافس بين الفرس والروم في آخر العصر الجاهلى أمر معروف ، ومعروف أيضا أنه استتبع تنافسا بين ملوك الحيرة وملوك الشام ، وأن الأمر لم يقف عند التنافس بل تجارزه إلى حروب دموية عنيفة ، والظاهر أن ملوك الحيرة وملوك الشام كانوا يبذلون جهودا عنيفة في نشر الدعوة لأنفسهم وساداتهم من الفرس والروم داخل البلاد العربية ، والظاهر أن الغسانيين قد استطاعوا في وقت من الأوقات أن يستهوا النابغة فسعى إليهم ومدحهم رغم انقطاعه إلى النعمان فغضب لذلك وأوعد النابغة . . . » ويستشهد الدكتور طه حسين على رأيه بقصيدة سناقشها فيما بعد ، ونكتفى هنا بأن نلاحظ أنه قصر ذنب النابغة عند النعمان على مدحه ملوكا غيره ، فهو إذن لا يعتذر إلا عن هذا المدح لا غير .

ويؤيد الأستاذ فوزى البشيشى في رسالته لنيل درجة الماجستير ( وهى غير مطبوعة ) رأى الدكتور طه حسين ويضيف إليه أن مكانة النابغة بين قومه لسيد وزعيم وسفير كانت تقتضى منه أن يضع صالح قومه في المكانة الأولى ، فإذا رأى هذا الصالح يقتضى إرضاء النعمان ظل يمدحه ويسامره ، حتى إذا أحس بخطر الغسانيين على قومه ترك النعمان وسعى إليهم يمدحهم ويسترضيهم . . . وهكذا ، فإذا رأى أن مصلحة قومه تقتضى تحسين العلاقات مع النعمان ، عاد إليه معتذرا

مستغفرا . . فالباعث على هذا الاعتذار سياسى خالص فرضته على  
النابعة مكانته فى قبيلته وعشيرته بنى ذبيان .

وهذان الرأيان معقولان فى حد ذاتيهما ، غير أنى أرى أن إغفال كل  
تلك الروايات لا لشيء إلا لأن النابعة لم يوردها فى شعره صراحة أثناء  
اعتذاره لا يخلو من المغالاة ، فكلنا يعرف أننا إذا أخطأنا فى حق  
إنسان ، ثم أردنا استرضاءه بالاعتذار إليه ، فاللباقة قد تقتضينا بل  
تفرض علينا أثناء اعتذارنا له ألا نذكره صراحة بما اقترفناه فى حقه ،  
فلم لا يكون هذا هو نفسه حال النابعة ، وفى هذه الحالة قد تصح  
إحدى الروايات ، كل ما فى الأمر أن لباقة وشاعريته أبتا على أن  
يؤيدها فى شعره الذى يعتذر به إلى النعمان . راجيا رضاه وصفاء الجوار  
بينهما ، لكى لا يسجل على نفسه ما ارتكبه من أخطاء . وإذا كنا نرى  
أن بعض هذه الروايات محرف أو مبالغ فيه ، فليس معنى هذا أن  
أصحابها قد اخترعوها دون أن يكون لها ولو ظل من الواقع والحقيقة .

أما إسباغ ثوب الممثل الدبلوماسى الحديث على شاعر من شعراء  
الجاهلية فأمر يستدعى بعض النظر وشيئا من الحذر ، فكلنا نعلم أن  
النابعة كان وثيق الصلة بالنعمان حتى أنه كان لا يأكل أو يشرب إلا فى  
آنية من الفضة والذهب من عطاياه ، وكلنا نعلم أى مكانة كان يحتلها  
النعمان فى قلبه ، ولعل هذا البيت يصور لنا بعض هذه المكانة :

وإنك كالليل الذى هو مدركى  
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقد قيل إن السبب فى رجوعه إلى النعمان بعد هربه منه أنه بلغه أنه

عليل لا يرجى ، فأقلقه ذلك ، ولم يملك صبرا على البعد عنه وهو في هذه الحالة ، مع أنه كان مكرما معززا عند آل غسان . . فلو سلمنا بالزعم الذي يقول إن النابغة ما عاد إلى النعمان معتذرا إلا بباعث من السياسة ومصلحة قومه فمعنى ذلك أننا ننفي كذلك الرواية السابقة وتنفي عن النابغة الشاعر كل وفاء وإخلاص ، بل ونشك كذلك في صدق شعره وتصويره لما في نفسه من انفعالات وهذا أمر غير مقبول في رأيي بالنسبة لروائع النابغة في الاعتذار وهي التي ظلت الأجيال تتناقلها إلى يومنا هذا كمثال للبلاغة التي لا تتأني - في رأيي - إلا عن صدق في العاطفة والإحساس .

لم يبق أمامنا بعد ذلك سوى أن نستعرض قصائد النابغة في الاعتذار على ضوء هذه الروايات والآراء المختلفة .

إن أول قصيدة اعتذارية في ديوان النابغة ( طبعة بيروت ) هي القصيدة الثالثة التي مطلعها :

«أتأني أبيت اللعن أنك لم تني  
وتلك التي أهتم لها وأنصب»

وهي القصيدة التي أوردها الدكتور طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » مستشهدا بها على أن ذنب النابغة لدى النعمان لا يتعدى مدحه للملك غسان - ووضح منذ أول بيت في هذه القصيدة ، بل منذ أول شطرة أن النابغة يعتذر حقا ، ولكنه لا يجد بالضبط لماذا يعتذر فهو قد بلغه أن النعمان لاهمه ، فحزن لذلك أشد الحزن ومرض ، ثم هو



لا يعرف لماذا لاهه النعمان - ولعله يدعى أنه لا يعرف - ومع ذلك فهو يقسم على إخلاصه له ، لأنه يعرف أنه برىء من كل ذنب ولكى لا يترك فى نفسه ريبة أو شكاً . . ثم يبدأ الشاعر بعد ذلك فى فرض الفروض ليصل إلى سر لوم النعمان له ، فيقول له أن كانت ملامتك لى لأنك بلغت عنى خيانة فوالله إن مبلغك لكذاب أشسر ، إما إن كان لومك لأننى مدحت ملوكا غيرك فلست أرى فى ذلك ذنبا أستحق عليه اللوم ، ثم هو يفسر جريرته هذه تفسيرا منطقيا غاية فى الجمال ، فيقول : أنا رجل لى بقعة من الأرض أتنتقل فيها ، وقد يكون هذا التنقل أمرا تقتضيه مكانته فى قبيلته كزعيم وسفير ، وقد أنزل على ملوك يكرمونى ويبيحون لى أموالهم ، أفليس من حقهم على بعد ذلك أن أشكرهم كما يفعل أولئك الشعراء الذين تصطنعهم وتهبهم الهبات ، ثم لا ترى فى شكرهم لك ذنبا ، فكيف ترى فى شكرى أنا للملوك غيرك ذنبا ؟ ويتنقل النابغة بعد ذلك إلى مدح النعمان واستعطافه موردا ذلك البيت الذى جرى على الألسن مجرى الأمثلة فى المدح :

فإنك شمس والملوك كواكب  
إذا طلعت لم يبد منها كوكب .

فالثابت من هذه القصيدة اذن أن النعمان قد غضب على النابغة إما لأنه أبلغ عنه خيانة ، وإما لأنه مدح غيره من الملوك ، وباستطاعة أصحاب الروايات التى ذكرناها أن يتمسكوا بهذه الخيانة ويفسروها كل حسب روايته ، كما يستطيع الدكتور طه حسين أن يفسر هذه الخيانة بأنها ليست إلا مدحه للملوك غسان . . ومن الصعب أن نخرج من هذه

القصيدة بما يؤيد هذا الرأي أو ذاك ، غير أننا لا نميل - كما قلنا - إلى دحض كل الروايات القديمة لا لشيء إلا لأننا لم نجد تأييدا صريحا لها في شعر النابغة .

وفي الديوان بعد ذلك قصيدة مطلعها .

أرسما جديدا من سعاد تجنب

عفت روضة الأجداد منها فيشقب

وقد صدرها الشارح بهذه العبارة : « قال يعتذر إلى النعمان »

وعندى أنه ليس من الصواب بشكل عام تصنيف القصيدة العربية ، والجاهلية بصفة خاصة ، وفق غرض واحد قالها الشاعر فيه ، لأننا نعلم أن وحدة الغرض كانت شبه معدومة في القصيدة العربية القديمة ، وإغفال ذكر الأغراض الأولى التي يتناولها الشاعر في قصيدته على أساس أن جميع الشعراء في ذلك الوقت جروا على بدء قصائدهم بالبكاء على الأطلال ووصف الناقة وما إلى ذلك ، . . يوحى بأن هذا الجزء الأول من القصيدة ليس سوى أبيات مصنوعة يجرى فيه الشاعر على عادة أسلافه ، قبل أن ينفذ إلى الغرض الذي قرر أن يقول قصيدته فيه . وهذا يتعارض مع ما سلم به معظم النقاد والدارسين من أن الشعر الجاهلي كان شعر صدق أكثر منه شعر صنعة ، وفي اعتقادي أن الشاعر الجاهلي إذا بكى على الأطلال فإنه يبكي بحرقة لا يمكن أن تكون متكلفة ، فهي صادرة عن دخيلة نفسه وليست مجرد تقليد لمن سبقه من الشعراء أما ما نراه من اجماع الشعراء على ذلك البدء ، فمن السهل تعليله بالرجوع إلى ظروف حياتهم المشتركة الدائمة التنقل وراء المرعى الدائمة التفريق بين الأحباب والخلان .

وقصيدة النابغة التي وصفها شارح الديوان بأنها في الاعتذار إلى  
النعمان مثل واضح على صدق ما نذهب إليه ، فهي خالية من أى ذكر  
للنعمان ، وليس فيها أثر للاعتذار . فالنابغة يسدوها بالبيت الذي  
ذكرناه وهو بكاء على الأطلال ، ويستمر في هذا البكاء ستة أبيات أخرى  
يذكر فيها حبيته سعاد ولياليه معها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف  
الناقة في ستة أبيات أخرى ، حتى إذا وصل إلى البيت الرابع عشر  
استطعنا أن نلمس شيئا من اللوم أو العتاب في قوله :

« أتاني وعيد والتنائف دوننا  
سحاوية والفاط المتصوب »

ولكن كيف نتصور أن هذا العتاب موجه إلى النعمان وهو لم يذكره  
ولم يشر إليه في القصيدة لا قبل هذا البيت ولا بعده ، ولم يذكر في  
القصيدة كلها سوى الأطلال وبعض الأماكن وسعاد والناقة والفرس ،  
وليس من بين كل هؤلاء من يمكن أن يرسل للشاعر وعيدا على بعد  
الشقة بينهما سوى سعاد ، فلا ثلك إلا أن نرجح هذا الفهم الأخير  
للبيت خاصة وأن الأبيات الأربعة الباقية في القصيدة موزعة بين ذكر  
سعاد وبين وصف الناقة .

لماذا إذن صدّر شارح الديوان هذه القصيدة بأنها في الاعتذار إلى  
النعمان ؟ الأرجح أنه نقلها عن مخطوطة ، والمخطوطات كما نعلم  
منقولة عن الرواة ، ومن المحتمل أن هذه القصيدة كلها ليست سوى  
مقدمة لقصيدة أخرى كبيرة فيها اعتذار للنعمان حقا ، ولكن بقيتها  
ضاعت لسبب أو آخر ، وبقي من القصيدة تصديرها فلم يجرؤ واحد

على تغييره . ويرجح هذا الفرض أن القصيدة بصورتها الراهنة قد اقتصرت على البكاء على الأطلال ووصف الناقة ، وهذان الغرضان بالذات لا نراهما في معظم الشعر الجاهلي إلا كمقدمات للقصائد .  
ونتقل بعد ذلك إلى معلقة النابغة التي يقول الشارح في تصديرها :

« وهذه هي المعلقة التي تعد من عيون شعر النابغة ، وقد مدح بها النعمان بعد ما جناه ويعتذر إليه » . يستهل النابغة معلقته بذكر الأطلال في ستة أبيات ، ثم يذكر ناقته ويصفها في ثلاثة أبيات ، ينتقل بعدها إلى رواية قصة في عشرة أبيات عن ثور وحشى أرسل له صائد كليين من كلاب الصيد يطاردانه فيفتك بواحد منهما ، حتى إذا رأى الكلب الآخر مصير زميله ، رجع على أعقابهِ ولم يجرؤ على الانتقام من الثور لقتله زميله . ومن الممكن الربط بين هذه القصة وبين قصة النابغة مع النعمان ، فأحدى الروايات التي لدينا تذهب إلى أن شخصين وشيا بالنابغة لدى النعمان ، ففر النابغة ولم يواجه النعمان أثناء غضبته عليه ، حتى إذا عاد إلى النعمان هذوؤه ، واستطاع أن يعرف أن المنخل هو الخائن الحقيقي قتله ، فسكت الواشى الثانى ولم يحاول زيادة الإيقاع بين النابغة والنعمان هذه القصة قد نستطيع بشيء من المهارة والتلفيق أن نوجد صلة بينها وبين قصة الثور والكليين ، ولكنى لا أميل إلى ذلك ولا أرى في هذه الأبيات سوى مظهرا من مظاهر الحياة البدوية صورة الشاعر في قصيدته .

ونتقل النابغة بعد هذه القصة إلى مدح النعمان صراحة والاعتذار

إليه :

« فتلك تبغنى أن النعمان له فضلا . . . »

إلى آخر القصيدة والأعتذار واضح في هذين البيتين خاصة :

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته

كما أطاعك وادله على الرشد .

ومن عصاك فعاقبه معاقبة

تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد .

فالشاعر في البيت الأول يشير إلى نفسه ولا ريب ، وفي البيت الثاني يعرض بوشاة . وبعد ستة أبيات أخرى في وصف كرم النعمان وعطاياه يعود إلى الاعتذار ثانية : « فاحكم كحكم فتاة الحى اذ نظرت . . . » ويذكره بقصة زرقاء اليمامة ودقتها في إصدار أحكامها ، ويطلب منه أن يكون مثلها عادلا لا بصيرا في أحكامه ، ثم يقسم له بعد ذلك بكل مقدس لديهم : إلههم ( الذى مسح كعبته ) والدماء والقرايين التى تراق وتقدم . يقسم الشاعر بهذه الأشياء مؤكدا أنه لم يقل فيه سوءا .

« . . . ما قلت من سوء مما أتيت به . . . »

وهذا الشطر وحده يدعونا إلى إطالة التأمل ، إذ أنه يؤيد إلى حد بعيد الرواية التى ترجع غصبة النعمان إلى أبيات نسبت إلى النابغة في هجائه ، فهو ينفي في هذه الشطرة عن نفسه قالة السوء في النعمان .

\* \* \*

الاعتذار موضوع ملازم للخطأ ، والخطأ شيء يجرى في دماء البشر كما يجرى معه الضعف ، والمخطيء لا يقوى عادة على مخاصمة من

أخطأ في حقه طويلا ، خاصة إذا كان من أحبائه الخلقاء ، وعلى ذلك فهو سرعان ما يحن إلى العودة إليه ، ولن تكون ثمة عودة دون إصلاح لذلك الخطأ ، ويبدأ المخطيء في البحث عن وسيلة يصلح بها خطاه ، فلا يجد سوى الاعتذار إليه . .

وهكذا فالاعتذار قديم قدم البشرية بل إن أساليبه وطرقه تكاد تكون واحدة منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، فالنابغة يعتذر ويقسم ويحاول تبرئة نفسه مما نسب إليه - أيا كان - وهو في اعتذاره يستخدم أساليب لا يزال العامة يستخدمونها حتى اليوم في حياتنا المعاصرة مع اختلاف الألفاظ بالطبع :

إذا فعاقبني ربى معاقبة  
فرت بها عين من يأتيك بالفند  
هذا لأبرأ من قول قذفت به  
كانت نوافذه حرا على الكبد  
إلا مقالة أقوام شقيت بهم  
كانت مقالتهم قرعا على كبدى  
أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى  
ولامقام على زأر من الأسد

ألا ترى كيف تظل المرأة من عامة الشعب تقسم ببراءتها مما نسب إليها من عيب في صديقتها ، وتستنزل اللعنات على نفسها وأولادها إن كانت قد قالت كذبا ، لتؤكد بذلك صدقها وتستعيد رضى من أخطأت أو نسب إليها أنها أخطأت حقه ؟

والشاعر يظهر في البيت الأخير استسلاما وخنوعا يعرف جيدا أن  
فيهما إرضاء لغرور النعمان واعترازه بنفسه ، متوسلا بذلك إلى رضا  
وعفوه . ثم يسترسل إلى مدحه وتعداد أفضاله والتودد إليه ، حتى يختم  
المعلقة بهذا البيت الذي يظهر فيه يأسه وظلام حياته إذا لم يقبل النعمان  
اعتذاره ويعفو عنه :

ها أن ذى عذرة إلا تكن نفعتم  
فإن صاحبها مشارك النكد .

والقصيدة التالية في الاعتذار في ديوان النابغة مطلعها :

عفى ذو حسى من فرتنا فالقوارع  
فشطاً أريك فالتلاع الدوافع

وهو يبدو لها كما ترى البدء التقليدى للقصيدة الجاهلية ، فيذكر  
الأطلال ويتحسر على فراق حبيته « فرتنا » الذى طال ستة أعوام ونيف  
على السابح ، وهو يصف هذه الأطلال حين مر بها فتذكر غرامه القديم  
وبكى ، ثم ينهر نفسه على هذا البكاء ويسألها : ألم يشف من غرام  
الشباب هذا رغم تقدم السن به وغزو الشيب لرأسه ؟ ويتنقل بعد ذلك  
إلى ذكر النعمان انتقالا جميلا موفقا ، حين يجيب عن تساؤله السابق بأن  
الذى حال دون شفائه مع كبر سنه هو همّ متغلغل في شغاف قلبه ،  
وهذا الهم ليس إلا وعيد النعمان له مع أنه لم يأت ذنبا ، وهو يصف وقع  
هذا الهم في نفسه فيشبهه بلدغة حية رقطاء خبيثة تركته مسهدا لا ينام  
من الألم ، ثم يعود فيخاطب النعمان قائلا إنه قد بلغ عنه لوما ، وإن  
هذا اللوم خفيف يملأ الأسماع ويسدها :

أتانى أبيت اللمن أنك لمتنى  
وتلك التى تستبك منها المسامع  
مقالة أن قلت سوف أناله  
وذلك من تلقاء مثلك رائع

ونلاحظ فى البيتين السابقين كثيرا من الذعر المتكلف الذى ساقه  
النابعة ليشبع به غرور النعمان فيعطف عليه ، وهذا نوع من اللباقة إن  
دل على شيء ، فإنما يدل على خبرة النابعة بطبائع البشر وفنون  
استرضائهم والاعتذار إليهم .

ويقسم النابعة للنعمان بحياته وهى ليست بالهيئة على أن بنى قريع  
الذين وشوابه لم ينطقوا إلا كذبا :

« لعمرى وما عمرى على بهين  
لقد نطقت بطلا على الأقارع »

وفى هذا البيت والأبيات التى تليه تأكيد صريح للرواية التى تقول  
أن غضبة النعمان على النابعة كانت بسبب وشاية رجلين من بنى قريع  
افتريا عليه شعرا لم يقله :

أقارع عوف لأحاول غيرها  
وجوه قرود تبتغى من تجادع  
أتاك إمرو مستبطن لى بغضه  
له من عدو مثل ذلك شافع .

والبيت الأخير يؤكد أن الوشاية قام بها رجلان : أحدهما بغضه  
مستبطن ، والثانى عدو يشفع للنابعة بالعدواة ويعين عليه . وبعد أن



حدد النابغة شخصية من وشيائه يشرع في الدفاع عن نفسه ، وتكذيب  
الوشاية فما قاله الواشيان ضعيف لا أصل له ولا قوة فهو أشبه بالثوب  
الخفيف المهلهل . . وهذا الكذب الذي قاله الواشى وتجنب فيه الحق  
الواضح البين يتمثل في قول جاء به وزعم أنى قلته والله أعلم أنى لا أقوله  
ولو كبلت ذراعى بالقيود :

« أتاك بقول لم أكن لأتوله  
ولو كبلت في ساعدى الجوامع »

هذا البيت بالذات يكاد يدحض الرأيين الحديثين في تفسير  
اعتذارات النابغة دحضا لا قيام لهما بعده ، فماذا يكون هذا القول  
الذى ينفيه النابغة عن نفسه هذا النفى المستमित إلا أن يكون أبيات  
الهجاء التى نسبت إليه ، فهو يقسم أنه لم يقلها حتى لا يترك في نفس  
النعمان رية ، يقسم بالإبل التى يمتطيها الحجاج إلى مكة ، ثم يستطرد  
فيصف هذه الإبل في ثلاثة أبيات ، يعود بعدها إلى حديث وشاته فيقول  
للنعمان إنه حمل عليه ذنبهم ، وتركهم كالإبل المريضة ذات القروح  
التي تترك في حين نكوى الصحاح لثلا تعديها المراض . وهذا تشبيه  
قوى بليغ زاد من جماله تمشيه مع ذكر الإبل قبل ذلك ، فلا تحس في  
انتقاله من وصف الإبل إلى الحديث عن وشاته هذا العنف والاصطناع  
الذى نحسه في كثير من التشبيهات الجاهلية ، وذلك لأن الشاعر  
استمده من الجو الذى خلقه في الأبيات السابقة حين وصف الإبل التى  
أقسم بها .

ومرة أخرى وقبل أن ننتهى من هذه القصيدة يجدر بنا أن  
نلاحظ خبرة النابغة ولباقتها في الاعتذار ، فهو يستسلم أولا ويصور

خوفه وذعره من وعيد النعمان ، تم يبدأ فى نفى التهمة عن نفسه  
بشئ من الإصرار وبشئ من اللوم ، لا يكاد يستغرق فيهما حتى يعود  
مرة أخرى إلى الاستسلام والخنوع .

فمن كان لا يهوى هواك فقطعت  
سرابيل من نار له وبراقع  
وأطعم زقوما فكان طعامه  
وصبت عليه بالحميم المقامع  
فإن كنت لاذو الضغن عني مكذب  
ولا حلفى على البراءة نافع  
ولأنا مأمون بشئ أقوله  
وأنت بأمر لا محالة واقع  
فإنك كالليل الذى هو مدركى  
وأن خلت أن المنتأى عنك واسع

. . حتى إذا وصل إلى ذروة هذا الاستسلام - الذى يعرف جيدا أنه  
يرضى النعمان ويمهد لعفوه عنه . . فى هذا البيت الأخير الرائع نجده  
يعود إلى اللوم والعتاب والتذكير ببراءته :

أتوعد عبدا لم يخنك أمانة  
وتترك عبدا ظالما وهو ظالع  
ثم يختم القصيدة وقد عاد إلى الاستسلام والمدح والتزلف إلى غرور  
النعمان :

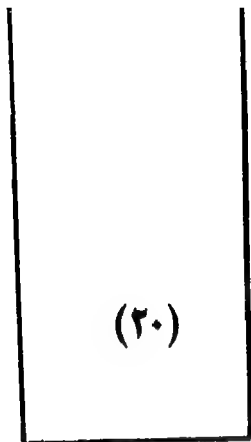
وذلك أمر لم أكن لأتوله  
ولو جمعت فى ساعدى الجوامع

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه  
وسيف أعيرته المنية قاطع  
أبي الله إلا عدله ووفاءه فلا  
النكر معروف والا العرف ضائع  
وتسقى إذا ماشئت غير مصرد  
بزوراء في حافاتها المسك كانع

\* \* \*

هذه القصائد الأربع هي كل ما قاله النابغة في الاعتذار في ديوانه الذي بين أيدينا ، وقد سبق أن أوردنا الروايات التي جاءت في « الأغاني » وغيره من المصادر عن أسباب اعتذار النابغة للنعمان بن المنذر ، ومحصناها ، ولم نستطع أن نؤكد صحة أى منها ، ثم ناقشنا تفسير الدكتور طه حسين لاعتذارات النابغة على أساس سياسى وملنا إلى رفضه ، وحين نتمعن النظر في قصائد النابغة نجدنا في موقف نستطيع معه أن نرجح الرواية القائلة بأن سبب هذه الاعتذارات هو وشاية مرة بن سعد بن قريع وعبد القيس ابن خفاف التميمي بالنابغة لدى النعمان ، وانتحالها أبياتا في هجاء النعمان نسبها إلى النابغة ، فالقصيدة الأخيرة تكاد تجزم بصحة هذه الرواية ، كما أن في القصائد الثلاث السابقة أبياتا تؤيدها وقد أشرنا إليها . وفضلا عن ذلك فقد وردت قصيدة الهجاء في الديوان ، فلما أن يكون النابغة قد قالها فعلا وعاد فأنكرها أثناء اعتذاره وتقربه من النعمان ، ولما أن يكون الواشيان قد نسبها إليه كذبا ليوغرا صدر النعمان عليه ، وفي الحالتين تكون هذه الرواية الأخيرة أقرب الروايات لتفسير دواعى غضب النعمان على النابغة ، وحرص الأخير على الاعتذار إليه واسترضائه .

(١٩٤٨)



قيس بن ذريح  
شعره .. وعشقه

في تاريخ الأدب العربي شعراء اشتهروا بقصص حبهم أكثر مما اشتهروا بأشعارهم . . ومن هؤلاء « قيس بن الملوح » المعروف بمجنون ليلى ، و « جميل بن معمر » أو جميل بثينة ، و « كثير عزة » ، ويأتى بعد ذلك « قيس بن ذريح » صاحب قصة الهوى المشبوب التي بعثها شاعرنا الكبير « عزيز أباظة » في مسرحيته الشعرية « قيس وليلى » . . فالذى نعرفه عن عشق هؤلاء الشعراء أكثر مما نعرفه عن أشعارهم ومذاهبهم في القول .

وهذا أمر طبيعي بعد أن أعجب العرب القدماء بهؤلاء الشعراء العاشقين واعتبروهم أبطالاً ممتازين للقصص والأخبار التي كانت تروى في مجالس العلم والسمر ، يرصع كل خبر ببضعة أبيات من الشعر شأن معظم الأخبار وال نوادر التي تحفل بها كتب الأدب العربي . . . وظل الناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل مع كثير أو قليل من الحذف والتعديل والاضافة . . فتحول هؤلاء الشعراء العاشقون إلى شخصيات شبه أسطورية ، ورويت عنهم كثير من الأخبار الملفقة ، والأشعار المنتحلة ، مما يشير إليه الدكتور « حسين نصار » في كتابه « قيس وليلى : شعر ودراسة » ، حتى لتنسب أبيات بعينها إلى سبعة شعراء في وقت واحد ، وتنسب غيرها إلى ستة . . وهكذا . . فلا تجد أبياتاً تنسب إلى « قيس ابن ذريح » وحده سوى ثلاث وأربعين مقطوعة من بين ست وسبعين جمعها « الدكتور نصار » من مختلف المصادر والمراجع . .

وفي هذه الحقيقة ما يؤكد أن ذلك الشعر ليس إلا عنصراً مكملًا

من عناصر الخبر أو القصة التي تروى عن هذا الشاعر أو سواء من شعراء  
العشق العذرى في العصر الأموى . . .

\* \* \*

وقصة حب « قيس بن ذريح » تختلف اختلافا واضحا عن قصص  
سواه من الشعراء الغزلين ، حتى لقد مال الدكتور « طه حسين » إلى  
قبولها ورفض كثير غيرها ، وقال عنها : « أما هذه فقصة جيدة حقا ،  
لا ينبغي أن تقرن إلى هذا السخف الذي تحدث الرواة به عن المجنون ،  
ولا إلى هذا الفتور الذي ذكروا به حب جميل . وما أظن إلا أن واضع  
هذه القصة قد امتاز عن الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشيء  
من الاجادة والبراعة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . . . . ولكن فيها شيئا  
تمتاز به وتستمد منه قيمتها ونفعها وانفرادها بالجودة والاتقان ، وهو أنها  
قصة إنسانية ، أريد أن الخيال لم يخترعها اختراعا وأثما ألفها تأليفا . . »  
والقصة مع ذلك بسيطة الخطوط بعيدة عن التعقيد والالتواء . .  
فقد شغف « قيس » بحب « لبنى » ، وطلب إلى أبيه الثرى أن يزوجه  
له ، ولكن الأب رفض وأصر على الرفض ، فاستعان قيس « بالحسين  
ابن على » رضى الله عنه ، وهو شقيقه في الرضاع كما تجمع معظم  
الروايات ، وتم الزواج . .

وأقبل الزوج العاشق على زوجه الفاتنة يرتوى من محاسنها ،  
ولا يكاد يبارح خبائها . . فعز على أبويه أن نستأثر « لبنى » بابنها  
الوحيد ، فظلا يكيدان لها ويحثانه على طلاقها أو الزواج بغيرها . .  
وساعدهما على كيدهما أن « لبنى » لم تنجب رغم مضى السنين وظل قيس

يقاوم رغبة والديه ، ولا يزيده كيدهما إلا تعلقا بلبنى ووجدا بها ،  
وحرصا عليها . . وأخيرا ضاق الأب بعناد ولده ، فأقسم ألا يستظل  
بسقف بيت أبدا حتى يطلق « لبنى » . . وكان يخرج مع أم قيس ليقيفا في  
حر الشمس القاتل ، فيجىء قيس ويقف إلى جوارهما يظلها بردائه  
ويحتمل هو حرارة الشمس . .

واحتدم الصراع في نفس « قيس » المرهفة بين حبه الصادق للبنى ،  
وبين بره بوالديه وحرصه على إرضائهما ، واشتركت عوامل الضغط  
الاجتماعى في إجباره على اتخاذ القرار الذى يكرهه ، فطلق « لبنى » وهو  
مرغم ، وودعها والدموع تفيض من مآقيه ، واستقبل زمنا طويلا من  
السهد والعذاب والتغنى بآلام الفراق والحرمان ، وذكرى الأيام الحلوة  
والحب السعيد . .

ويختلف الرواة بعد ذلك حول خاتمة القصة فمنهم من يزعم أنه  
ردها ونعم بوصالها بقية حياته ، ومنهم من يزعم أن « لبنى » ماتت وهى  
مطلقة ، فأكب « قيس » على قبرها يبكى حتى أغمى عليه ، وقام وقد  
ذهب عقله ، ومات بعدها بثلاثة أيام .

وتروى نهايات أخرى لهذا العشق المشبوب ، كما سجلت لنا كتب  
الأدب مجموعة لا بأس بها من الأخبار تصور تفاصيل القصة ومدى تعلق  
قيس بلبناه . .

وفى هذه التفاصيل من الضعف والاستخذاء ، ما لا يمكن أن يقبله  
عاشق من عشاق هذا العصر الذين نحاول أن نرسى فى نفوسهم  
الاعتزاز بالنفس وبقيم الرجولة الحق البعيدة عن كل ضعف

واستخذاء . . ولكن تبقى مع ذلك فى القصة قيم إنسانية رفيعة يمكن أن يفيد منها شبابنا ، وهى قيم الوفاء للحبيب ، والحرص على الزوجة ، ومقاومة كل كيد لها ، والإصرار على التمسك بها ورفض الزواج من غيرها رغم أنها لم تنجب . . وفيها كذلك تأكيد واضح للنكبات والويلات التى يمكن أن يجربها تدخل الوالدين فى حياة ابنهما الزوجية . .

\* \* \*

وقد نقل « الدكتور حسين نصار » الأخبار التى روتها كتب الأدب عن « قيس ابن ذريح » ، وجمع الأبيات التى سببت إليه فى هذه الكتب ، وحققها ، وشرح مفرداتها ، وقدم لها بكلمة موجزة عن الغزل فى العصر الأموى ، وأتبعها بمجموعة من الفهارس حقق فيها الأماكن والأعلام ، وختم الكتاب بذكر المراجع والمصادر . .

وقدم بذلك جهدا كبيرا يستحق عليه كل شكر وتقدير ، غير أننا كنا نتوقع منه المزيد من الجهد الخلاق الذى يضيف ويفسر ويؤلف بين العناصر المتفرقة ، ونلاحظ أنه كرر معظم الأخبار التى رويت عن « قيس » مرتين دون داع ، مرة فى الدراسة ، وأخرى مع نص الأبيات ، دون تعديل فى الأغلب . .

أما تحليله لشعر الشاعر فقد جاء سريعا موجزا ، فاكتمنى بأن لاحظ :

● أن القصائد الطويلة تتكرر قوافيها بصورة لافتة سطر ، وأن ذلك دليل على شئ من الضعف فى مقدرة « قيس » الشعرية .



● أن الشعر الذى ينسب إلى قيس ينقسم إلى لونين متميزين :  
شعر فاضت به أحداث الحياة على لسان الشاعر ، وشعر فى البكاء على  
الحبيب المفارق دون أن يرتبط بحادث معين ، وأن شخصية الشاعر  
أوضح فى اللون الأول منها فى اللون الأخير الذى يشتبه فى الأغلب بما  
صدر عن غيره من العشاق . .

● رغم وفرة الشعر الذى عثرنا عليه عند قيس لا نخرج منه  
بصورة واضحة عن « لبنى » ، فهو لم يصفها غير ثلاث مرات ، وكان  
وصفه لها وصفا مجملا قاصرا . .

● ليس فى عبارة قيس ما يميزها على عبارة غيره من الشعراء  
العذريين فى العصر الأموى ، فهو مثلهم صاحب ألفاظ سهلة ،  
وعبارات عذبة ، وأنغام حلوة تغلف مشاعر صادقة وانفعالات حارة ،  
وشعره تلقائى مثل شعر العذريين جميعا ، يتسم بالصدق والحرارة  
والبساطة والتعبير المباشر عما يجد الشاعر .

\* \* \*

وقارىء شعر « قيس بن ذريح » لابد أن يتوقف عند كثير من  
الآبيات الرقيقة العذبة الصادقة الانفعال ، ولكنه ما أن يأتى على الديوان  
كله ، حتى يكون قد اقتنع بأنه لم يكن فى صحبة شاعر كبير ، وأن هذه  
الآبيات لم تكن لتكفى لتخليده لو أنها وصلتنا وحدها دون قصة حبه  
المشبوب . . فهو مدين بالقسط الأكبر من شهرته إلى حبه للبنى ثم  
حرمانه منها ، وما ترتب على ذلك من أخبار تناقلها الرواة عبر الأجيال ،

وصادفت هوى لدى الذوق العربى حتى يومنا هذا . . ولقد صدق  
شاعرنا « عزيز أباظة » حينما وصف هذه القصة بقوله :

بكاء فى قواف عامرات  
سرت فى البيد مشرقة وضاء  
فكن لكل موصول غناء  
وكن لكل مهجور رجاء  
وكن شلى يضوع بكل خدر  
وراحا ينقع المهج الظماء  
( أغسطس ١٩٦٠ )

(٢١)

ابن الدمينه ..  
ديوانه وقصة حياته .

إذا كنا ندعو كثيرا إلى التعرف على ثقافة الغرب في مختلف أصولها ومطائنها ، ونرى في ذلك عاملا جوهريا من عوامل نهضتنا الفكرية ، فإننا لا نستطيع في الوقت نفسه أن نغفل تراث ثقافتنا العربية ، أو نقلل من أهميته في صقل الأذواق ، وتقويم الألسنة ، وردنا إلى عنصر هام من عناصر شخصيتنا القومية كان له أكبر الأثر في تشكيل ثقافتنا بل ثقافة العالم المتحضر كله ويخيل إلى أننا في هذه الفترة بالذات أحوج ما نكون إلى دراسة تراثنا العربي القديم وإحيائه وتقديمه في ثوب محب ، بعد أن أسرفنا كثيرا في الدعوة إلى ثقافة الغرب والأخذ بأسبابها ، حتى استجاب الشباب المثقف إلى هذه الدعوة وأقبل على التهام كل ألوان الثقافة الغربية ومحاولة التعمق في فهمها والإحاطة بمختلف تطوراتها ، وأسرف الكثيرون في هذه الاستجابة حتى أعرضوا عن ثقافتهم العربية إعراضا تاما أو كادوا ، فكان ما نلاحظه كثيرا اليوم من عجز بعض الأدباء الشباب عن التعبير عن أفكارهم تعبيرا عربيا سليما . ولا علاج لهذه الحالة المتفشية إلا بنشر التراث العربي الأصيل نشرا جميلا يجعله في متناول الأجيال الجديدة من المثقفين ويسهل عليهم الاستفادة منه ، فيقبلون عليه ويغترفون من خيراته فتسلم لهم لغتهم ويرتبطون في الوقت نفسه بجذور ثقافتهم الأصيلة ، ويتأكد في نفوسهم جانب هام من جوانب شخصيتهم القومية .

ولعل مما يدعو إلى الأسى حقا ، وإلى الإلحاح في طلب بذل المزيد من الجهود لنشر تراثنا العربي ودراسته ، ما نعلمه جميعا من أن كل ما بين

أيدينا من كتب ودواوين شعر لا يعدو أن يكون جزءا ضئيلا من هذا التراث الضخم الذى ضاع جانب كبير منه ، وما زال جانب آخر ضخم ملقى فى شكل مخطوطات مهملة فى أقبية المكتبات العامة والخاصة ، وإلى هذه الحقيقة يشير الأستاذ المحقق « محمود محمد شاكر » فى تصديره لديوان « ابن الدمينه » فيقول :

« . . . فلئن كانت أحداث الدهر قد عصفت بالخطر الأكبر من تراث سلفنا فى الأدب والعلم والبيان ، فإن الكثير الطيب مما إنتهى إلينا منه لا يزال مشتتا فى مكتبات الشرق والغرب يناهض عوادي الزمن ، ويتنظر العزائم أن تنشط لإحيائه ونشره ، والوفاء بما يجب له من الصون والرعاية » .

وديوان « ابن الدمينه » هو الكتاب الأول من سلسلة « كنوز الشعر » التى تصدرها « دار العروبة » وتقصرها على « دواوين المتقدمين من الشعر وأمّهات كتب الأخبار » ، وهو فى الوقت نفسه وعلى هذه الصورة المحققة شطر من رسالة تقدم بها « أحمد راتب النفاخ » إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة لتلil درجة الماجستير ، و« وأما الشطر الآخر فكان دراسة مطولة للشاعر وللدويوان لم يتح لها أن تنشر بعد » ، ونرجو أن يتاح لها هذا النشر قريبا ، فتتم الرسالة التى يحققها نشر الديوان محققا ، وتعاون قارئه على زيادة فهم الشاعر والإلمام بدقائقه فنه ومدلولاته الاجتماعية والنفسية .

على أن الباحث المحقق كان حريصا على ألا يحرم قارئ الديوان من خلاصة هذا البحث الجامعى الخاص بحياة « ابن الدمينه » وشعره ، فلخصه فى المقدمة ، وأشار إلى أهم النتائج التى انتهى إليها ،

كما أثبت في الديوان فصلا كاملا من هذا البحث ، وهو الفصل الخاص  
« بحياة ابن الدمينه » .

ومن أهم النتائج التي انتهى إليها المؤلف في بحثه ذاك « أن شعر  
ابن الدمينه لم ينته إلينا بتمامه ، بل أصاب الضياع طرفا منه » ، وأن  
الغالب على هذا الشعر الذي وصلنا هو « المقطعات القصار ، ولكنه  
لا يخلو من قصائد يلحق بعضها بالمطولات ، وأن معظم ما قاله « ابن  
الدمينه » كان في النسيب ، وهو الغرض الذي تفوق فيه بصورة ملحوظة  
ولولاه « لما عرف في تاريخ الأدب العربي ولما ذكر » .

وإذا كان بعض شعر « ابن الدمينه » قد فقد ، واختلط بعضه الآخر  
بشعر شعراء آخرين ، فإن ما وصلنا من شعره مع ذلك أكثر بكثير مما  
نعرفه عن سيرته وحياته ، فمحقق الديوان يشير في مقدمته إلى أن مجموع  
ما وصلنا عنه من أخبار في مختلف المصادر « يسير لا يفي بحاجة  
الباحث ، ولا تنتج منه سيرة كاملة أو شبه كاملة ، ومن ثم فقد تخلل  
حديثي عن حياته ثغرم لم أجد سبيلا إلى ملئها لقله ما بأيدينا من أخباره »

وحق هذه الأخبار القليلة التي وصلتنا عن « ابن الدمينه » يشوبها  
كثير من الخلط والتناقض ، بحيث لا تكاد تجمع على حقيقة واحدة من  
الحقائق المتصلة به ، بما في ذلك نسبه ومكان إقامته وعصره . وقد أورد  
المحقق كل هذه الروايات ونفى بعضها ورجح البعض الآخر ، وانتهى  
من كل ذلك إلى تعريف لا بأس به بحياة الشاعر ، فخلص إلى أنه « قد  
سلخ من حياته زهاء نصف قرن في العصر العباسي » ، فالأشبه بالحق -  
في رأيه - « أن يعتبر شاعرا عباسيا محدثا » ، و« أن موطنه إنما كان في

الأصقاع الواقعة جنوبي الحجاز مما يلي اليمن ، فإن أكثر المواضع التي  
لهج بذكرها في أشعاره مما يقع في تلك الجهات وما والاها . »

وتبقى بعد ذلك بضع حقائق أخرى عن « ابن الدمينه » أجمعت  
عليها معظم الروايات أو كادت. ، وإن اختلفت مع ذلك في تفصيلاتها  
فمن ذلك أنه كان من لصوص البادية الخارجين على القانون ، وأنه  
ضرب وعوقب وسجن من أجل ذلك غير مرة ، وأنه كان قويا شجاعا ،  
جميل السميت ، فصيح اللسان ، وقد ترتب على هذه الصفات أن كانت  
له قصص حب عديدة ، وقد رأينا من قبل كيف كان نسيبه السبب الأول  
في شهرته وذوبوع صيته ، وبقي أن نربط هنا بين علاقاته العاطفية وبين  
هذا النسيب في شعره ، وفي هذا يقول « أحمد راتب النفاخ » :

« وحب ابن الدمينه من أهم ما يعيننا من أحداث حياته ، إن لم  
يكن أهمها على الإطلاق ، فقد كان باعشه الأول على قبول الشعر ،  
وملهمه الأكبر فيما تهيأ له منه . . . »

وإذا كانت علاقات « ابن الدمينه » العاطفية قد تعددت كما تشهد  
بذلك أخباره وشعره ، فإن ثمة علاقة معينة كانت أقوى من سواها ،  
وأكثر سيطرة على قلبه ، وهي علاقته « بأميمة » ، التي يكثر ذكرها في  
شعره ، ويحلوه أن يناديها « بأميم القلب » ، وقد دب بينهما الخلاف ،  
وتدخل الوشاة والحساد ، فأفسدوا ما بينهما ، واضطر إلى هجرها ،  
وأتهمت في حبه ، فدافع عن نفسه - في شعره - بأنه إنما اضطر إلى هجرها  
اضطرارا تجنبنا لعيون الرقباء ، وتداويا من حبها بعد أن برح به

ويبدو أن الخلاف بين العاشقين قد وصل إلى درجة من الحدة

صرفت الشاعر عن حبيبته ، وأياسته من السعادة معها ، حتى لنراه يرفض الزواج منها حينما يعرضه عليه ابن عمها ، ولعل هذا الخلاف المحتدم واليأس الذى ملأ قلب الشاعر كانا السبب فى تعدد صلاته النسائية بعد ذلك ، حتى انتهى به المطاف إلى الزواج من امرأة جميلة تدعى « حماء » ، وهى صاحبة أقل الأسماء النسائية ترددا فى شعره ، وكانت امرأة فاجرة خائنه مع رجل يدعى « مزاحم » . فلما علم « ابن الدمينه » بخيانة زوجته دبر كميناً لعشيقتها وقتله ، ثم خنق زوجته وقتل ابنته منها

وجاء شقيق العاشق المقتول فقتل « ابن الدمينه » ثأراً لأخيه ، ويبدو أن أحد الرواة لم تعجبه هذه الخاتمة الجافة لحياة الشاعر ، فآلقى عليها ظلالاً من الرومانسية الساحرة ، وزعم أنه بعد أن قتل زوجته عاد إلى حبيبة القلب الأولى ، وتزوج « أميمة » وقتل وهى عنده .

ومهما يكن من خلاف حول تفصيلات حياة الشاعر وعلاقاته النسائية ، فالذى لاشك فيه أنها أهمته شعراً غزلياً رائعاً لا نجد ختاماً لحديثنا عنه وعن ديوانه أفضل من أن نورد مختارات قليلة منه ، راعينا فيها السهولة قدر الإمكان ، مع الجمال والعذوبة ، وعلى القارئ الذى يغمض عليه معنى إحدى الكلمات أن يجهد نفسه بعض الشيء ويرجع إلى قواميس اللغة وهى كثيرة ، ويحاول أن يدرب نفسه على استعمالها ليكمل تذوقه لهذا الشعر الجميل . .

« قفى يأميم القلب نقض لبانة  
ونشك الهوى ثم افعل ما يبد لك

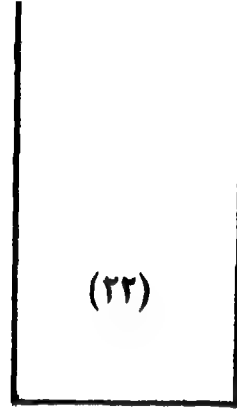


سلى البانة الغشاء بالأبطح الذى  
 به الماء هل حييت أطلال دارك  
 وهل كفكت عيناي فى الدار عبرة  
 فرادى كنظم اللؤلؤ المتهالك  
 فيابانة الوادى أليست مصيبة  
 من الله أن تحمى علينا طلالك  
 ويابانة الوادى أثيبى متيها  
 أخا سقم لبسته من حبالك  
 وكلفتني من لا أطق كلامه  
 نهارة ولا ليلا ولا بين ذلك  
 هويت ولم تهوى وكنت ضعيفة  
 فهذا بلاء قد بليت بذلك  
 وأذهب غضباننا وأرجع راضيا  
 وأقسم ما أرضيتني بين ذلك  
 يقولون : ذرها واعتزلها ، وإنما  
 يساوى ذهاب النفس عندى اعتزالك

عدمتك من نفس فأنت سقيتني  
 كؤوس الردى فى حب من لم يبالك  
 ومنيتني لقيان من لست لاقيا  
 نهاري ولا ليلى ولا بين ذلك  
 فما بك من صبر ولا من جلادة  
 ولا من عزاء فماهلكى فى الهوالك  
 ليهنك إمساكى بكفى عن الحشا  
 وإزراء عيني دمعها فى زبالك

ولو قلت : طأ في النار أعلم أنه  
هدى منك لي أوعية من ضلالك  
ويسقى محب من شرابك شربة  
يميش بها إذ حيل دون حلالك  
أرى الناس يرجون الربيع وإنما  
رجائي الذي أرجو جدا من نوالك  
أبيي : أن يني يديك جمعتني  
فأفرح أم صيرتني في شمالك  
لئن ساء أن نلتني بمساءة  
لقد سرن أن خطرت ببالك  
ومن أجل قصائد الديوان تلك القصيدة القصيرة  
التي يقول الشاعر فيها :

« دعوت إله الناس عشرين حجة  
نهارا وليلا في الجميع وخاليا  
بأن يبتلى ليل بمثل بليتي  
فينصفني منها لتعلم حاليا  
فلم يستجب لي الله فيها ولم يفتق  
هوأي ولكن زيد حتى يراني  
ليارب حبيبي إليها واشفني  
بها أو أرح مما يقاسي فؤاديا »  
( يناير ١٩٦٢ )



عمر الخيام ..

بين التصوف والمجون

ما أكثر ما تحدث المؤرخون عن ذلك العالم النيسابورى ونسبوا إليه  
أروع الصفات وأعجب الروايات ، فهو الذى وضع - مع عدد من  
العلماء - التقويم الفارسى الذى يبدأ بعيد النيروز ، وهو الذى كان  
يشفى أمراضا مستعصية عجز الأطباء عن علاجها ، وهو الذى  
استطاع أن يتنبأ بأحوال الجو لخمسة أيام مقبلة بدقة لا يعرفها علماء  
الأرصاد الجوية إلى اليوم ، فاذا ما قلت لك بعد هذا إن عالمنا ذاك لم  
يصل إلينا من مؤلفاته العديدة إلا كتاب واحد فى الجبر ترجم فى مستهل  
هذا القرن إلى اللغة الفرنسية ، وأن شهرته الكبيرة التى يتمتع بها فى  
أرجاء العالم إلى اليوم لا ترجع إلى علمه ولا إلى هذا الكتاب الصغير فى  
الجبر ، وإنما ترجع إلى مجموعة من الأشعار العاطفية الرقيقة التى ما زلنا  
جميعا نعجب بها ، ونلجأ إليها فى ساعات صفونا أو ضيقنا نلتمس فيها  
شيئا من عزاء - إذا قلت لك ذلك فلن تصدقنى ، إلا إذا أكدت لك أن  
عالمنا النيسابورى ذاك ليس سوى « غياث الدين عمر أبو الفتح ابن  
ابراهيم الخيام » الذى نعرفه باسم « عمر الخيام » صاحب الرباعيات  
المشهورة التى ترجمت إلى جميع اللغات الحية ، وغنت « أم كلثوم » منذ  
بضعة أعوام مختارات منها .

إنها حقيقة غريبة أن يكون « عمر الخيام » ذلك الشاعر الشفاف  
الروح هو نفس ذلك العالم الكبير وأعظم رياضى فى عصره ، ولا يمكننا  
تصور مدى الغرابة فى ذلك إلا إذا تصورنا مثلا أن « اسحاق نيوتن » هو

مؤلف « الكوميديا الإلهية » وليس دانتى ، أو أن « أينشتين » قد خلف لنا مع نظريته فى النسبية ديوان شعر فى الغزل !!

\* \* \*

وكتب التاريخ لا تروى لنا الكثير من حياة عمر الخيام ، فهو قد ولد فى نيسابور حوالى سنة ١٠٤٠ م ، وكان أبوه صانع خيام فاشتق اسمه من حرفته .

وكان عمر الخيام يدرس أثناء صباه مع صديقين حميمين ، تعاهد ثلاثتهم على أن من يواتيه الحظ منهم أولاً يقوم برعاية زميله . فلما واثق الحظ أحدهم وارتفع إلى منصب الوزارة فى الدولة وهو « نظام الملك الطوسى » ، سعى إليه الصديقان الآخران ، « عمر الخيام » و « حسن الصباح » ، فأكرمهما الوزير وسألها عما يطلبان ، فقال حسن الصباح : « أريد أن أهتم بأشغال الدنيا » فعينه الوزير فى منصب كبير ، وظل يتقلب فى المناصب ويحوك المؤامرات كى يحقق طموحه فى المجد والسلطان مما لاشأن لنا به ، ويكفى أن نعلم أن « حسن الصباح » هذا كان رأس الدعوة الاسماعيلية المعروفة التى يتزعمها الآن أغاخان . .

أما عمر الخيام فقد قال للوزير : « دعانى إلى قصدك أن تيسر لى سبيل الرزق فى نيسابور فلا أفكر فى أمور الدنيا » . فخصه الوزير بمائتين وألف مثقال من الذهب يتقاضاها من بيت المال كل عام . فأمن بذلك عيشه ورزقه ، وظن أنه سينعم بحياة وادعة هائلة لا يعكر صفوه فيها معكر ولا يشغل باله هم .

وإذا كانت كتب التاريخ لا تروى لنا بعد ذلك الكثير عن حياة الخيام وأحواله ، فإن رباعياته نفسها تحدثنا بالكثير ، فقارىء الرباعيات يحس فيها بروح العالم دائمة البحث والتساؤل تسرى في الكثير من أبياتها ، فالخيام الذى ظن أنه آمن مشاكل العيش والرزق لم يكف عن التفكير في شئون الدنيا كما كان يظن ، بل لقد أتاح له هذا الفراغ من مشاغل الحياة اليومية ومتاعب طلب الرزق أن يتفرغ للتفكير في أمور الحياة وأسرار الكون ، وأن يطيل التفكير والتأمل والتساؤل :

أفريت عمرى فى آكتناه القضاء  
وكشف مايجب فيه فى الخفاء  
لم أجد أسرارہ وانقضى  
عمرى وأحسست بدبيب الفناء  
ويقول فى رباعية أخرى :

أحس فى نفسى دبيب الفناء  
ولم أصب فى العيش إلا الشقاء  
ياحسرتنا إن حان حينى  
ولميتح لفكرى حل لغز القضاء

هذا البحث المتصل ، وهذا التأمل الطويل فى محاولة حل لغز القضاء ، واكتناه أسرار الحياة ، يعبر فى نغمته العامة عن ثورة عقل كبير على التقاليد الدينية التى كانت تسود مجتمعه ، وزاد من تأجيج هذه الثورة ما كان يلمسه من ضيق أفق رجال الدين وتعصبهم ونفاقهم للحاكمين وخداعهم للجماهير . وهو فى تأمله وتفكيره وثورته يخوض آفاقا محفوفة

بالمخاطرة ولا يستطيع أن ينتهى إلى أرض صلبة تطمئن إليها نفسه ،  
شأنه في ذلك شأن الكثيرين من كبار العلماء والمفكرين الذين تعمقوا في  
دراسة طبيعة الكون والوجود بروح العلم الجامدة والمنطق المجرد فتكون  
النتيجة أن يفقدوا صلتهم بذلك العالم الروحي الكبير الذى نسميه  
الدين ، والذى لا نستطيع الولوج فيه والثقة به ، إلا عن طريق عواطفنا  
واحساساتنا التى كثيرا ما يسفها العلم ويرفضها .

ويكاد الخيام أن يكون الوحيد بين علماء العالم الذى استطاع أن  
يسجل هذه الخواطر المضطربة الحائرة في شعر إنسانى خالد ، اسمعه  
يقول :

لبست ثوب العيش لم أستشير  
وحررت فيه بين شتى الفكر  
وسوف أنضو الثوب عنى ولم  
أدرك لماذا جئت . أين المقر  
لم يبرح الداء فؤادى العليل  
ولم أنل قصدى وحن الرحيل  
وفات عمري وأنا جاهل  
كتاب هذا الدهر جم الفصول

\* \* \*

أما أكثر ما حير « الخيام » من أمر الحياة فهو ذلك الفناء السريع  
الذى يدب في كل ما حوله . كان يحب الجمال في كل مظهره ويحسه  
في جميع أشكاله ، ولكنه كان يرى أن كل ما حوله من جمال سرعان  
ما يذبل ويدب فيه ويعتوره الفناء فسيطر عليه إحساس قوى بقصر

الحياة . وإذا كانت الحياة قصيرة هكذا ، وهو لم يستطع أن يبتدى إلى أسرار ما بعد الحياة اعتداء يطمئن إليه اطمئنانا كاملا بعقله الدائم البحث والتساؤل - أفليس من المحتمل أن يكون القبر هو نهاية كل شيء ، وهو المصير والمآل ولا شيء بعده ، فلماذا لا يقبل إذن على الحياة يعب منها بكل قواه ، ويغترف من لذاتها اغترافا في الأيام أو اللحظات التي قدر له أن يعيشها ؟ وفي الخمر متعة لا تعد لها متعة ، ومهرب لا مثيل له من حيرته الهائلة وإحساسه الضخم بضآلته وتفاهة كل القيم من حوله :

تنائرت أيام هذا العمر  
تنائرت الأوراق حول الشجر  
فانعم من الدنيا بلذاتها  
من قبل أن تسفيك كف القدر  
أطفئ لظى القلب ببرد الشراب  
فلنمجا الأيام مثل السحاب  
وعيشنا طيف خيال  
فنل حظك منه قبل فوت الشباب

والخيام لا يمضي في شكه وحيرته كثيرا وهو على هذه النفس الشاعرة الحساسة ، بل كثيرا ما يعود إلى حظيرة الإيمان يستغفر عن آثامه ويرجو الله العفو عن ذنوبه في نفحة عذبة مخلصه تصل في كثير من الرباعيات إلى مرتبة قريبة من التصوف والحب الإلهي والفناء في ذات الخالق :



إن تفصل القطرة من بحرهما  
 ففى مداه منتهى أمرها  
 تقاربت يارب ما بيننا  
 مسافة البعد على قدرها  
 ، يا عالم الأسرار علم اليقين  
 ياكاشف الضر عن البائسين  
 يا قابل الأعذار فثنا إلى  
 ظلك فاقبل توبة التائبين

\* \* \*

وهكذا تزخر رباعيات « الخيام » بشتى المعاني والأحاسيس  
 والعواطف الإنسانية العميقة . . تحس بين سطورها نشوة الخمر  
 والتماعة عيون الغيد . . وابتسام الزهور ، واهتزاز الأفنان ، وشدو  
 العندليب . . ونغما ساحرا ساخرا عذبا فيه مزيج من الحكمة والإيمان  
 والتصوف مع الزندقة والمجون والإلحاد المستهتر . . حتى لقد اختلط  
 الأمر على دارسيها فممنهم من اعتبر الخيام ماجنا عرييدا ملحدا ،  
 ومنهم من أكد أنه فيلسوف متصوف ، عاش مؤمنا ومات مؤمنا ،  
 وحجتهم في ذلك ما رواه « السهروردي » في كتابه « نزهة الأرواح » عن  
 وفاته فقال :

« وحكى أن عمر الخيام كان يتأمل الإلهيات في كتاب الشفاء لابن  
 سينا ، فلما وصل إلى فصل الواحد والكثير وضع الكتاب وقام وصلى ثم  
 أوصى ولم يأكل ولم يشرب ، فلما فرغ من صلاة العشاء سجد لله وقال في  
 سجوده : « اللهم إني عرفتك على مبلغ امكانى فاغفر لى فإن معرفتى  
 إياك وسيلتى إليك » ، ثم أسلم نفسه الأخير .

ومن الذين اعتبروا الخيام مؤمنا الشاعر العراقي المعاصر « أحمد الصافي النجفي » الذي ترجم الرباعيات من الفارسية إلى العربية ، وما قاله في هذا الشأن في مقدمة ترجمته : « إن دعوة الخيام لا رتشاف الخمر ليست إلا وسيلة لعرض فلسفته وحلية لتجميل تشاؤمه وبجلا لصب نقمته ونقد مجتمعه » .

وسواء أصبح هذا الرأي أم ذاك ، مات الخيام وهو على سجادة الصلاة أم إلى جوار غانية وزق خمر ، فإن الرباعيات الخالدة ستظل دائما - على حد تعبير « فيتزجرالد » - « أجمل تعبير عرفته الانسانية عن حالة ذهنية كثيرا ما تسيطر على العباقرة خلال تاريخ البشرية الطويل من أيام أنكسو جوراس إلى دارون وسبنسر »

وقد عبر الشاعر الانجليزي الكبير « كيتس » عن إحساسه حينما قرأ الرباعيات لأول مرة فقال : « لقد أحسست وكأنني أحد راصدى النجوم أرقب في السماء كوكبا جديدا هائلا لا يسبح على مدى البصر . »

\* \* \*

وفي رأيي أننا لا نستطيع أن نعتبر الخيام متصوفا ولا أن نعتبره ماجنا عربيدا ، وذلك أن الفاصل بين التصوف والعريضة يكون في كثير من الحالات من الرقة والدقة بحيث يسهل على النفوس الكبيرة أن تتجاوز حجة وذهاباً ، وتظل تتأرجح بين التصوف والعريضة على النحو الذي نلمسه عند الخيام من خلال رباعياته . وما ذلك إلا لأن كلتا الحالتين نشوة في الحواس تشف فيها النفس وترق المشاعر وتصفو إلى أبعد حد فترفع الحواجز بين الإنسان ومكنونات نفسه ..

ويؤكد هذا الرأى أن الرباعيات التى بين أيدينا لم تكتب فى وقت واحد وإنما كان الخيام يقوها فى خلواته وفى لحظات صفائه فى فترات متباعدة ، وأن كل واحدة تعبر لذلك عن حالة نفسية مستقلة قائمة بذاتها . وكان الخيام ينشدها لأصحابه فى المجالس فتحفظ ويتناقلها الناس ، ولكن يبدو أن أحدا لم يفكر فى تسجيلها وجمعها فى كتاب ، ربما بسبب ما فيها من آراء متحررة جريئة . وعلى كل حال فأقدم مخطوط عثر عليه للرباعيات يرجع إلى سنة ٨٦٥هـ أى بعد وفاة الخيام بنحو ثلاثة قرون ونصف قرن ، ومن المحتمل مع هذا الزمن الطويل أن يكون قد أصابها بعض التحريف أو دس عليها الكثير مما لم يقله الخيام ، خاصة وقد وجدت أختلافات كثيرة بين هذا المخطوط وبين المخطوطات الأخرى التى عثر عليها بعد ذلك .

وقد ظل هذا الكنز الأدبى الثمين مجهولا إلى ما يقرب من قرن مضى حينما عثر أحد العلماء على نسخة من مخطوطة شعرية باللغة الفارسية فى إحدى مكتبات « أكسفورد » فأعطاهما للشاعر الانجليزى « ادوارد فيتزجيرالد » الذى أعجب بها ودرسها وأخرج أول ترجمة لها إلى اللغة الانجليزية عام ١٨٥٩ .

ومنذ ذلك الوقت توفر عدد كبير من الأدباء والشعراء على دراسة الرباعيات وترجمتها إلى مختلف اللغات الحية . ويكفى أن نعلم أنها ترجمت إلى اللغة العربية وحدها أكثر من عشر ترجمات ما بين شعرية ونثرية أهمها ترجمة الشاعر المصرى الكبير « أحمد رامى » التى نعرفها جميعا ، وقد ترجمها أثناء دراسته للغة الفارسية بمعهد اللغات الشرقية بباريس ، وترجمة الشاعر العراقى « أحمد صافى النجفى » ، فهى

الأخرى عن الأصل الفارسي مباشرة ، وليست عن الإنجليزية ومثل  
ترجمة الاستاذ وديع البستاني وغيرها . ومع أن ترجمة « النجفي »  
للرباعيات ليست منتشرة انتشار غيرها من الترجمات فإن كثيرا من  
الباحثين يعتبرونها أصدق الترجمات العربية وأقربها للأصل الفارسي ،  
فقد أقام « النجفي » في طهران ثمانى سنوات كاملة تفرغ خلالها للدراسة  
اللغة الفارسية والأدب الفارسي قبل أن يقدم على ترجمتها . ومعروف  
بعد ذلك أن شاعريته لا تتسامى إلى منزلة الخيام ، وقد أدرك هو نفسه  
هذه الحقيقة فلم يسمح لمواهبه الشعرية بأن تطفئ على عمله كمترجم  
في أى موضع ، فجاءت الترجمة أقرب ما تكون إلى الأمانة العلمية .  
ولا نستطيع أن نقول نفس الشيء عن شاعرنا المصرى الكبير رامى ،  
فترجمته رغم روعتها وجمالها فإن الباحث يستشعر في كثير من مواضعها  
بأنفاس « رامى » ترد إلى جانب أنفاس « الخيام » ، بل إن رامى نفسه  
يقول في مقدمته : « فحسبته وأنا أترجمها أنظم رباعيات جديدة أودعها  
حزنى على أخى الراحل فى نضرة الشباب وأصبر نفسى بقرضها على  
فقدته »

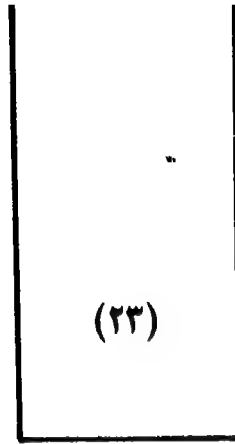
وهذا رأى لا يقلل بحال من ترجمة رامى للرباعيات ولا للجهد  
الكبير الذى تجشمه فى ترجمتها حتى أصبحنا جميعا لا نكاد نعرف الخيام  
إلا عن طريق رامى وترجمته .



ويعد . . . لقد روى عن الخيام أنه قال ذات مرة : « سيكون  
قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه كل ربيع » . ولسنا نعلم إن كانت

هذه النبوءة قد تحققت بشكلها المادى أم لا ، ولكن الذى نعلمه أن  
ملايين الأزهار تنتثر كل ربيع بالفعل بل وكل ساعة على قبر ذلك  
الشاعر الكبير ، تشرها ملايين الأرواح الحساسة التى وجدت فى شعره  
السلوى والحكمة والعزاء فيما تلاقيه فى الحياة من متاعب وآلام ..  
وليكن هذا المقال الصغير .. زهرة من ملايين الزهور التى تتناثر على قبر  
الخيام مع كل شروق وغروب ..

( نوفمبر ١٩٥٧ )



ثورة المتنبى

« يقولون لى : ما أنت فى كل هلدة ؟ »

وما تبتغى ؟ .. ما أبتغى جل أن يسمى ؟

فلنواجه الواقع ، ولنسلم بأن شعرنا العربى القديم قد بات غريبا بيننا .. بعيدا عن أذواقنا .. صعبا على أفهامنا ... حتى لكأنه كتب بلغة غير لغتنا !

ومستولية هذه الغربة تقع بالدرجة الأولى على المتخصصين فى الأدب العربى ، وطريقة تدريسهم له فى مدارسنا وجامعاتنا .. واكتفاء كثرهم بالدراسات التفصيلية المتقكرة ، دون محاولة جادة لتبسيط هذا الأدب وتيسيره على غير المتخصصين بأساليب محبة شيقة تسهل فهمه وتدعو للإقبال عليه ..

والنتيجة هى ما نلمسه بوضوح من اتساع الهوة بين الأجيال الطالعة وتراثها ، فى الوقت الذى تعمل فيه أجهزة الإعلام الرسمية بدأب ، وهى لسوء الحظ شديدة الانتشار ، قوية التأثير ، على توسيع تلك الهوة بما تقدمه من غثائات وإسفافات لا صلة لها بأدب أو فن .. تهبط بلغة الحديث اليومى وتهجنها بدلا من أن تنقيها وترتقى بها .

فإذا تذكرنا أن اللغة العربية هى أهم مقومات قوميتنا العربية .. وأن الحاجة قد أصبحت ماسة إلى تأكيد هذه المقومات وترسيخها فى نفوس أبنائنا .. أدركنا أهمية إعادة تقديم شعرنا القديم الذى يمثل الجانب الأكبر والأهم من تراثنا اللغوى ، بأساليب حديثة تلائم العصر ، وتبرز ما فيه من نماذج إيجابية ، وقيم إنسانية ، وإبداعات فنية .. لكى لا تبت صلة الأجيال الطالعة بتراثها ولغتها .. ومن ثم بقوميتها الواحدة ..

قد يضيق الشباب - ومعهم الحق - بما يثقل الشعر العربى القديم من مدائح لا حصر لها ، ويرون فيها أدبا مصنوعا يمتن قداسة الكلمة وشرفها

ويحولها إلى سلعة للكسب كأي سلعة أخرى ، ويعتمد على المبالغات اللفظية والبلاغية ، ويفتقر إلى الصدق الفني والنفسي ، وكلاهما مرتبط بالآخر ، ومن ثم يفقد أهم عناصر البقاء والتأثير في القارئ . .

هذه النظرة إذا صدقت على نسبة كبيرة من شعر المديح ، فإنها لا تصدق عليه كله ، فهو لا يخلو من نماذج جيدة لو درست في إطار الأوضاع الاجتماعية المحيطة ، لوضح كيف استطاع الشاعر العربي القديم أن يبدع في هذا الفن العسير ، ويقدم إلى جوار المدح ، ومن خلاله ، صورا صادقة للحياة ، ونظرات حكيمة نافذة إلى حقائقها ، ولم يقتصر على مجرد ذكر مناقب الممدوح . .

فقد أدرك ذلك الشاعر بحسه الدقيق مدى ضيق النفوس بكلمات الثناء والمدح ، فحرص على أن يستهل قصيدة المدح بالبكاء على الأطلال أو الغزل ، أو وصف الصيد والطراد ، أو تصوير رحلته الطويلة إلى مقر الممدوح . . وكلها أغراض تميل إليها النفوس ، وتتيح للشاعر فرصة الإجابة والإبداع . . حتى إذا اطمأن إلى استثارة باهتمام سامعيه انتقل برشاقة وبراعة إلى موضوعه الأصلي ، وهو مدح هذا الأمير أو ذاك الشري ليفوز بعطائه ، وإلا فمن أين يعيش . . والمطابع وأجهزة الإعلام لم تكن قد عرفت بعد ؟ . . هذا إذا تصورنا أن هذه الأجهزة قادرة حتى اليوم على أن تكفل الحياة الكريمة لشاعر حر الكلمة لا يعبر إلا عما تحيish به نفسه ، ولا ينافق حاكما أو نظاما !!

وإذا كان بعض شعراء المديح قد هبطوا بفهم إلى مستوى قريب من التسول فإن بعضهم الآخر قد عرف كيف يحافظ على كرامته . . بل منهم من بالغ في ذلك ، وعرف كيف يسمو بموهبته ، ويدفع الحكام والأمراء إلى مطاردته لينشدهم قصيدة مدح ، تعل شائهم ، وتثبت حكمهم . . في زمن لم



يعرف من وسائل النشر والإعلام أقوى من لسان الشاعر المشهور ، الذى يتناقل الرواة شعره ، فيتشرب بين خاصة الناس وعامتهم ..

كذلك ليست كل قصائد المدح فى الشعر العربى ، وهى تمثل جانبا كبيرا منه ، مصنوعة متكلفة ، فمنها ما عبر عن إحساس صادق للشاعر نحو ممدوحه ، ومنها ما نشد فيه مثلا أعلى ، بل منها ما ارتفع إلى مستوى الشعر السياسى القومى .. وفى شعر المتنبى نماذج جيدة لذلك كله ، ومن ثم فإن دراسة قصائد المديح فى ديوانه كفيلة بأن تقدم تطبيقا عمليا على صدق ما ذهبنا إليه فيما سبق ..

إن المتنبى من أعظم شعراء العربية ، إن لم يكن أعظمهم جميعا .. كتبت عنه دراسات عديدة ، لم يحظ بمثلها شاعر عربى آخر .. حتى ليصدق عليه وصف « ابن رشيق القيروانى » من أنه الشاعر الذى « ملأ الدنيا وشغل الناس » .. وما زال يشغلهم إلى اليوم . وما نطن إلا أنه سيظل يشغلهم حتى يوم الدين .. لما فى شعره من أصالة وقوة ، ولما فى حياته من مغامرات مثيرة ومخاطرات عنيفة .. وما يحيط بنسبه وطفولته وقرمطته وأدعائه النبوة من غموض وروايات متعارضة .. ولما جعلت عليه نفسه من عنف وكبرياء وطموح وتعقيد ، قل أن نجد نظيرا له أو قريبا منه لدى أى شاعر آخر ..

على أن المتنبى لم يعيش أكثر من ألف عام بعد وفاته بشرف نسبه أو وضاعته .. ولا بمغامراته وأدعائه النبوة ، ولا بتعقيد نفسه وعنف كبريائه .. ولكنه عاش هذا الدهر .. « وملأ الدنيا وشغل الناس » بشعره وحده .. الذى ما زلنا نفهمه بسهولة بعد كل هذه القرون فى كل أقطار العربية ؛ ونجد فيه متعة فنية خصبة ، ونزداد من خلاله فهما لأنفسنا وللحياة المحيطة بنا ، ونتعرف فيه على جوانب عديدة من حياة الشاعر وتقلبات نفسه

وطموحاتها وأهوائها . . بالإضافة إلى الصورة الصادقة التي يعكسها للعصر الذى عاش فيه باضطراباته السياسية والفكرية والدينية . . ولذلك فإن ديوان الشاعر ينبغى أن يكون هو المصدر الأول - وأكد أقول الوحيد - لفهمه ودراسته . .

وبالرغم من كثرة ما كتب عن المتنبي فإنه قليل بالنسبة لعظمة فنه ، ولو أنه ظهر لدى إحدى الأمم السابقة فى الحضارة لكان له شأن آخر ، ولكتبت عنه مئات الدراسات المطولة والموجزة ، ولأعيد طبع ديوانه - كاملا ومختصرا ومشروحا - مرات عديدة ، ولأصبحت حياته الثرية موضوعا للعديد من القصص والمسرحيات والأفلام وكتب الأطفال ، حتى يتحول إلى جزء حى متجدد من حياة الأمة . . بل حياة الثقافة الانسانية كلها . .

إن مجرد حصر الكتب التى ألفت عن شكسبير الإنجليزى يتطلب مجلدا ضخما ، بل عدة مجلدات . .

وعلى كثرة ما كتب عن المتنبي - على الأقل بالمقارنة بغيره من الشعراء العرب وأعلامهم ، وعلى أهمية بعضه ونضجه ، فما زالت فى حياة الشاعر الكبير وأغوار نفسه وأسرار فنه أبعاد أخرى بحاجة إلى مزيد من التوضيح والتحديد والتأكيد .

لقد تحمس له بعض الدارسين ، وأخذوا يدافعون عنه وينافحون - كما فعل العقاد مثلا - حتى لكأنهم موكلون برد اعتباره أمام محكمة التاريخ ، فى حين تعالى عليه بعضهم الآخر ، وبالعوا فى السخرية منه ومن مواقفه كما فعل طه حسين . . وقل من نظر إليه نظرة موضوعية منصفة . . لا تحصر على تبرئة ساحته أو اتهمه ، وإنما ترى العيوب والهنات بنفس الأمانة والحرارة اللتين تسجل بهما الأجداد ومواضع الفخار . . لأن هدفها هو تقديم صورة

إنسان من البشر ، سما به فنه إلى مكانة الخلود ، ولم تسم به إلى تلك المكانة أخلاقه أو مثله العليا . .

ولا تطمح هذه الدراسة إلى تقديم هذه النظرة الموضوعية للشاعر . . غاية أملها تحقيق لمحة منها . . وأهم من ذلك أن توفق إلى تصحيح تلك الصورة الغائمة الشائنة التي رسمتها في الأذهان بعض المختصرات المدرسية لشاعر موهوب حول فنه العظيم « إلى دكان شعر » ، بضائعه مباحة لكل من يملك بضعة دراهم . . وأن تحرك في الشباب الرغبة في مراجعة ديوانه بمزيد من التقدير والفهم لتلك النفس الكبيرة ، والظروف العائرة التي وضعتها في غير مكانها ، وحملتها آلاما وعذابات لم تنقضى ، فاضطرتها إلى صنوف من الهوان ، ولكنها لم تلن مع ذلك ولم تضعف أو تكل من السعى الدائب لتحقيق أهدافها ، ولم تكف عن الغناء المشجى بكل تلك الطموحات والآلام في نغم رصين معجز أجبر الظروف العائرة على أن تنحني أمام إرادته ، وأجبر الناس في حياته وبعد مماته على الاعتراف بموهبته الخارقة ، ووضعه في مكانة أرفع بكثير مما تمناه لنفسه .

ولو أن تلك الظروف العائرة لانت له وأنالته كل ما طمح إليه من إمارة أو زعامة أو ولاية . . لكان من المؤكد ألا نفوز منه بكل ذلك الشعر الممتاز الذي فجره في نفسه ذلك الصراع العاق بين طموحه الهائل وما قدمته له الأيام بالفعل . . .

« نعد المشرفية<sup>(١)</sup> والعوالي<sup>(٢)</sup> »  
وتقتلنا المنون بلا قتال

---

(١) السيوف .

(٢) الرماح .

ونرتبط السوابق<sup>(١)</sup> مقريبات<sup>(٢)</sup>  
وما ينجين من خيب<sup>(٣)</sup> الليالي  
ومن لم يعشق الدنيا قديما  
ولكن لا سبيل إلى الوصال  
نصيبك في حياتك من حبيب  
نصيبك في منامك من خيال  
رمان الدهر بالأرزاء حتى  
فؤادي في غشاء من نبال  
فصرت إذا أصابتني سهام  
تكسرت النصال على النصال  
وهان على لما أبالي بالرزايا  
لأن ما انتفعت أن أبالي

فلو أن نفسا هشة التكوين تعرضت لعشر معشار ما تعرضت له  
نفس المتنبي القوة المتحدية لتحطمت دون أن تخلف بيتا واحدا من  
تلك الثروة الشعرية الضخمة التي أبدعها .

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا  
والبين جار على ضعفى وما عدلا  
« أوانسا في بيوت البدو رحلى  
وأونة على قتند<sup>(٤)</sup> البعير  
أعرض للرماح الصم<sup>(٥)</sup> نحري  
وانصب حر وجهى للهجير

(٣) خداع .

(٢) سريعة

(١) الحيل

(٥) الصلبة .

(٤) خشب الرحل

نقل في حاجة لم أقص منها  
 - على شففى بها - شروى نقير  
 ونفس لا تجيب إلى خسيس  
 وعين لا تدار على نظير  
 وقلة ناصر جوزيت عني  
 بشر منك ياتر الدهور  
 عدوى كل شيء فيك حتى  
 لملت الأكم<sup>(١)</sup> موفرة الصدور  
 فلو أن حسدت على نفس  
 لجدت به لدى الجحد العثور  
 ولكنى حسدت على حيات  
 وماخير الحياة بلا سرور .

إن كاتبى سيرته مجمعون على أنه نشأ فقرا مجهول النسب ، أو على الأقل متواضع النسب مما لا يدع له مجالا للفخر به ، وقيل إن أباه كان سقاء بالكوفة يدعى « عبدان » . وديوان شعره على كثرة ما حفل به من الفخر ، يخلو من بيت واحد يفخر فيه بأبيه أو أهله ، إلا أن يكون عاما مجعلا ، يخلو من الأسماء أو الصفات الخاصة ، كقوله :

« إني لمن قوم كان نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما » بل إنه يقرر أنه يرفض الفخر بأهله ونسبه ، كما هو شائع لدى العرب :

« لا بقومى شرفت بل شرفوا بى ، وينفى فخرت لا بجودى . »  
 وفي مراثيه الرائعة لجده لم يذكر أباه أو أهلها ، بل جعل نفسه مصدر فخارها :

---

(١) جمع أكمة وهي التل .

« ولو لم تكونى بنت أكرم والد  
لكان أباك الضخم كونك لى أما

ولابد أن هذا الغموض الذى أحاط بنسب المتنبي قد أثار فضول  
الكثيرين أثناء حياته ، خاصة وقد أحاطت به العداوات والخصومات فى  
كل مراحل حياته ، فأخذوا يبحثون ويتحرون ، فلم يجيبهم إلى  
سؤلهم ، بل تحداهم بهذا البيت :

« أنا من بعضه يفوق أبا الـ  
باحث ، والنجل بعض نجله »

ولعل المتنبي أن يكون الشاعر العربى الوحيد الذى لا تكاد تخلو  
قصيدة من مدائحه من فخر بنفسه وبعظمة شعره ، باعتداد قد يتجاوز  
الحدود المألوفة ، فإذا به يغضب الممدوح بدلا من أن يرضيه . أفليس  
هو القائل فى حضرة « سيف الدولة » حين تعرض لسخرية بعض  
الحاضرين :

« سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا  
بأننى خير من تسمى به قدم  
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدب  
وأسمعت كلمات من به صمم .

كما قال فى مدح عضد الدولة :

« فلما أنخنا ركزنا الرماح  
بين مكارمنا والعمل

وبتنا نقبل أسيافنا  
ونسحها من دماء العدا  
لتعلم مصر ، ومن بالعراق  
ومن بالعواصم أنى الفتى  
وأنى وفيت وأنى أبيت  
وأنى عتوت على من عتا .

وعندى أن هذا الإسراف الشديد فى فخر المتنبي نفسه مرتبط أوثق  
الارتباط بنشأته الفقيرة ونسبه المتواضع ، وهو المفتاح الرئيسى لفهم  
تكوينه النفسى وأهم مواقفه وتصرفاته ، مما انعكس بوضوح فى شعره .  
لا جدال حول تفوق موهبته الشعرية ، وفى ديوانه عدة نماذج لشعر  
جيد قاله وهو شاب صغير ، ونلمس فيه أيضا تطورا ملموسا نحو  
الإجادة والامتياز واتساع آفاق التعبير مع تقدمه فى السن . وهو ما يؤكد  
أنه لم يركن إلى موهبته وحدها ، بل داوم على صقلها وتنميتها بالدرس  
والاطلاع . . فنحن نعلم أن أباه أرسله فى صباه إلى بادية الكوفة ليأخذ  
على أعرابها خبرتهم الدقيقة باللغة والشعر ، ف قضى هناك بضع سنوات  
كان لها أعمق الأثر فى ثقافته اللغوية والأدبية ، بالإضافة إلى إتقانه  
لفنون الفروسية والقتال . . مما وسم شخصيته بطابع القوة والاعتداء  
الشديد بالنفس ، كما أكد فى نفسه اعتزازه بعرويته فى زمن انتشرت فيه  
الأعاجم فى أرجاء الوطن العربى ، ووصل بعضهم إلى أرقى المناصب ،  
حتى تولوا الحكم فى عدد من الولايات ، كمصر وخراسان وبعض ربيع  
الشام . . بل سيطروا على شتون الخلافة فى بغداد ، حتى أصبح الخليفة  
العباسى مجرد لقب بلا سلطات ولا نفوذ . .  
لم يكف المتنبي بهذا القدر من الثقافة الذى حصله فى بادية

الكوفة ، بل ظل طوال حياته يقرأ عدة ساعات قبل أن ينام » وكانت صناديق كتبه التي اختارها بعناية وصححها وشرحها بنفسه تمثل أهم ما يجمعه معه في حله وترحاله . . وجاء عليه وقت استطاع أن ينظر فيه أكبر علماء اللغة ونقاد الأدب ، كابن العميد وابن خالويه والأخفش . . والحاتمي . . وروى أنه قال للأخير مرة : « اللغة مُسلمة لك » ، فرفض الحاتمي هذه المجاملة وقال له : « وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانيها . وما أحد أولى أن يسأل عن غريبها منك » . . »

وراء تلك الجهود الدائبة التي أوصلته إلى هذه المكانة الرفيعة رغبة ملحة في التفوق والتميز أذكأها في نفسه إحساسه المبكر بالاتضاع لفقره وهوان نسبه .

وفي البداية أيضا درس المتنبي مبادئ القرمطية التي نمت في أوساط العلويين بالكوفة ، وهي حركة اجتماعية إصلاحية متطرفة تقول عنها « دائرة المعارف الإسلامية » إن هدفها « هو تحويل واقع جميع الشعائر ، وحتى جميع العبادات التي يزعم أنها إلهية والتي تؤويها الدولة الإسلامية . . إلى عدد من القوانين الإنسانية . . وإلى قواعد اجتماعية عقلانية موثوقة على منح البشر كافة السعادة على الأرض ، وذلك بصهر الأديان باعتبارها أنانية بسيطة . . »

تمحضت تلك الحركة عن عدة ثورات عنيفة في أواخر القرن الثالث ، فلما سحقها الحكومة عادت إلى العمل السري في عدة مناطق ، من أهمها بادية الكوفة ، حيث درس المتنبي ، وتلقى مبادئها ، فصادت هوى في نفسه ، وروت فيها ظمأه للثأر من الثراء



الفاحش والفساد المحيطين به ، لحساب الفقر المدقع الذى عانى منه الكثير ..

وهنا قد يكون من الضروري الإشارة بإيجاز إلى طبيعة العصر الذى عاشه المتنبي فى ظلاله ، وهو النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .. حين كانت الدولة الإسلامية قد تجاوزت قمة مجدها السياسى وازدهارها الثقافى ، وبدأت تتمزق بين الفتن والثورات والانقلابات .. فرق دينية لا حصر لها ، لكل فرقة أشياعها وأنصارها ، وأحيانا جيشها ومقاتلوها .. شيعة ومعتزلة وخوارج وقرامطة .. والشيعية وحدهم انقسموا إلى سبعين فرقة وفرقة .. إسماعيلية وزيدية وغلاة وفاطميين .. إلخ .. إلخ .. وعصبيات متناحرة من فرس وأتراك وعرب .. وتقسمت فيما بينها أراضى الدولة ، واستقلت كل منها بحكم إحدى الدويلات الناشئة ..

سامانيون ويوبيون وحمدانيون وإخشيدي .. إلى آخر القائمة .. كل منهم يتربص الدوائر ببقية الدويلات لينهش من أرضها قطعة يضمها لولايته .. ويصطنع الأنصار والمتآمرين لإسقاط الحكم فى هذه الدولة أو تلك ..

والروم البيزنطيون فى شمال الشام لا يتوقفون عن شن غاراتهم .. وقد أطمعهم تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم فيما بينهم .. ولولا صمود بعض الأمراء الشجعان ، كان أبرزهم سيف الدولة أمير حلب ، لغزوات الروم لقضى على الدولة الإسلامية قضاء مبرما .

في مثل هذا المناخ تموت المثل العليا وتحلل القيم الشريفة ،  
وتسود الأنانية والانتهازية ، ويصبح شعار العلاقات « أنا ومن بعدى  
الطوفان »

كان لابد أن يترك هذا المناخ وتلك الظروف آثارا واضحة في حياة  
المتنبى وشعره .. أهم تلك الآثار تعصبه لعرويته ودعوته إلى توحيد  
الدويلات الإسلامية المتفرقة تحت قيادة عربية ...

« .. وإنما الناس بالملوك وما  
تفلح عرب ملوكها عجم  
لا أدب عندهم ولا حسب  
ولا عهد لهم ولا ذمم . »

وفي مدحه للأمير عضد الدولة البويهى يصف جمال شيراز ولكنه  
يتحسر في الوقت نفسه على ضياع عروبتها فيقول :

« مغاني الشعب طيبا في المغاني  
بمنزلة الربيع من الزمان  
ولكن الفتى العربى فيها  
غريب الوجه واليد واللسان  
ملاعب جنة ، لوسار فيها  
سليمان ، لسار بترجمان . »

على ضوء هذا الموقف الثابت نستطيع أن نفهم سر تعلقه بسيف الدولة ،  
فهو الأمير العربى المناضل الذى وجد فيه الشاعر المثل الأعلى الذى  
ينشده ، فجند فنه في خدمته ، وأبدع في مدحه كم لم يبدع في مدح أى

حاكم آخر، وخاض معه معاركه ضد الروم، وسجلها في شعر عظيم ،  
يضعه الدكتور عبد الوهاب عزام في نفس مستوى ملحمتي « الإلياذة »  
و « الأوديسة » لشاعر الإغريق العظيم هو ميروس .

لقد اختلف الباحثون حول اعتناق المتنبي للمذهب القرامطة ، وإذا  
كنا نميل إلى ترجيح اعتناقه له فيما ذلك إلا لا اعتقادنا بأن ظروف العصر  
المضطربة قد غمت في نفس الشاعر إمكانية تسلمه لمنصب رفيع عن  
طريق المشاركة في الثورة ، أو تأجيج نيرانها ، فقد أورثته ظروف الفاقة  
التي نشأ فيها سخطا عميقاً على طبقة الحاكمين ، ورغبة ملحة في تغيير  
تلك الأوضاع الظالمة إلى أوضاع أكثر عدالة ، على أمل أن ينال فيها  
مكانة رفيعة تليق بمواهبه المتميزة . . وليس كالمبادئ القرمطية وسيلة  
لتحقيق هذا التغيير ، وإلا ففيم كان تجشمه لتلك الرحلة الطويلة  
الشاقة من جنوب العراق حتى شمالها ، ثم من شمال الشام حتى جنوبها  
قرب الحدود المصرية . . وهو شاب صغير لم يتم العشرين من عمره .

لم تكن - فيما نرى - رحلة شاعر متكسب يسعى إلى المدح والثناء  
الأثرياء حيث يجدهم كما ذهب غالبية دارسيه ، فهذا هو الشكل الظاهر  
الذي أضفاه المتنبي على تلك الرحلة ليخدع العيون والرقباء . . إذ كان  
يتوقف عند كثير من الأثرياء الذين يمر بهم أثناء رحلته ، ليمدحهم ،  
مخفياً بذلك هدفه الحقيقي ، وهونشر الدعوة القرمطية بين قبائل  
البدو . . ولو أن هدفه الوحيد من تلك الرحلة هو التكسب بالمدح ،  
لا استطاع تحقيقه وهو مقيم بالكوفة ، أو ببغداد ، وربوع العراق ،  
حيث كثرة كبيرة من الحكام الأثرياء . . ولما احتاج لتكبد مشقة تلك

الرحلة الطويلة المضنية . . أو على الأقل لا كتنفى بالتوقف في كبريات المدن ، والنزول في قصور الأمراء والأثرياء ، ولما ضيع جانباً غير قليل من وقته بين أعراب البادية الفقراء . .

على أننا حين نرجح اعتناق المتنبى لمبادئ القرمطية ، واشتغاله بالدعوة إليها لا نتصوره داعية نموذجياً متفانياً في الإخلاص لتلك المبادئ ، لأن مثل هذا التصور يتعارض مع فهمنا لطبيعته النفسية . فمن كان على مثل إحساسه المتضخم بذاته وطموحه الشخصي الزائد . . من الصعب أن يفنى في عقيدة ، أو يتحرك في إطار تنظيم يفرض عليه الخضوع لرؤسائه وإطاعة أوامره ، سواء اقتنع به أم لم يقتنع ، كم أن إنشغاله الشديد بفنه الشعري ، وحرصه على تهيئته ، وتملك ناصية الإبداع فيه لم يكن ليدع في عقله مكاناً للنقاش المذهبي المحتدم الذي يقوم عليه عمل الداعية الناجح . . وكذلك فقد كانت عصبيته العربية أقوى من أن تنحل في عقيدة شاملة كالقرمطية - تتسع لكل العصبية والديانات . .

ولا يمكن أن تكون كل تلك السمات قد خفيت على زعماء القرامطة ، حتى يعهدوا إليه بنشر الدعوة لمذهبهم في تلك الرقعة الشاسعة من البلاد التي جابها خلال رحلته . . لم تحف عليهم طبيعة المتنبى ومكوناته النفسية ، فإذا كانوا قد أرسلوه مع ذلك لنشر الدعوة لمذهبهم بين قبائل البدو التي ما زالت تحمل الشعر ، وتحمل الشعراء مكانة خاصة من نفوسها . . وكذلك فإن غلبة العصبية العربية على تلك القبائل قد تدفعها للتجاوب مع شاعر فحل متعصب لعرويته كالمتنبى . . ومن ثم يستهل عليه إقناعهم بما يدعو إليه .

نخرج من ذلك بأن المتنبي قد يكون استخدم مبادئ القرامطة في دعوة القبائل التي حل بها إلى الثورة والخروج على الحكام ، ولكنه فعل ذلك - في الأغلب - لحسابه الخاص ، ليصل إلى القيادة والرياسة التي تتوق نفسه إليها ، ويعتقد أنه أجدر بها من أولئك الحكام الأعاجم الذين سيطروا على كثير من الولايات العربية ، ومن ثم كثرت في تلك المرحلة المبكرة من حياته الأشعار التي يشير فيها إلى دعوته الثورية ، كقوله لأولئك الحكام الأعاجم :

« ومن ييغ ما أبغى من المجد والعلـا  
تساو المحار عنده والمقاتل  
ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم  
وليس لنا إلا السيوف وسائل »

وقوله في بعض مدائحه :

« لأحبتني أن يملأوا  
بالصانيات الأكؤبا  
وعليهم أن يبذلوا  
وعلى ألا أشربا  
حتى تكون الباترات  
المسمعات فأطربا .. »

والمعروف أن المتنبي وجد استجابة لدعوته الثورية عند بني كلب في بادية السماوة ، فخرج بها من السر إلى العلن . . وظل زعيماً للقوم حتى وصلت قوات « لؤلؤ » وإلى حمص من قبل الإخشيديين ، فقبضت

عليه ، وأودع في السجن ما يقرب من عامين كاملين . . ثم أفرج عنه « ابن كيغلع » وإلى حمص الجديد ، بعد أن استتابه . .

كل هذا ثابت ، وفي ديوانه عدة قصائد تؤكد . . أما غير الثابت فهو طبيعة الثورة التي قادها المتنبي في بادية السماوة . . هل كانت ثورة سياسية كما ذهب أبو العلاء المعري ، وتابعه غالبية الدارسين المحدثين . . أم كانت ثورة دينية ادعى خلالها الشاعر النبوة ، واستطاع إقناع البدو السذج بتلك النبوة المزعومة ، عن طريق بعض الحيل البسيطة ، بالإضافة إلى فصاحة شعره ، وما ألفه من كلام مسجوع زعم أنه كتابه المنزل ، فصدقوه وآمنوا به . . وهو ما نصت عليه كثرة الروايات القديمة ، وأيدها قلة من الدارسين المحدثين . .

وعندنا أن الرأيين لا يتعارضان ، بل قد يكمل أحدهما الآخر . . فالثورة سياسية في أساسها ، هدفها شخصي ، وهو وصوله إلى الحكم والزعامة . . وأما ادعاء النبوة فهو الوسيلة التي لجأ إليها شاعر رقيق الإيمان ليحقق غايته . . فلعله جرب . . خلال رحلته السطوية - إقناع العامة بالثورة بالمنطق السياسي العقلي ، وعلى أساس دعوة القرامطة ، فلم يجد استجابة تذكر . . ومن ثم اتجه إلى مخاطبة الهياطفة الدينية لدى أولئك البدو ، وهو قوية ، سهلة الاستثارة . .

إن دارس شخصية المتنبي لن يصعب عليه إدراك أنه أبعد ما يكون عن تلك الشخصيات العصابية التي يمكن أن تدعى النبوة وهي صادقة في ادعائها . . لم يبق إذن إلا أن ادعائه النبوة لم يكن إلا حيلة تبلغه غايته ، وتبوءه مكانة الزعامة السياسية التي يتوق إلى تسنمها . . والدليل على

صدق هذا الظن أن سجنه عامين كان كافياً لاجتثاث تلك الفكرة من جذورها . . بل أصبح يضيق بكل من يذكره بها ، ويحاول انكارها بكل سبيل . . كل ما خرج به من تلك المحاولة الفاشلة هو اسم شهرته الذي التصق به أبد الدهر . . وعلى من ينفون ادعاء النبوة أن يقدموا لنا أولاً تفسيراً معقولاً لتلك التسمية التي لا نجد لها ذكراً إلا بعد خروجه من السجن . . فمن غير المنقح قولهم إنه سمي بالمتنبى لأنه « تنبأ بالشعر » ، أو لأنه شبه نفسه بالأنبياء في شطرة بيت من الشعر ! إذا كان السجن قد نجح في اجتثاث فكرة القيام بثورة سياسية من نفسه ، فهو لم يستطع أن يبحث منها عصبيتها العربية وطموحه إلى توحيد كلمة العرب بقيادة أمير منهم . . وقد تجسد هذا الأمل في شخصية الأمير سيف الدولة ، ومن ثم لازمه ، وخصه بأروع شعره . . فلما أفسد الوشاة بينها . . خرج من عنده يائساً حزيناً ليكرس البقية الباقية من حياته لتحقيق طموحه الشخصي في تولي ولاية أو إمارة . . ولكنه لم يلجأ هذه المرة إلى الدعوة للثورة أو ادعاء النبوة . . بل استخدم شعره الذي بلغ به أرفع قمة بين شعراء العربية وأن لم يبلغ به مكان الإمارة . .

ألا ما أصدق أبو القاسم مظفر بن علي الطبسي حين قال في رثاء المتنبى :

وكان	في	نفسه	الكبيرة	في	جيش
	وفي	الكبرياء	ذا	سلطان	
هو	في	شعره	نبي	ولكن	
	ظهرت	معجزاته	في	المعاني	،

(١٩٧٧)

(٢٤)

ابن زيدون  
وشعره الغزالي



الحقيقة الأولى التي تواجه قارئ ديوان الشاعر الأندلسي ابن  
ريدون أنه شاعر غزل ، فالغزل يحتل ما لا يقل عن ثلث ديوانه ، أما  
الحقيقة الثانية ، فهي أن كل هذا الغزل - إذا استثنينا أبياتاً قليلة قالها  
في الغزل العام كمقدمات لبعض قصائد المدح - يكاد ينصب على  
معشوقٍ واحدة هي « ولادة » ابنة المستكفي أحد خلفاء بني أمية في  
الأندلس .

والصورة التي ترسمها كتب التاريخ لولادة هي صورة سيّدة  
الصالونات - على حد تعبيرنا الحديث - امرأة مثقفة تروى الأشعار  
والأخبار وتقول الشعر وتنقده ولها منتدى خاص يجتمع فيه الكبراء من  
أهل العلم والأدب .

فابن بسام يقول عنها في كتاب « الذخيرة » : « . . وأما ولادة التي  
ذكرها ابنُ زيدون في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله  
الناصرى وكانت في نساء عصرها واحدة أقرانها حضور شاهد ، وغزارة  
أوايد ، وحسن منظر ونخب ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها  
بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفنائها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعيشو  
أهل الأدب إلى ضوء غرتها وبتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها  
إلى سهولة حجابها وكثرة متابها ، تخطط ذلك بعلو نصاب ، وكرم  
أنساب وطهارة أثواب . . . . . كتبت - زعموا - على أحد عاتقي  
ثوبها :

« أنا والله أصلح للمعالى  
وأمشى مشيتي وأتبه نبيها »

وكتبت على الآخر :

« أمكن عاشقى من لثم خدى  
وأعطى قبلى من يشتهيها »

ويروى ابن بسام كذلك على لسان ابن زيدون أنه قال :

« كنت فى أيام الشباب وغمرة التصايب هائما بغادة تسمى ولادة ،  
فلما قدم اللقاء وساعد القضاء كتبت إلى :

ترقب إذا جن الظلام زيارق  
فان رأيت الليل أكتم للسر .  
وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدا  
وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر »

ثم يقص كيف أنها وافته بُعيد الغروب ، وقضيا معا  
ليلة غرام أقل ما يقال فيها أنها لم تكن عذرية ، فلما بارحته  
أنشدها :

« ودع الصبر محب ودعك  
ذائع من سره ما استودعك »

ويورد ابن بسام رواية ثالثة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن  
ولادة كانت نموذجاً للمرأة الهوائية التى تشتعل غيرة لأنفه الأسباب ،  
كأن يطلب عاشقها من مغنية لها إعادة مقطع من أغنية ، ويروى شعرا  
على لسانها تقول فيه :

« لو كنت تنصف في الهوى بيننا  
لم تهو جاريتي ولم تتخير  
وتركت غصنا مشمرا بجماله  
وجنحت للفصن الذي لم يثمر  
ولقد علمت بأنني بدرُ السما  
لكن دهمت لشقوق بالمشتري »

إذا أضفنا إلى هذه الروايات ما حدثنا به ابن زيدون في شعره عن « ولادة » لوجدنا أمامنا صورة واضحة لنفسيتها ؛ فهي سيدة فاتنة الجمال ، مثقفة ثقافة سمحت لها أن تحتل المكانة الأولى بين سيدات المجتمع الراقى في « قرطبة » في ذلك الوقت حينما كانت تمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة العربية في العلوم والفنون وآداب الاجتماع ، وهى سيدة مغرورة دفعها إلى الغرور جمالها وثقافتها ، وما كانت تلقاه من صنوف الحب والإعجاب من كل من حولها وهم صفوة الرجال في قرطبة ، وهى بعد ذلك هوائية ، ربما نتيجة لغرورها ، لا تستقر على محب ، ولا تخص عاشقا بهواها ، وإنما هى طائر طليق يتنقل من فنن إلى آخر ، ويأبى على نفسه الحبس ، ولو فى قفص من ذهب ، هكذا عاشت حياتها ، فلم تفكر فى الزواج قط .

لا غرو وهذه صفاتها أن استطاعت ولادة أن تقيم شاعرا متوقد الحس كابن زيدون فى غرامها ، وتديقه من صنوف الهجر والعذاب ما نجد آثاره دما ودما فى شعره .

ونحن نعلم أن ابن زيدون لم يكن بالرجل الفارغ لشعره ، بصورة قد يجد معها فى مثل هذه العلاقة فرصة ملء حياته وشغل فراغها ،

ولكنه شارك في الحياة السياسية لعصره مشاركة قوية ، ليس الخوض فيها مما يدخل في موضوعنا ، فلو لم تكن لولادة مثل هذه الشخصية القوية المثيرة للعواطف والحواس ، لما استطاعت أن تحتل من نفسه ومن شعره هذه المكانة الخطيرة التي سنحاول الإلمام بها ، ولا امتدت يد النسيان فجرفتها وطوت ذكراها في تيار الأحداث والخصومات التي خاض فيها الشاعر .

والدارس لشعر ابن زيدون في ولادة يدهشه أنه لا يكاد يجد صورة واحدة من صور الوصل والهناء ، اللهم إلا أبياتاً قليلة تخصى على أصابع اليد مثل قوله :

لا ينم الواشى الذى غرّنى  
هاأنذا فى ظل الرضى نائم  
عدت إلى الوصل - كما أشتى  
فالمجر باك والرضى باسم .

وليس معنى هذا أننا نشك في قيام علاقة حب متبادلة بينه وولادة ، ففي الروايات التي أوردها صاحب « الذخيرة » وغيره ، عن لقاءات تمت بينهما ، ثم ما في شعر ابن زيدون من إشارة إلى هذه العلاقة كذكرى من الذكر ما يدخل في هذا الشك ، وإنما الذي نزعنا أن فترات الوصل والصفو في هذه العلاقة كانت أقصر بكثير من فترات الهجر والخصام ، ومن ثم زودت هذه العلاقة الشاعر بشحنة قوية من العواطف والذكريات كانت كافية لإلهامه كل هذا الشعر فيما بعد ، ولكنها لم تمهله الفرصة ليصفها وقت أن كان يعيش فيها .

ويقول كاتب معاصر في تبرير مثل هذه الحالات : « إن صاحب الحياة الهنيئة لا يكتبها وإنما يعيشها » ، كما أننا لا نعدم من يذهب إلى أن الفرح والسعادة شعور رخيص مبتذل لا يلهم الفنان الأصيل ، وإنما الألم هو ميدان الفن الأصيل .

وسواء أصبح هذا أم لم يصبح فالذى لاشك فيه أن شاعرنا ، لو لم تُصهر عواطفه في نار البعد والألم لما استطاع أن يقول كل هذا الشعر الذى يفيض بالركة كما يفيض بالشقاء .

ويبدو أن علاقة ابن زيدون بولادة لم تعمر طويلا ، ولعل من أسباب ذلك اضطراب حياته السياسية ، وما كان من سجنه ثم هربه من قرطبة إلى أشبيلية ، ثم منافسة ابن عبدوس وغيره له في حب ولادة ، وما كان من هؤلاء المنافسين من دس ووشاية لابن زيدون عند ولادة . وما أكثر ما ذكر هؤلاء الوشاة في شعره :

ساء الوشاة مكان منك واتقدت  
في صدر كل صدو - جرة الحسد  
، أشمتُ بي فيك العدا  
وبلغت من ظلمي المدى .  
، يامستخفا بمأشقيه  
ومستغشا لنا صحبه  
ومن أطاع الوشاة فينا  
حتى أطمعنا السلو فيه

فإذا أضفنا إلى هذين العاملين ما أشرنا إليه من قبل في طبيعة ولادة

من ملل وتقلب أدركنا أنه من المستحيل لهذه العلاقة أن تعمر طويلا ،  
واين زيدون متنبه في عدة مواضع من شعره إلى هذه الطبيعة في نفسية  
ولادة اسمعه يقول :

ا قد أعيا تلونك احتيال  
وهل يفتنى احتيال في ملول

ويقول :

ألم الزم الصبر كما أخف  
ألم أكثر الهجر كي لا أقبل  
ألم أرض منك بغير الرضى  
وأبدى السرور بما لم أنل .

إن الصورة التي يرسمها ابن زيدون لمعشوقته « ولادة » هي صورة  
امرأة لا قلب لها ، هي دائها الهاجرة ، وهي دائها المسببة المعذبة ، أما هو  
فواثق واله مطيع ، لو أنها قالت له مت ما قال لا ، وهذا المعنى الأخير  
يتكرر أكثر من ثلاث مرات في الديوان .

ولعل هذا البيت على ما فيه من تقسيم وتقطيع أحسن ما يصور  
حقيقة معاملتها له وطريقة استجابته لهذه المعاملة . يقول :

« ته احتمل ، واستطل أصبر ، وجزأ من  
وول أنبل ، وقل أوسع ، ومر أطمع . »

فولادة تياهة بجماها مغرورة بحسنها عزيزة بحب المحين  
واعجاب المعجيين ، أما هو فمعذب مهان ، تذيقه ولادة العذاب  
والصدود ألوانا ، فما يجازيها إلا صبرا ورضى . تنصرف عنه وتلع في

الانصراف ، فيقبل عليها ملحا في الأقبال . كلما زادها حبا ووصلا  
زادته هي بعدا وهجرا ، اسمعه يصور هذه الحال العجيبة :

جازيتني عن ثمادى الوصل هجرانا  
وعن ثمادى الأسى والشوق سلوانا  
ماصح ودى إلا اعتل ودك  
ولا أطعتك إلا زدت عصيانا

ويقول :

أبديت لى من صنوف القلى عبرا  
أرسلتنى فى حديث الهوى مثلا  
ويقول أيضا وما أكثر ما قال فى هذا المعنى :

كم ذا أريد ولا أراد  
ياسوء مالى الفؤاد  
أصفى الفؤاد مدلا  
لم يصف لى منه الوداد .

ويخاطبها قائلا :

أنت معنى الضنى وسر الدموع  
وسبيل الهوى وقصد الوسوع  
وهو برغم هذا كله ، وبرغم ما لقيه منها من ضنى وعذاب ما زال -  
شأن العشاق - يعيش على أمل الوصال ولا يتسرب اليأس إلى نفسه  
أبدا :

ليس لي صبر جميل  
غير أني أنجمل  
ثم لا بأس فكم  
نيل أمر لم يؤمل

ويقول :

لاياس رب دُئو دارِ جامع  
لشمل قد أدى إلب بعاذ

وهو يلتبس لها الأعذار دائما في كل ما جنت عليه وكل ما أساءت  
إليه :

يفديك منى عجب شأنه عجب  
ما جئت بالذنب إلا جاء معتلرا

فهى إن هجرته وفارقتة فما ذاك فعلها وإنما فعل الدهر :

والله ما فارقون باختيارهم  
وإنما الدهر بالمكروه يرمىنى .

وهى ان باعدت بينه وبينها وقست عليه ، فهى قد وصلته وأسعدته  
من قبل ، وفى ماضيه معها ما يعزیه ويغفر لها :

لئن عطشتُ إلى ذاك الرضاب لكم  
قد بات منه يسقىنى فيشجبنى  
وان أفاض دموعى نوح باكية  
فكم أراه يفنىنى فيشجبنى



وان بعدتْ فأضنتنى الموم لعد  
عهدته وهو يدننى فيسلىنى

.....

أفدى الحبيب الذى لو كان مقتدرا  
لكان بالنفس والأهلين يفدىنى

ويظل ابن زيدون فى أغلب قصائده ذلك العاشق اللوح المتعلل  
بالأمانى :

ان كان لى أمل إلا رضاك فلا  
بُلُفْتُ - بأملى - من دهرى الأمل

ويقول :

صلىنى بعض الوصل حتى تبينى  
حقيقة حالى ثم ما شئت فاصنعى

فهو راض مستسلم لما يلقاه من ولادة ولا يرى حبها سوى فتنة  
قُدِّرَتْ عليه « وهل يستطيع الفتى أن يدفع القدر ؟ » . ولكن هذا  
الاستسلام والرضى لا يخلوان من ثورة احتجاج فى بعض الأحيان :

لم أسل حتى كان عذرك فى الذى  
أبديته أخفى وعذرى أبينا  
ولقد شكوتك بالضمير إلى الهوى  
ودعوت من حنق عليك فأمننا  
منيتْ نفسى من وفائك ضلَّةً  
ولقد تغر المرء بارقةً المنى

وَيَخَاطِبُهَا قَائِلًا :

يَا مُسْتَخْفَا بِعَاشِقِيهِ  
وَمُسْتَشْفَا لِنَاصِحِيهِ  
مَنْ أَطَاعَ الْوَشَاةَ فِينَا  
حَتَّى أَطْعَمَنَا السُّلُوفِيهِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي  
تَكْذِيبَ مَا كُنْتُ تَدْعِيهِ  
مَنْ قَبْلَ أَنْ يُهْزِمَ التَّسْلِي  
وَيَغْلِبَ الشُّوقُ مَا يَلِيهِ

بل قد يذهب إلى أكثر من الثورة والاحتجاج ، فيذكر تعلقه بحب  
جارية :

عَاوَدْتُ ذِكْرِي الْمَوَى - مِنْ بَعْدِ نَسِيَانِ  
وَاسْتَحْدَثَ الْقَلْبُ شَوْقًا بَعْدَ سُلُوفَانِ .  
مَنْ حُبِّ جَارِيَةٍ يَبْدُو بِهَا صَنْمٌ  
مَنْ اللَّجِينِ عَلَيْهِ تَأَجُّ عَقِيَانِ .. الْخ

وغزل ابن زيدون في كلتا حاله - حال رضاه وحال ثورته - تقرأ فيه  
الأسى الدامي والصراخ الباكي ، وترى هذا الجرح الذي ينتزف بقوة  
وغزارة ...

ولكن الزمن كفيف بإصلاح ما أفسد فهو إن لم يقو على إعادة حييته  
إليه فهو قادر على أن يحيل صراخه إلى نحيب خافت أقرب للغناء منه  
للعويل . ولعل من أصدق ما قيل في هذا المعنى : « إن الأحزان  
الجديدة تصرخ ، أما الأحزان القديمة فتغنى .. ! » وهذا هو التطور

الطبيعى الذى نلمحه فى حزن ابن زيدون على حبه الضائع ، فهذا الحزن - ككل العواطف الصادقة لم يُجِمْج من صدره بمرور الزمن محوا تاما . كل ما فى الأمر أن الجرح وإن التأم وشفى فإنه قد ترك مكانه ندبا واضحا يذكر صاحبه بين الحين والآخر بما كان من أمره وما قاساه من ويلات ! فينشد هذه الذكرى أغنية قد لا تخلو من شكوى ، ولكنها شكوى اليائس الراضى الذى خلت نفسه من الثورة والحقد على من أساء إليه . وخر مثال لزعمنا هذا القصيدة المشهورة التى يستهلها بقوله :

« أضحى التنائى بديلا من تدائنا  
وناب عن طيب لقيانا نجافينا »

ويختتمها بهذه النغمة الهادئة الصادقة :

« أبكى وفاء - وإن لم تبذل صلة  
فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا  
عليك منى سلام الله ما بقيت  
صباية بك نخفيها فتخفيننا

ومن نغمة هذا الحزن الهادىء أيضا قوله :

باليل خبر أننى  
ألتد عنه خبرك  
بالله قل لى : هل وفا  
فقال : لا بل غدرك .

ومن الحقائق النفسية المعروفة أن الإنسان كثيرا ما يرتبط بأماكن

خاصة يشتاق إليها ويكثر من ذكرها والحنين إليها ، فإذا دققنا النظر في طبيعة مثل هذه المشاعر الموجهة لأماكن ، فاننا نجد أنها في الأغلب موجهة - في حقيقة الأمر - نحو شخص أو أشخاص ارتبطوا في أذهاننا بهذه الأماكن ، فهي أثر من آثارهم ورمز من رموزهم ، ولعل قول الشاعر :

« أمر على الديار ديار ليل  
أقبل ذا الجدار ذا الجدار  
وماحب الديار ملكن قلبي  
ولكن حب من سكن الديار »  
يوضح ما نرمي إليه . . وعلى هذا الأساس فحنين ابن زيدون إلى قرطبة الذي يملأ ديوانه ، إنما هو في حقيقته حنين إلى أهلها وأحبائه فيها ، وعلى رأسهم ولادة بالطبع . وإذا صح ذلك فباستطاعتنا أن نضم شعرا بن زيدون في الحنين إلى قرطبة إلى شعره الغزلي ، وفي ديوانه أكثر من خمس قصائد وموشحات طويلة في هذا المعنى ، منها قصيدته التي قالها ببطليموس وقد وافاه عيد الفطر هناك والتي مطلعها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي  
فما حال من أمسى مشوقا كمن أضحي  
وهو يعدد في هذه القصيدة أسماء أحياء قرطبة ويختلف أماكنها ، ويستعيد ذكرياته في كل منها ، فإن لم يذكر « ولادة » صراحة في هذه القصيدة ، فشبهها يتراءى أمامنا مع ذلك بين السطور .

وفي قصيدة أخرى من نفس اللون يذكر معشوقه ويصفه ثم يقول :

فمن أجله أدعو لقرطبة المني  
بسقيا ضعيف الطل وهو رهام  
محل غنينا بالتصاي خلاله  
فأسعدنا والحادثات نيام .

وفي هذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن قصائد ابن زيدون في الحنين  
إلى قرطبة هي في حقيقتها حنين إلى « ولادة » .

وهناك ظاهرة أخرى تستلفت النظر في غزل ابن زيدون وهي  
احساسه القوي بطول الليل ، وشكواه الكثيرة من الليل مرة وإليه  
أخرى ، وقصر الليل هو خير ما يمثل السعادة في نظره :

يقصر قربك ليلى الطويلا  
ويشفي وصالك قلبي العليلا  
، ياليل طل لا أثنهى  
إلا بوصل قصرك

وحين يحن إلى قرطبه يكون من أهم أسباب حنينه إليها  
قصر ليله فيها وطوله ببطليموس :

أجل إن ليلى فوق شاطيء نيطة  
لأقصر من ليلى بآنة فالبطحها

ولا يخطرن بالبال أن غزل ابن زيدون كله عذرى ليس فيه سوى  
الشكوى والنحيب كما يغلب على الأمثلة التي أوردناها ، ففيه إلى جانب  
هذا اللون أمثلة عديدة للغزل الحسى الأحمر مثل قوله :

تباین خَلقاه فَعَبَلُ مَنْعَمٍ  
تَأَوَّدَ فِي أَصْلَاهُ لَذَنُّ مَهْنَهفٍ  
فَلِلْمَانِكِ الْمَرْتَجِ مَا حَازَ مَثَرُ  
وَلِلْفَصَنِ الْمَهْتَرِ مَا ضَمَّ مِظَرَفُ

إلى أن يقول :

هَبِيكَ اعْتَرَرْتُ الْحَيَّ وَاشْيِكَ هَاجِعُ  
وَفَرَعُكَ غَرِيبُ وَلِيْلِكَ أَغْضَفُ  
فَاقِ اعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطُولُ مُذْمَجُ  
وَرَدَفُكَ رَجْرَاجُ وَخَصْرُكَ تَخْطَفُ

كذلك لا يخلو عزل ابن زيدون من صور باسمه خفيفة الظل مثل قوله :

قَالَ لِي : « اَعْتَلَّ مِنْ هَوَيْتِ » حَسُودُ  
قُلْتَ أَنْتَ الْعَمَلِيلُ وَيْحَكَ لَا مُو  
مَا الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ بَشَرَاتِ  
ضَاعَفْتَ حَسَنَهُ وَزَادَتْ حَلَاءُ  
جَسَمِهِ فِي الصَّفَاءِ وَالرَّقَّةِ الْمَا  
ءِ فَلَا غَرَوُ أَنْ حُبَابُ عَلَا

وعندى أن هذه الصورة التي استوحاها من واقع الحياة اليومية الواقعية ، ثم حسن تعليله وظرف تبريره لهذا الواقع بالخيال ، ليرتفع بهذه الأبيات إلى مرتبة عالية في الغزل .

ومن صوره الباسمة أيضا قوله :

بل ما عليك وقد محضتُ لك الهوى  
في أن أفوزَ بِحُظوة المسواك  
ناهيك ظلياً أن أضربَ الصدى  
برحاً ونال البُرّة عودُ أراك  
ولعل هذا المعنى قد استهواه فعاد يحوم حوله في موضع آخر :

أهدى إلى بقية المسواك  
لا تظهرى بخلا بعود أراك  
فلعل نفسى أن يُنفّس ساعة  
عنها بتقبيل المقبل فاك

\* \* \*

أن الصفة الغالبة على غزل ابن زيدون هي « المدنية » بكل ما فيها  
من رقة حاشية وعذوبة نَفْس وموسيقى ألفاظ ، وبكل ما فيها من  
إسراف في التكلف واغراق في التصنع في بعض الأحيان .

أما الرقة والعذوبة والموسيقى فلعل فيما أوردناه من أمثلة ما يكفي  
للدلالة على توفرها في شعر ابن زيدون ، أما التكلف والصناعة فهي  
واضحة في كثير من المواضع ، مستترة خافية في مواضع أخرى لدقتها  
واحكامها . ولا نكاد نجد قصيدة واحدة من شعر ابن زيدون خالية من  
المحسنات اللفظية ولا سيما الطباق والجناس . . وقصيدته المشهورة :  
« أضحى الثنائى بديلاً من تدانينا . . » على ما فيها من جمال حافلة  
بهذه المحسنات ؛ ففي البيت الأول وحده لونان من الطباق بين  
« الثنائى والتدانى » وبين « لقيانا وتجاونا » ، وفي البيت الثانى :

« أَلَا وَقَدْ حَانَ صَبْحُ الْبَيْنِ صَبْحُنَا  
حِينَ لَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا »

لونان من الجناس بين « صَبْحُ وَصَبْحُنَا » وبين « حَانَ وَحَيْنُ  
وَالْحَيْنُ » ، وفي البيت الرابع طباق بين « يضحكننا ويبكينا » ، ثم يأتي  
البيت الخامس :

غبط العدا من تساقينا الهوى قَدَعُوا  
أَنْ نَغْصُصُ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا

وتتضح الصناعة فيه في أقتصار صورة الدهر الذي ينتظر دعوة العدا  
ليرفع يديه إلى السماء ويقول « آمينا » ، وهي صورة تكاد تدفعنا إلى  
الابتسام بدلا من التأسى ومشاركة الشاعر ألمه ، وهو بعد ذلك مستمر  
في محسناته ومقابلاته الشعرية وكأنه نقاش ممن تخصصوا في نوع معين من  
الزخرفة يمتار بالتوازن و« السيمترية » « فانحل » لابد أن يقابلها  
« معقودا » ، و« التفرق » يقابله « التلاقى » ثم يقول : « بنتم وبنا فما  
ابتلت جوانحنا شوقا إليكم . . » ، ومادام قد ذكر البلبل في صدر البيت  
فلا بد من مقابلته بالجفاف في عجزه : . . « ولا جفت مآقينا » . أما  
الجناس فواضح بين « الأسى والتأسى » ، « فما كنتم لأرواحنا إلا  
رياحينا . » ، « . . مربع اللهو صاف من تصافينا » . . . والأمثلة على  
هذه المحسنات كثيرة في هذه القصيدة بالذات ، وفي شعر ابن زيدون  
بوجه عام .

على أن قصيدة « أضحي التنائى » بالرغم من وضوح الصناعة  
فيها ، لا تخلو من أبيات رقيقة رائعة مثل :



« كأننا لم نبت والوصل ثلثنا  
والسعد قد غص من أجفان واثينا  
سران في خاطر الظلماء يكتمنا  
حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا

غير أن هذين البيتين الجميلين لم يخلوا كذلك من الطباق بين :  
« يكتمنا ويفشيننا » .

وإذا كنت قد أطلت بعض الشيء في الحديث عن هذه القصيدة ،  
فما ذلك إلا لشهرتها الذائعة من ناحية ، ولأنها أطول قصائد ابن زيدون  
الغزلية من ناحية أخرى ، وفيها تتمثل كل خصائصه الفنية في الغزل .

وقد تصدنا عند هذا الشاعر الرقيق صبور وتشبيهات ينفر منها  
الذوق السليم كقوله يصف حبيبته : « وما أحورَ ساجي الطرف حشو  
جفونه سقام » ، فكلمة « حشو » ليست في موضعها إطلاقاً ، وقد كرر  
الشاعر هذه اللفظة مرة أخرى في قوله :

ألا رثيت لمن يبیت  
وحشو مقلته السهاد

ويقول في نفس القصيدة :

إن أجن ذنبا في الهوى  
خطأ فقد يكبو الجواد  
كان الرضى وأعيذه  
أن يعقب الكون الفساد

فتشبيبه نفسه في البيت الأول بالجواد فيه من سوء الذوق

ما لانتاج إلى بيانه وخصوصا في معرض الغزل ، فضلا عما فيه من  
الابتذال من كثرة الاستعمال ، وإقحامه للمصطلحات الفلسفية  
( الكون والفساد في البيت الثاني ) ناب عن سياق الغزل العاطفي ،  
ومن هذا القليل استعارته مصطلحات الولاية أو الخلافة للعاشق ،  
فيقول :

أؤسب من وصالك ما كسيت  
وأعزل عن رضاك وقد وليت ؟

على أن أمثال هذه المأخذ ، ليست كثيرة في غزل ابن زيدون ،  
وهي لا تنال من مكانته كشاعر من أوائل الشعراء الغزلين في الأدب  
العربي . ويكفيه أنه القائل :

أما متى نفسى فأنت جميعها  
باليمنى كنت بعض منك  
، الدهر عبدي لما  
أصبحت في الحب عبدا  
، متى أبشك ما  
ياراحتي وعذاي  
متى يثوب لسان  
في شرحه عن كتابي

والأمثلة على هذا الغزل الرائع الرقيق العذب تملأ ديوانه ، وهي  
أكثر بكثير من الأبيات التي غلبت عليها الصنعة ، أو جانبها التوفيق في  
معنى من معانيها .

( ١٩٥٠ )

(٢٥)

خليل مطران ..

وشعره الثوري

في شبابه المبكر كان يكره الاستبداد ، ويتوق لتحرر بلاده من نير الاحتلال التركي ، وعبر عن ثورته هذه في عدة قصائد هاجم فيها الأتراك واستبداد السلطان عبد الحميد ، فقبض عليه بتهمة العمل للثورة ، ثم أخلت السلطات التركية سبيله وقد أضمر زبائنها في نفوسهم أمرا .

ف ذات ليلة عاد خليل مطران إلى فندقه ، فوجد ضجة وجلبة حول غرفته ، وحينما دخل إلى فراشه وجد به عدة ثقوب من آثار الرصاص الذي أطلقه جواسيس السلطان عبد الحميد عليه ، وهم يظنون الشاعر الثائر نائما فيه . .

وأصبح واضحا أنه لم يعد للشاعر مقام في وطنه وسط هذا الإرهاب السافر ، فألج عليه أهله حتى قبل السفر إلى فرنسا . . وكان ذلك عام ١٨٩٠ . .

\*\*\*

وفي باريس نهل «خليل مطران» من ألوان الثقافة الغربية ، وتذوق نماذج من الشعر الجديد الذي كان يملأ به الشباب الفرنسي سماء العاصمة . . ففي تلك الفترة عرف الشعر الفرنسي مذهب «البرناسية» الذي ينادى بجمال موسيقى الألفاظ ويكاد يغفل كل ما عداها ، وعرف «الرمزية» التي حاولت أن تجعل الشعر يخاطب الحواس واللاوعي بصورة غامضة لا تبين . .

ولكن شاعرنا العربي اللبناني لم يمل بطبيعته الشرقية الصافية إلى أي من هذين المذهبين الأدبيين الجديدين ، وفضل عليهما المذهب «الرومانسي» الذي غلب على إنتاجه الشعري ، حتى أسماه كثير من النقاد «الشاعر

الرومانسي» ، لأنه كان رائد مدرسة جديدة في الشعر العربي جددت في قوالب الشعر التقليدي وفنئته ، ومالت به إلى آفاق نفسية جديدة ، واهتمت بتصوير الانطباعات الذاتية ، ووصف الطبيعة من خلال حالة الشاعر النفسية ، فإذا كان سعيدا فكل مظاهر الطبيعة تشاركه فرحته ومرحه . . وإذا كان تعسا حزينا ، وهو غالبا ما يكون كذلك ، فإن زقزقة العصافير تصبح نواح الشاكلات وحمرة الشفق الوردى تتحول إلى دماء الضحايا والمعديين . . . وهكذا . . . وكان من أعلام هذه المدرسة الرومانسية التجديدية التي أدخلها خليل مطران في أدبنا العربي معظم تلاميذ مدرسة «أبولو» وعلى رأسهم رائدهم أحمد زكي أبو شادي ، والشابي ، وناجي ، وبشارة الخوري وغيرهم . .

على أن رومانسية خليل مطران تتميز بخصائص معينة تكاد تبعد به من طبيعة الشعراء الرومانسيين المعروفين . . فهو يصف نفسه قائلا :

«في المعاودة وحدها تاريخ تكون شخصيتي ، فقد كان هناك عاملان يفعلان في نفسي ، شدة الحساسية ، ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على غلط خاص»

ويرى الدكتور «محمد مندور» في هذه العبارة مفتاح شخصية مطران ، ويقيم على أساسها دراسته القصيرة القيمة عنه ، وهو محق فيما ذهب إليه إلى حد بعيد ، فإذا كانت «شدة الحساسية» من خصائص «الطبع الرومانسي» ، فإن المعاودة ومحاسبة النفس ومراجعتها أبعد ما تكون عن هذا الطبع ، وقد وضع أثر هذه الخاصة النفسية في شعر مطران بصورة أكيدة ، فهو شديد الاهتمام بصياغة شعره وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، وهو في قصائده يكاد يغفل نفسه وتجارب حياته العاطفية ، فإذا ما برح به

الوجد التمس السبيل للتعبير عنه في شكل قصصى ، أو في إسناد أحاسيسه وانفعالاته لضمير الغائب .

ومن أصدق الأمثلة على ذلك مجموعة قصائده العاطفية التى أسماها « قصة عاشقين » ، فهناك شبه اجماع بين النقاد على أنها قصة حبه هو . . . حبه الصادق الوحيد الذى انتهى بفاجعة ظلت آثارها حية فى قلبه حتى آخر أيامه . . فقد ماتت حبيبته فى ربيع عمرها ، وظل « خليل مطران » وفيما لذكرها يابى أن يتزوج أو أن تكون له علاقة بمعشوقة سواها . .

\*\*\*

ولعل فى هذه المأساة العاطفية التى عبرت حياة الشاعر ما يفسر لنا ذلك الحزن الدفين الذى يسرى فى كثير من قصائده ، وبصفة خاصة فى قصيدة « المساء » التى نظمها وهو مريض بضاحية « المكس » بالإسكندرية عام ١٩٠٢ ويقول فيها :

« داء الم فخلت فيه شفائى  
من صبوتى فتضاعفت برحائى  
ياللضعيفين استبدا بى وما  
فى الظلم مثل تحكم الضعفاء  
قلب اصابته الصبابة والجوى  
وغلالة رثت من الادواء»

فى هذه القصيدة نلمس إحساسه المضمنى بالوحدة والغربة رغم أنه كان قد مضى على نزوجه الى مصر أكثر من عشر سنوات ، وربما كان لهدوء ضاحية « المكس » وبعدها عن العمران واقترابها من الصحراء

الصخرية القاحلة . . ربما كان لذلك أثره في تلك الأبيات الرائعة في  
تعبيرها من الاحساس بالوحدة والغربة :

إن أقمت على التملة بالمنى  
في غربة قالوا تكون دوائى  
عبث طوافى في البلاد وعلة  
في علة منفاى لاستشفاء  
متفرد بصبايى متفرد  
بكآبى متفرد بمعائى

\*\*\*\*

ويبدو أن «خليل مطران» قد اكتسب صفة المعادة ومحاسبة  
النفس ، وما يترتب عليها من تحفظ وتعقل خلال إقامته بفرنسا ، حيث  
ازدادت خبرته بالحياة والناس ، ونهل من ينابيع الثقافة الغربية كما  
أسلفنا . . وقد رأينا كيف أثرت هذه الخاصة في شعره ، أما تأثيرها في  
حياته فأجل وأخطر ، فنحن نراه حينما يستقر به المقام في مصر يعمل  
صحفيا ، وأديبا ، ثم ما لبث أن ينحول إلى الأعمال الاقتصادية  
 والتجارية ، ويظل مع ذلك محتفظا بهوايته الفنية ، ولا نكاد نلمس أثرا  
من آثار طبيعته الثورية التي عرف بها في صيد وشبابه وكادت تودى بحياته  
إلا في حادثين .

فقد بدأ خليل من حياته الصحفية وهو شاعر معروف ، وكان  
لا يستنكف مع ذلك من الذهاب إلى المصالح الحكومية ليستقى الأخبار  
لجريدة الأهرام وهذه حقيقة أحب أن يظل عندها طلاب الصحافة  
وصغار الصحفيين ، ممن يستنكفون أحيانا جمع الأخبار من

مصادرها . . وكانت الحكومة في ذلك الوقت تزدرى الصحفيين وتمنعهم من الحصول على الأخبار ، ثم زادت حكومة «مصطفى فهمي» باشا فأصدرت أمرا بمنع المحررين من دخول الدواوين الحكومية ، وتنفيذا لهذا القرار حاولوا طرد «خليل مطران» من أحد الدواوين ، فنار وهاج ، ورفض أن يخرج إلا بقوة البوليس وهو يهدر في وجه المسيو «فوشار» مدير المطبوعات وقتذاك ويصرخ في وجهه :

«سأهز أسس الحكومة . .»

أما الحادث الآخر الذي نلمس فيه ثورية «مطران» فقد وقع عام ١٩٠٩ حين أصدرت الحكومة قانون المطبوعات وقيدت به حرية الفكر وكممت الأقلام ، وقتئذ ثارت ثائرة مطران وأنشد أبياته الخالدة :

شردوا أختيارها بحررا وبرأ  
واقتلوا أحرارها حرا فحررا  
انما الصالح يبقى صالحا  
آخر الدهر ويبقى الشر شرا  
كسروا الأتلام هل تكسيرها  
يمنع الأيدى أن تنقش صخرأ ؟  
تطموا الأيدى هل تقطيعها  
يمنع الأعين أن تنظر شلأ  
اطفأوا الأعين هل اطفأوها  
يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا  
أخذوا الأنفاس هذا جهدكم  
وبه منجأنا منكم فشكرا



فلما توعدده المسئولون بالنفي من مصر ، لم يجبن ولم يضعف ، بل  
رد عليهم بأبيات تفيض بالعزة والإباء :

أنا لا أخاف ولا أرجى  
فرسى مؤهبة وسرجى  
لا أقول غير الحق لى  
قول وهذا النهج نهجى  
فلذا نبا بى متن بر  
فالمطية بطن لج  
الوعد ألا يعاد ماكانا  
لدى طريق فلج



ولخليل مطران فضل كبير على الصحافة المصرية فقد عمل في  
«الأهرام» ما يقرب من ثمانى سنوات كان يكتب خلالها في الأدب  
والسياسة والاقتصاد ، ويقدم بحوثا في الأدب الفرنسى والصينى إلى  
جانب نقد سياسة شق المصارف وغيرها من الأوضاع الداخلية  
والخارجية ..

وفي عام ١٩٠٠ أصدر «المجلة المصرية» لحسابه الخاص وكانت  
نصف شهرية ، وبعد عامين أصدر جريدة يومية أسماها «الجوائب  
المصرية» وقد صدر العدد الأول في ٦ فبراير سنة ١٩٠٣ يحمل في  
صفحته الأولى دستور الجريدة والأبواب التى ستعنى بنشرها ، وقارىء  
هذه الافتتاحية سيلحظ على الفور أن «خليل مطران» قد وضع فيها أهم  
أسس الصحافة المصرية الحديثة ، وابتكر معظم الأبواب التى مازالت  
صحفنا تواظب على نشرها حتى يومنا هذا . . .

وأسهـم «خليل مطران» مساهمة فعالة في نهضتنا المسرحية المعاصرة ، فحينما عاد المرحوم «جورج أبيض» من فرنسا اتصل به ، فترجم لفرقة بعض مسرحيات شكسبير المشهورة مثل «عطيل» و«تاجر البندقية» و«ماكبث» و«هاملت» . . . فكانت أول ترجمات أدبية عربية لمسرح شكسبير . . . على أننا ينبغي أن نأخذ ترجمة «مطران» لأثار شكسبير بشيء غير قليل من الحذر ، فهي لا تخلو من حذف وتحريفات ، وميل إلى الإغراب في الألفاظ ، ويرجع الأستاذ «ميخائيل نعيمة» أنه ترجم «تاجر البندقية» عن اللغة الفرنسية ، وليس من أصلها الإنجليزى . . ولكن هذه الحقيقة لا تقلل من فضل هذه الترجمات الأولى على تطور حركتنا المسرحية ، فإذا أضفنا إليها أن «خليل مطران» كان من بين المسهمين في تأسيس شركة التمثيل العربية ، كما كان أول مدير للفرقة القومية منذ انشائها عام ١٩٣٥ حتى أخريات أيامه ، وأن الفرقة في عهده مهما قيل في إقبال الجمهور عليها ، قدمت عددا ضخما من الروائع المسرحية المصرية والمترجمة . . . أقول إذا أضفنا ذلك أدركنا حقيقة الخدمات التي قدمها الرجل لمسرحنا ، بالإضافة إلى أثره الواضح في شعرنا الحديث وصحافتنا .



ولقد امتد العمر بخليل مطران حتى أشرف على الثمانين ووهنت منه القوى وفترت الهمة ، ولكن ظلت قيثارته تردد بين الحين والآخر أصفى الأنغام وأعتقها ، ومن أروع تلك الأنغام الأخيرة تلك القصيدة

التي أسماها «الشاعر يوقع على وتره الأخير لحن الرضى وسكينة النفس» .

وقد عبر فيها بصدق وإبداع عن حالته وحالة كل أديب صادق في بلادنا حينما تبلغ به السن ما بلغت به خليل مطران ، وتعصف به الأيام مثل عصفها به :

ماذا يريد الشعر مني  
أضني على علو سنى  
هل كان ماذهبت به الـ  
أيام من دأبي وفنى ؟  
أحسنت ظنى واليا  
لى لم توافنى حسن ظنى  
ورجعت من سوق عرض  
ت بضاعتى فيه بفن  
أفكان ذلك ذنبها  
أم كان ذنبى ؟ لا تسلى  
خمدت بى النار التى  
رفعت بعين المعصرشان  
ولى الربيع وجف عو  
دى وانقضى عهد التفنى  
وعدمت لذات الرؤى  
وعدمت لذات التمنى  
إن ختمت العيش فى  
وادي المخيلة ، أو كائن

(يوليو ١٩٥٩)

شعر وشعراء - ٢٢٥

(٢٦)

عبد الرحمن شكري  
ومفهومه للشعر

ما الذى يدفع شاعرا كبيرا كعبد الرحمن شكرى إلى أن يضع على أغلفة خمسة من دواوينه السبعة أبياتا يشرح فيها معنى الشعر ، ثم يصدر كل دواوينه ما عدا الأول بمقدمات بعضها موجز ، وبعضها مستفيض ، كلها تشرح وفي شيء الإلحاح مفهومه للشعر ، وتغنى عنه بعض المفاهيم التى لا ترضيه ؟

ولا يكتفى «عبد الرحمن شكرى» بذلك ، بل ينظم ما لا يقل عن عشرين قصيدة يتحدث فيها عن موقف الشاعر من الحياة والطبيعة ، ويناقش فيها وفي غيرها كثيرا من قضايا الأدب والفن . ما الذى يدفعه إلى كل ذلك إن لم يكن مؤمنا أعمق الايمان ، بأنه يقدم مفهوما جديدا للشعر على أدبنا العربى ، وأنه يبشر بمذهب مبتكر من مذاهب القول يحتاج إلى إعادة الشرح والتبيان حتى تستقر معالمه فى الأذهان ؟

ومن عجب أنه كلما تقدمت به السن ، وازداد رصيده من الشعر ومن الدواوين ، كلما ازداد شكاً فى حسن تقبل الناس لمذهبه ، وآمن بحاجته الملحة إلى الشرح المسهب ، والبيان المستفيض ليسمع من بأذانهم وقر . . وقد يكون الشاعر وإهما فى شكه ، مخطئا فى اعتقاده ، ولكن الذى لا شك فيه أن هذا الاحساس الضخم بسوء تقبل الناس لشعره ، وعدم قدرتهم على هضمه واستساغته كان من أقوى الأسباب التى عجلت بمحتته النفسية القاسية التى عاش معظم أيامه بين عذاباتها ، وعانى منها الكثير مما يتضح آثاره فى شعره وفى نظراته الحزينة المتشائمة للحياة والناس .

ان الشاعر يكتفى بأن يصدر ديوانه الأول بهذا البيت القصير :

ألا                      باطائر                      الفردو  
س                      إن                      الشعر                      وجدان

فيلخص في هذه العبارة الموجزة - «إن الشعر وجدان» - مذهبه الشعري الذي يؤمن بالعاطفة الصادقة كأساس للشعر الخالد الباقي ، ولكنه يعود في مقدمة الديوان الثالث فيوضح ما يقصده بالعاطفة في الشعر فيقول :

« ولا أعنى بشعر العواطف رصف كلمات متينة تدل على التوجع أو ذرف الدموع ، فإن شعر العواطف يحتاج إلى ذهن خصب ، وذكاء ، وخيال واسع لدرس العواطف ومعرفة أسرارها وتحليلها . . »

فالشعر عند عبد الرحمن شكري ليس مجرد انفعالات عاطفية ساذجة ، وإنما يتطلب إلى جانب صدق العاطفة طول التجمل والتدبر ، ومن هنا أسماه الدكتور محمد مندور «شاعر التأمل النفسى أو الاستبطان الذاق» ورأى أنه يجمع في شعره بين التيارين اللذين يمثلهما «العقاد» و «الماذن» : الأول باتجاهه الإرادى العقلى الواعى بما يريد ، والآخر بعاطفيته المتعمدة المتشائمة ، مع تفوق واضح في شاعريته كانت السبب المباشر فيما نشب بين الأصدقاء الثلاثة من خلاف أدبى وشخصى ، ترك أثره القوي في شعر شكري نفسه ، وبالتالي في مفهوم الشعر عنده وأنت لا تستطيع أن تذكر «عبد الرحمن شكري» دون أن تشير إلى هذا الخلاف الذى ترك في نفسه ندوبا لم تشفها السنون ، فقد

كان شديد الاحساس بتفوق شاعريته ، وبقلة ما يلقاه من تقدير  
وتكريم ::

قد طال نظمى الأشعار مقتندرا  
والقوم فى غفلة عنى وعن شأن  
قد أولعوا بكبير السن أو رجل  
بنى له الجاه ما يملو له الباني  
ولوسفلت إلى حيث القريض لقا  
بين الأثافي وربع المنزل الفاني  
ولوسفلت فقلت الشعر مبتذلا  
فى وصف مخترع أو ذم أزمان  
لقليل : نعم لعمري أنت رجل  
جم المحاسن من صدق وتبيان  
. وإنما الشعر مرآة لفانية  
هى الحياة فمن سوء وإحسان  
وإنما الشعر إحساس بما خفقت  
له القلوب كأقدار وحدثان  
ويقول فى قصيدة أخرى .

فيا قوم ما للجهل ملأ عيونكم  
ألستم ترون الدائرة تدور  
إذا صاح ذاك المعير فيكم صياحه  
طربتم وقلتم شاعر وكبير  
ويزعجكم أن الطيور صواح  
ويطربكم أن الفناء نعيم

أصاب ذكائى منكم برد طبعكم  
وأطفأ منى القلب وهو قدير  
ويصدأ طبعى فى خبيث هوائكم  
وجوكم بالدهيات يمور

ويزداد هذا الإحساس بالبحود لدى الشاعر حينما يجد «المازى»  
وهو أعز أصدقائه يشن عليه حملة نقدية مغرضة يتهمه فيها بالجنون ،  
ولا يبنى يسهفه اتجاهاته الشعرية والفنية ، ويجد شكرى نفسه أقل  
الأصدقاء الثلاثة مكانة ، فى حين أنه أصدقهم موهبة ، وأقواهم  
شاعرية ، فيعنف فى الدفاع عن اتجاهاته ، ويتخذ أسلوبه فى مقدمة  
الجزأين الرابع والخامس لهجة صريحة قاسية وهو يدافع عن مذهبه  
الشعرى ، ويهاجم المدرسة القديمة المحافظة فيقول :

« قد أصبح الشعر عندنا كلمات ميتة ، ليس تحتها طائل  
معنى ، ولقد فسد ذوق المتأخرين فى الحكم على الشعر حتى صار الشعر  
كله لا طائل تحته . . . »

«إذا تدبرت ما ذكرته عرفت فساد ذوق الجمهور فى حكمه على  
الشعر المزدول ويعده جيداً ويعاف الشعر الجليل الصادق الخيال الكثير  
الحقائق»

غير أن هذا الإحساس القوى بالبحود وقلة التقدير ، لا يوثس  
عبد الرحمن شكرى لأنه يدرك « إن الشاعر الكبير يخلق الجيل الذى  
يفهمه ويبيته لفهم شعره ، والشاعر العبقري يعلم أن حياة الشاعر  
حرب أدبية ينجلى بعدها النقع فيعرف الظافر والمهزوم .  
وهو لم ين لحظة واحدة عن الدفاع عن مفهومه الجديد للشعر



واضططر إلى أن يقوم بدور الناقد إلى جانب دوره الأساسى كفنان خالق ، وظل يوضح للقراء بدييات أولية فى مفهوم الشعر ، أصبحت اليوم من المسلمات إلا فى فى نظر قلة قليلة من أشياع الجمود والتخلف .

ولتقرأ قوله فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه «قيمة البيت فى الصلة التى بين معناه وبين موضوع القصيدة» وهجومه على أولئك الذين يرون جمال الشعر من كثرة التشبيهات ، «فالتشبيه لا يراد لنفسه ، وإنما لتوضيح علاقة الشئ الموصوف بالنفس البشرية ، والوصف نفسه لا يمكن أن يكون شعرا ما لم يكن مقرونا بعواطف الإنسان وخواطره وذكره وأمانيه ، وصلات نفسه»

ويعضى شكرى ليهدم كثيرا من الأوهام الخاطئة ، فى فهم جيله لحقيقة الشعر ، فيهاجم الذين يسعون وراء الغريب من الألفاظ والتعابير ، ويقسمون الكلمات إلى شريفة ووضيعة حسب كثرة استعمالها أو قلته ، وينتهى من هجومه إلى القول بأن «الغرابية لا تستعصى على أحد وإنما الصعوبة فى الجمع بين المتانة والسهولة .»

وأولئك الذين يظنون أجمل الشعر أكذبه واهمون مخدوعون ، فليس الشعر كذبا ، بل هو «منظار للحقائق ومفسر لها» وليست حلاوة الشعر فى قلب الحقائق ، بل فى إقامة الحقائق المقلوبة .

وإذا كان العقاد قد فرق فى مقدمة الجزء الثانى من ديوان شكرى بين شعر الإفرنج وشعر العرب على أساس الاختلاف بين العقليتين الآرية والسامية ، فإن شكرى يرفض هذا التفريق ويطالب الشاعر

العربى بمداومة الاطلاع على آداب لغته وآداب الغرب لأن «الاطلاع شراب روح الشاعر ، بشرط ألا ينزلق إلى السطو على أفكار الغير» .  
وإذا كانت هذه الآراء وغيرها من الآراء التي دافع عنها شكرى في مقدماته وقصائده قد أصبحت بديهيات لدينا اليوم فهي لم تكن كذلك يوم كان شكرى يقول شعره . . فلا شك أننا مدينون له بالكثير فيما يتعلق بتصحيح مفهوم الشعر في أذهاننا . . . .

وإذا كانت معظم هذه الأفكار ليست من إبداعه ، وإنما تأثر فيها بآراء الشعراء الغربيين وأشعارهم ، والرومانسيين منهم بصفة خاصة ، فلا شك أنه أحسن النقل والتأثر ، ولم يكتف بأن دافع عن هذه الآراء ، وإنما أحسن تمثيلها في شعره عن اقتناع وأصالة .

(ديسمبر ١٩٦٠)

(٢٧)

أحمد فتحي

شاعر الكرنك

كلما قضى شاعر أو أديب . . . سارعنا إلى أقلامنا ننعاه إلى  
القراء ، ونشيد بذكره وأفضاله . . وقد اتخذنا مسوح الأوفياء  
المخلصين . . أما وهو حى فقلنا نعبأ بكتابة سطر عنه . . اللهم إلا  
إذا كان من أصحاب الحظوة والنقود . . أو من أهل الرواج  
والمآدبات . . تلك طبيعتنا . . وطبيعة الحياة . . ولن نستطيع لسنة  
الحياة تبديلا !

وفى هذا الأسبوع فقدنا الشاعر الرقيق «أحمد فتحى» الذى طالما  
طربنا لأغاريده الغذاب يغنيها كبار المطربين والمطربات . . غنى له «عبد  
الوهاب» «الكرنك» منذ عشرين عاما . . وغنى له «رياض  
السنباطى» . . «فجر» ، و «النيل» و «همسات» ، وغنى له «محمد  
صادق» والمرحومة «أسمهان» ، و «لورد كاش» . . . وأخيرا غنت له  
«أم كلثوم» فى العام الماضى «قصة الأمس» .

وخجلت من نفسى ، وأنا أبحث عن ديوانه . . بل خجلت من  
حركتنا النقدية كلها التى لم تلتفت إلى هذا الشاعر فى حياته . . وازددت  
خجلا وأنا أقرأ هذه الأبيات فى قصيدة «أحزان البيان» :

ألست بالصائغ الشعر الذى هتفت  
به المراكب فى ساح ومضمار  
ماذا ألدت بأشعارى وروعته  
سوى علالة تخليد لآثارى !

وما الخلود بميسور لمأريه ...  
 غير الخسيسين من ترب وأحجار  
 ماذا أصاب «امرؤ القيس» الذى عرفوا  
 من عبقريته مأنور أخبار ؟  
 غنت بآياته الأجيال واستبقت  
 تزجى له الحمد فى موروث أسفار  
 ولات حين ثناء ليس يسمعه  
 سوى الذى صاغه من جود مكار  
 فيم الثناء على الموق ، أتمنحهم  
 در المدائح ، فنظارا ، بقنطار  
 وهل يرد عليهم طيب عيشهمو  
 طيب الثناء إذا وافى بمقدار ؟  
 يا ضيعة الفن ، إن لم تمتلئ يده  
 بدرهم ، يكفل الدنيا ، ودينار

ووجدتني أردد مع الشاعر الراحل دون وعى :

نعم . . يا ضيعة الفن فى بلد يحتاج فيه الفنان إلى أن يموت أولا حتى  
 يذكره الناس ويثنوا عليه حينما لا ينفعه ثناء ولا حمد . . على أننا لن نثنى  
 عليه هنا ، فما عاد فى حاجة إلى ثنائنا . . وإنما سنحاول أن نتعرف على  
 بعض سمات فنه ، لمنفعتنا نحن لا لمنفعته . .



مع ازدياد خبراتى بالشعر والشعراء ، بدأت أعتقد أن لكل شاعر  
 كبير موضوعه الذى تخلق فيه شاعريته إلى أروع قممها . . . قد يقول  
 شعرا جيدا فى عدة موضوعات أخرى ، ولكنه فى هذا الموضوع بالذات

دون غيره يتفوق على نفسه ، ويترنم بأصدق الأنغام وأكثرها تأثيرا في النفوس . . فلم أعد اعجب اليوم لما كان يقوله العرب القدماء من أن «أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب» . . بل أصبحت أعتقد أن واجب الناقد الواعى أن يبحث في مجموع أعمال الشاعر عن تلك النغمة الأصلية التي تخلق فيها شاعريته إلى ذروة إبداعها .

ونخيل إلى أن أقوى نغمة في شعر «أحمد فتحي» هي نغمة الحزن المتشائم والإحساس بالضيق وعدم التقدير رغم إدراكه الواضح لسمو مواهبه وامتيازها . . نحس بذلك في الأبيات التي سقناها في مستهل الحديث ، وفي كثير من قصائد ديوانه «قال الشاعر» التي يجتر فيها ذكريات الماضي ، ويعيش وحيدا مع خيالاته وأوهامه ، ويمزج أحزانه وأشجانه بجمال الطبيعة شأن كل الشعراء الرومانسيين الأصلاء :

أى سحر بعثت شمس الأصيل  
في ضياء شاحب اللون خجول  
ونسيم واهن الخطو عليل  
راح يلتف بأعناق النخيل  
آه من ذكرى مع الليل تعود  
هى طيف ناهل ، واه ، بعيد  
يملا الأفاق ، والقلب وحيد  
يمتد النجوى ، ويبدى ويميد  
طال حرمان وصبرى وحنينى  
وسما بى خاطرى ملء السكون

أرهف السمع إلى صوت السنين  
هائما بين فتون وذمولى  
ياخيالى هذه الدنيا لنا  
ليس إلا- أنت، فيها، وأنا  
نقهر الدهر ونطوى الزمن  
ونرى فى كل واد وطننا  
فيم نشكو العمر والجرح القديم؟  
والهوى اليأس واللوعة، فيما  
نحن صورنا من الوهم نعيما  
فى ربيع باسم ضاح، جميل

ولا ريب أن لهذه الحالة النفسية الحزينة المتشائمة أسبابها الخاصة  
والعامة ، التى انتهت بالشاعر إلى اعتزال الناس والحياة وحيدا فى فندق  
من فنادق القاهرة خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته ، والأسباب  
العامة لهذه الحالة تلمس آثارها بوضوح فى قصيدته «وادي الجحود» التى  
قالها عام ١٩٣٦ وتحدث فيها عن أقاويل الحساد والشائنين وكيدهم له ،  
ومقابلتهم إحسانه بالإساءة . . . وفى حديث للشاعر نشرته مجلة  
«الإذاعة» فى أوائل عام ١٩٦٠ وقال فيه :

«زهدت لكثرة ما أصابنى من شرور الناس .. وانتهيت إلى رأى  
أتشبه به الآن وهو قول المتنبي :

«صديقك أنت . . . لا من قلت خلى

وان كثر التجمل والكلام»

أما الأسباب الخاصة لهذه العزلة الحزينة فيمكن أن نستشفها من  
قصائد الشاعر العاطفية ، وسنجد أن غالبيتها تروى ذكريات حب

قديم وتنكأ جراحا بعد بها العهد . . وهكذا انتهى الشاعر إلى هذه الحالة الحزينة المتشائمة التي أنطقته أروع شعره ، وارتبط بكل وجدانه بالماضى وبذكرياته الجميلة الضائعة . . . ومنها ذكرياته في الاسكندرية مسقط رأسه ، فنجدته يقول في مقال له بجريدة «الشعب» . . . .

« . . كنت في الشرق والغرب ، اتخذ لنفسى في أحيان كثيرة اسما مستعارا هو «أبو الفتح السكندري» الذى كنت ومازلت أتمثل بقوله :

اسكندرية دارى ، لو قر فيها قرارى  
لكن في الشام ليلى وفي العراق بهارى

وكيف يعق ولد مثل أما كالإسكندرية وهو من هويين أوفى الأوفياء وأبر البررة ، وهى ما هى بين ينابيع المعرفة ومناهل العلم ، ومشارك الفكر الإنسانى ؟»

وإلى جانب هذا الشعر الوجدانى الرومانسى ، وقال «أحمد فتحى» قصائد عديدة في مختلف المناسبات الوطنية ، فدعا العرب إلى الوحدة واليقظة للأخطار المحيطة بهم في قصيدته «محنة العرب» ودعا مواطنيه إلى التمسك بالدستور وحرية الانتخابات عام ١٩٤٢ ، وتغنى بالسلام وندد بدعاة الحروب عام ١٩٣٩ ، وصور حرب الحبشة ومحنة فلسطين عام ١٩٣٩ ، وأنشد في نفس العام قصيدة طويلة رائعة في ذكرى سعد زغلول .  
وفي مستهل شبابه كتب «أحمد فتحى» رواية عنوانها «الله والشيطان» ، وترجم عدة كتب من بينها «فن الحياة» لأندريه موروا ، و«جان كريستوف» لرومان رولان ، وأسهم في تحرير عدة صحف ومجلات . . نذكر منها فصوله الأدبية والاجتماعية في جريدته «الشعب»



«والمساء» .. وقد راجعت عددا من مقالاته الأخيرة . فراعنى فيها كثرة ذكره للموت بصورة تؤكد إحساسه الداخلى بقرب منيته .. ومن أوضح الأمثلة على ذلك مقاله المنشور فى «المساء» يوم ١٩ مايو ١٩٦٠ ، أى قبل وفاته بأقل من شهرين وقد جعل عنوانه «أقلام بلا دموع .. ودموع بغير أقلام» ..

\*\*\*

وبعد ، فلقد صدر ديوان الشاعر الوحيد عام ١٩٤٩ ، ومن يومها قال شعرا كثيرا لم يجمع حتى الآن فى ديوان ، وكتب نثرا لم ينشر فى صحيفة أو كتاب .. وواجب أصدقائه الأدباء الآن أن يسارعوا إلى جمع هذه القصائد والكتابات ، ويسجلوا ما يعرفونه عن حياته التى لا نعلم عنها إلا القليل .. ثم يتقدمون بما جمعوه وكتبوه إلى وزارة الثقافة والارشاد لتتولى نشره .. فنكون بذلك قد أدينا للشاعر الراحل بعض حقه الذى لم ينل شيئا منه فى حياته .

(يوليو ١٩٦٠)

(٢٨)

نزار قباني  
شاعر النهد

قد يوحى عنوان هذا المقال أن كاتبه من أتباع المدرسة النفسية في دراسة الأدب ، وهذا غير صحيح ، ففى اعتقادى أن العمل الأدبى ، ككل ظاهرة فنية أخرى ، تكوين شديد التعقيد ، لا يمكن تفسيره تفسيراً كاملاً برده إلى عامل واحد فى كل الأحوال . وإذا كان لابد مع ذلك من تقديم عامل على بقية العوامل الأخرى ، فلعل أميل إلى تقديم العامل الاجتماعى ، دون إغفال ، بطبيعة الحال ، للقيم الجمالية التى لا يمكن اعتبار العمل أدباً ؛ أو فناً ، دون توفر حد أدنى منها .

غير أن هذا الميل لتقديم العامل الاجتماعى فى الدراسة الأدبية ، لا يجعلنى أغض عيني عن بقية العوامل التى تتدخل فى تشكيل العمل الأدبى وتجديد ملامحه ، بل إنى كثيراً ما أتصور أن خير منهج يتبعه الناقد فى دراسة الأعمال الأدبية ، ألا يكون له منهج صارم محدد من قبل يخضع له كل الأعمال الأدبية على اختلاف مذاهبها واتجاهاتها ، وأن يدع كل عمل يحدد له منهجه ووسائل دراسته وتفسيره ، على أساس من طبيعته والعوامل المختلفة التى تداخلت فى تشكيله وتحديد سماته .

ومنذ زمن بعيد ، وشعر «نزار قباني» يستهوينى برقته ، وجراته ، وموسيقاه الزاعقة ، ويغرينى بالإقدام على دراسته ، ومحاولة تبين خصائصه ومقوماته . وحين أعدت قراءته أخيراً تبين لى بوضوح أنه لا سبيل إلى فهمه فهماً متكاملًا دون الاستعانة بنظريات علم النفس الحديث ، وبالذات «فرويد» عن الغريزة الجنسية ، ومراحل نموها وانحرافات المختلفة .

وليس هذا بالأمر الغريب ، فكل من كتبوا عنه من قبل اتفقوا على

تلقيبه بشاعر المرأة ، ومنهم من أسماه عمر بن أبي ربيعة الشعر العربي الحديث . وهذا أمر طبيعي بالنسبة لشاعر يدور كل شعره - باستثناء بضع قصائد قليلة - حول المرأة ، يتغزل فيها ، ويصورها في مختلف المواقف والأوضاع ، ويناجيها ، ويتحدث بلسانها ، ويفنى فيها ويقدمها ، ويهجوها ويلعنها . أما الجديد الذي سيحاول هذا المقال أن يقوله ، فهو أن «نزار» شاعر امرأة من طراز خاص ، وأن علاقته بها ، كما يعكسها شعره ، تمثل ظواهر نفسية جديرة بالتفات المحلل النفسي ، بالإضافة إلى ما تقدمه من قيم جمالية ، ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون لهذه الظواهر النفسية أثرها الواضح في تحديد خصائص شعر «نزار» وتميزه بنكهة فنية خاصة يتفرد بها بين شعراء العربية ، قل أن نجد نظيرا لها عند شعراء العرب .

وأوله ما يلفت النظر في شعر نزار في المرأة أن غالبية العظمى تدور داخل دائرة مغلقة قلما يخرج عنه ، وهي دائرة الغزل الحسى المسرف في الواقعية ، والشوق العارم إلى مفاتن الجسد ، ووصف العاهرات والمجانن والمتهالكات ويرى محيى الدين صبيحى في كتابه «نزار قباني شاعرا وإنسانا»<sup>(١)</sup> أن نزار في هذه الناحية الأخيرة متأثر بأبى شبكة وبعض الشعراء الفرنسيين ، فيقول :

«أما قصائده المستوحاة من جو الفحش والعهر والمواخير . . فنحن نرى أنه لا يصدر فيها عن طبع أصيل ، بل هو شديد التأثير بالجو الثقافى الذى يعيشه : جو أبى شبكة ، وبودلير ، ورامبو ، بدليل تأثره بطريقة الأداء عند غيره من الشعراء ، وإن كانت تجاربه المحدودة تفيد انتقاء الزوايا وتغنى تعابير ومعانيه . . .» وفى موضع آخر من نفس الكتاب يلاحظ المؤلف

(١) بيروت ، دار الأدب ، ١٩٥٨

تأثر «نزار» في ديوانه «أنت لى» تأثرا واضحا بديوان «أنت وأنا» للشاعر الفرنسي «بول جيراودى» إلى درجة فقد معها «كثيرا من عفويته نتيجة لتأثره خطى غيره ، حتى أننا نشعر أن الشاعر (احترف) نظم الشعر وتكلف في بعض الديوان . . .»

وعندى أن «نزار» في غزله الحسى بشكل عام ، بالإضافة إلى التأثيرات التى أشار إليها محبى الدين صبحى ، إنما هو استمرار طبيعى للغزل فى شعرنا العربى القديم ، والجاهلى منه بصفة أخص ، فلم يكن الشاعر الجاهلى هو الآخر ، يرى فى المرأة أكثر من جسد جميل يفتنه بتكوينه وإثرائه ، ويثير شهيته للمتعة الحسية ، مع اختلاف بالطبع بين الصور والإحياءات الجاهلية والصور والإحياءات الحديثة فى شعر نزار .

غير أنه إذا كان لشعراء الجاهلية عذرهم فى هذه النظرة الضيقة المحدودة للمرأة والحب ، لأن يبتتهم كانت مجدبة ، وحياتهم بدائية قريبة للفطرة ، وثقافتهم ضيقة محدودة الأفاق ، فإن «نزار» شاعر عصرى بكل معانى الكلمة ، ثقافته عميقة متنوعة وجاب أقطارا أوربية كثيرة ، وعرف نماذج عديدة مختلفة من النساء ، لاشك أن من بينهن المثقفات والفنانات والعاملات فى شتى المهن والمناصب . أفليس من الغريب بعد ذلك أن تظل نظرتة للمرأة قاصرة على الجانب المادى ، وألا يبرز فى شعره من مختلف تجاربه معها غير التجربة الحسية المثيرة ١٩ . إن هذه الحقيقة فى حد ذاتها تكون ظاهرة نفسية غريبة تستوقف النظر وتدعو الى التأمل والدرس

وليس فيما نذهب إليه جور أو افتئات على موقف نزار من المرأة فما أكثر ما أكدته بنفسه فى شعره ، ومن ذلك قوله فى قصيدة بعنوان «ورقة إلى القارىء» قدم بها ديوانه «قالت لى السمراء» :

بأعراقى امرأة تسير مسمى  
 فى مطاوى الردا  
 تنفخ .. وتنفخ فى أعظمى  
 فتجعل من رثى موقدا  
 هو الجنس أحمل فى جوهرى  
 هيولاه من شاطئ المبتدأ ..

والأمثلة الأخرى كثيرة فى دواوينه حيث عبر عن تعلقه الشديد بالمرأة «الجسد» وابتثانه بها ، واشتهائه العارم لها ، ولم يكد يترك عضوا فى جسدها لم يصفه ويتغزل فيه ، ابتداء من الأقدام والسيقان حتى الشعر والعيون . . حتى شعر الإبط لم ينج من لمسات ريشته الجريشة ، وما عليك إلا أن تفتح أى ديوان من دواوينه ليتأكد لك صدق ذلك «ونزار» فى تجسيده لجمال المرأة وتصويره لمفاتن جسدها ، يتوقف دائما وبالخاص يستلقت النظر عند عضو معين من أعضائها يبرع بصفة خاصة فى وصفه ، ويتفنن فى رسم أضوائه وظلاله ، بصورة لا تتكرر مع أى عضو آخر ، ولعلنا لا نعثر لها على نظير عند أى شاعر آخر . . . فهو لا يصف جمال امرأة دون أن يرسم صورة قوية موحية لتهديها ، ولا يشاق لأخرى إلا ويكون نهداها أبرز ، وربما أول ، ما يحن إليه فيها ، ولا يودع ثالثة إلا ويكون لتهديها مكان الصدارة فى هذا الوداع ، ولا يهجور رابعة أو يستنزل اللعنات عليها ، إلا ويكون النهدان من بين عناصر هذا الهجاء ، المقذع فى أغلب الأحوال ويستخدم فى ذلك كله العديد من التشبيهات والصور الشعرية القوية المبتكرة التى تغلب عليها الحدة والشهوة القوية المستثارة ، بحيث يمكن القول إن وصف التهدين

هو أبرز ميدان تتجلى فيه شاعريته وتتفوق ففي دواوينه الصغيرة الحجم مائه وعشرين بيتاً يتغزل فيها بالهنود وتصفها وهو عدد لم يحظ بمثله أى موضوع ، أو أى عضو آخر من أعضاء الجسد الأنثوى . ولنزار ديوان كامل أسماء «طفولة نهد» وكثير من قصائده في هذا الديوان وغيره ، تدور كلها ، أو معظمها حول ذلك العضو الجميل المثير مثل : «حلمة» و«مصلوبة النهدين» ، و«الصليب الذهبي» ، «رافعة النهد» و«نهداك» ؛ «مدنسة الحليب» «شمعة ونهد» .

لذلك قد يكون وصفه بشاعر الهنود أصدق وأدق وأكثر تخصيصاً من وصفه بشاعر المرأة ، فالمرأة في نظره وإحساسه نهد قبل أن تكون أى شيء آخر :

«أتركيني أبنيك» شعرا وصدرا . . أنت لولاي يا ضعيفة طين .  
ولا يستثيره في المرأة شيء بقدر ما يستثيره النهد :

«أحبها أقوى من النار  
أشد من عويل باعصار  
أقسى من الشتاء حبى لها  
فيها من دفق أمطارى  
لو مر تفكيرى على صدرها  
حرقتها حرقاً بأنكارى  
أو أفكنت حلمتها صدفة  
حدجتها بعين جزار»

وحيث تغيب حبيبته عنه ويستعيد ذكرياته معها يكون نهداها أهم ما يحن إليه فيها :

« هل أنت أنت ، وهلا زلت .. هاجمة التهدين مجلوة ، مثل  
التصاوير وصدرك الطفل .. هل أنسى مواسمه ، وحلمتاك عليه ،  
قطرتا نور»

وحين تقبل عليه حبيبته يكون أول عضو يلفته فيها هو نهدها :  
«وأقبلت مسحوبة ، يخضر تحتها الحجر  
ملتفة بشالها ، لا يرتوى ، منها النظر  
أصبى من الضوء ، وأصبى من دميغات المطر  
تحفى نهيدا ، نصفه دار ، ونصف لم يدر»

حتى ذكريات الطفولة والصبا ترتبط في ذهنه أكثر ما ترتبط بنهد  
حبيبته «الصبي الذى لم ينفر» على حد تعبيره في قصيدة «العين الخضراء»  
وحين يهدى ديوانه إلى حبيبته في قصيدة «منى» يقفز النهدان - لا تدرى  
كيف - ليحتلا صدر اللوحة :

ولتقرأ به بعمق ، ولتسبلي جفنيك  
ولتجعليه بركن مجاور نهديك»

ويدور حول المعنى نفسه في قصيدة «معجبة» :

«تقول : أغانيك عندي تعيش بصدرى كمقدى

وشعرك ، هذا الطليق .. الأنيق لصيق بكبدى  
فمنه أكحل عيني ، ومنه أعطر نهدي»

ويتمنى الشاعر في قصيدة «عيد ميلادها» أن يملك أثنى ما في الوجود  
ليصنع منه هديه لحبيبته ، فإذا بالهدية رافعة لنهدا ومحبس لزندها .  
ولكن رافعه.النهد تأق أولا بطبيعة الحال :



«لو بيدى الفرقد  
الدر والزمرد  
فصلتها جيمها  
رافعة لهدنا  
ومحبسا لزندها  
هدية صفيرة»

والحق أن أئمن ما فى الوجود فى نظر الشاعر هو المهدى إليه أى  
النهد - لا الهدية :

«رافعة النهد ، أحيطى به ، كوى له ، أحنى من الخاتم  
قد يجرح الدنتيل إحساسه ، فخففى من قيدك الظالم  
هذا الذى بالفت فى ضمه أئمن ما أخرج للعالم» .

وحين يمل الشاعر المرأة ويضيق بها ويثور عليها ، فإن للنهد كذلك  
مكانه البارز فى تلك الثورة :

«حسبى بهذا النفخ والهمهمة  
يا جولة الثعبان .. يا مجرمة  
زلقت من أهلك لم تستحى  
زحفا الى غرفتى الملهمة  
مفكوكة الأزارار عن جائع  
يصبو الى النجم لكى يقضمه  
وبهك الملتف فى ريشة  
كالأرنب إلى يدنى فمه

كالأرنب الأبيض في عدوه  
الله .. كم حاولت أن أرسمه  
هذا الذى يطفّر فى مخدعى  
هل ظل شيء بعد ما حطمه

وكذلك

«مغامرة النهد ... ردى الغطاء  
على الصدر والحلمة الأكلة  
لقد غمر الفجر نهديك ضوءاً  
فعودى إلى أمك النافلة،

وإذا كان الشاعر يفتن بالنهد .. الصبى . النضر ويتفنن فى وصف  
جماله ونضارته :

«أحبك تعتزيز فى خمس عشرة  
ونهدك فى خير ، وخصرك معتل،

، «مراهقة النهد لا تربطيه ، فقد أبدعت ريشة الله رسمه  
وسوقيه زوبعة من عبير ، تهل على الأرض رزقا ونعمه  
هو الدفاء ، لا تذعري إن رايت قميصك يشكو .. تدافع القمه  
فما عدت ، يا طفلى ، طفلة ، يهوى الشتا غيمة بعد غيمة  
ويخرج من فجوة الثوب نهد .. ليأكل من نسيم الضوء نجمه  
وصدرك مزعة الياسمين ، تفتق حلمة بعد حلمه،

إذا كان الشاعر مفتونا بالنهد الصبى النضر ، فإنه شديد النفور من النهد  
حين يشيخ ويذبل ، ويتخذ أداة جارحة للهجو ، كما اتخذ الأول وسيلة  
فعالة للغزل والإثارة

«نهدها حبة تين نشقت  
رحم الله زمان اللبن»  
«لا إني قرفتك ناهدا متديلا ،  
وقرفت تلك الحلمة المهترئة»

وكما أن النهد عند الشاعر رمز الحب والاشتهاء ، فكذلك تتجسد  
فيه الخيانة أكثر مما تتجسد في أى عضو آخر .

«ويا زوجة الأجيال هل ثم واحد على  
الأرض  
ما صيرت نهدك مسنده»

\*\*\*

والنهد في نظر «نزار» ليس عضوا متكاملا في كل الأحوال ،  
فكثير ما ركز اهتمامه على الحلمة وتفنن في وصفها والتشبيب بها ، فهي  
حيناً حلمة «آكلة» وحيناً «حمقاء» . . . . والحلمتان «قطرتا نور» مرة ،  
ولونها بدمعه مرة أخرى . . . وهكذا مما يتبدى بصورة واضحة في  
قصيدته «حلمة» :

سمراء .. بل حمراء .. بل لونها  
شعورى دميعة حافية في ملمب عمري  
أم قبلة تجمدت في نهدك الصغير  
وارتسمت شرارة خيفة الهدير  
تمز هزى وثورى يا خصلة الحرير  
يا مبسم المصفور يا أرجوحة العبير  
يا حرف نار . . . سابحا في بركتي عطور

يا كلمة مهموسة مكتوبة بنور  
فراشة منطوطة الجناح في غدير  
ونجمة سكسورة الريش على الصخور  
دافئة كأنها مرت على ضميري  
يا حبة الرمان جنى والعبي ودورى  
ومزقى الحرير .. يا حبيبة الحرير،

وهذا التركيز الشديد على الحلمة ، يلفتنا إلى ظاهرة أخرى على  
أكبر قدر من الأهمية ، فالنهد عند الشاعر ليس مجرد عضو أنثوى جميل  
يفتنه ويستثير شهوته ، وإنما هو مرتبط في ذهنه ارتباطا وثيقا بلذة المص  
والرضاع ، والشواهد على ذلك في شعره كثيرة فهو يقول في قصيدة «إلى  
مصطافة»

«واطعم حلمتك الناهدة»

وفي قصيدة «مدنسة الحليب ، نجد هذه الأبيات :

«اطعميه من ناهديك اطعميه  
واسفحي أعكر الحليب بفيه  
اتقى الله في رخام معرى  
خشب المهد كاد أن يشتهيه  
نشفت فورة الحليب بشديك  
طعاما لزائر مشبوه  
إن هذا الغداء يفرزه بشديك  
ملك لصغير لا تسرقه  
إن سقيت الزوار منه فقدما  
لمق الهر من دماء بني»

ويتكرر نفس المعنى في قصيدة « الى عجوز » :

صيرت للزوار ثديك قربة  
إما ارتوت فثة عصرت الى فثة  
فبكل ثغر من حليبك قطرة  
وقرابة في كل عرق أورثة،

ثم يتأكد ارتباط الثدى عند الشاعر بلذة المص والرضاع في قصيدة  
«نهداك» بصورة لا تدع مجالاً للشك أو التردد ، فهو يقول في مطلع  
القصيدة :

« سمراء صبي نهدك الأسمر في دنيا فمي  
نهداك نبعاً للذة حمراء تشعل لي دمي»  
ثم يمضي أبياتاً عديدة في الغزل بالنهدين والتشبيب بها ، ليعود  
بعد ذلك إلى تأكيد نغمة الافتتاح :  
« فكى أسيرى صدرك الطفلين لا لا تظلمى  
نهداك ما خلقتا للثم الثوب لكن للقم»  
فإذا أوشكت القصيدة على الختام وجدنا هذه الأبيات ذات الدلالة  
الصارخة على ما نحن بصددده :

ومضت تعللى بهذا الظافر المتكوم  
وتقول في سكر بعربة ، بأرشق مبسم :  
يا شاعرى لم ألق في العشرين من لم يقطع  
هذه الظاهرة الواضحة في شعر نزار ، وأعنى بها ارتباط الثدى في  
ذهنه بلذة المص والرضاع ، لا سبيل الى تفسيرها ، في رأى - إلا بردها  
الى «المرحلة الفمية» التى حدثنا عنها سيجموند فرويد في تحليله لتطور

النشاط الجنسي عند الرجل ، وهى أولى مراحل الاستمتاع الجنسي وفق نظريته التى يقول فيها :

«والفهم أول منطقة شبقية تظهر عقب الولادة مباشرة ، وتأخذ تلح فى اشباع رغباتها اللبيدية (أى الجنسية) ويتركز النشاط العقلى فى أول الأمر حول اشباع حاجات هذه المنطقة ولا شك أن الوظيفة الأولى لهذه المنطقة هى حفظ الذات بالتغذية ولكن لا يجب أن نخلط بين الناحية الفسيولوجية والناحية السيكلوجية . فإن إصرار الطفل بعناد على الرضاعة ليدل دلالة واضحة فى هذه المرحلة المبكرة على وجود رغبة فى الحصول على اللذة . ومع أن هذه الرغبة تنشأ فى الأصل وتستمد قوتها من تناول الغذاء الا أنها مع ذلك تسعى وراء اللذة بصرف النظر عن تناول الغذاء ولهذا السبب فمن الممكن ، بل من الواجب أن نصف هذه الرغبة بأنها جنسية . .»<sup>(٢)</sup>

ويمضى فرويد فى وصف المرحلتين التاليتين ، وهما المرحلة الاستية السادية « التى يسعى فيها الطفل إلى الحصول على اللذة من وراء العدوان وعن طريق وظيفة التبرز . . »<sup>(٣)</sup> ثم المرحلة الجنسية الثالثة « وهى ما يعرف بالمرحلة القضيبية وهى باكورة المرحلة النهائية للحياة الجنسية ، كما أنها تشبهها كثيرا »<sup>(٤)</sup> . ثم يضيف مستدركا :

«ومن الخطأ أن نظن أن هذه المراحل الثلاث يتبع بعضها البعض

---

(٢) سيجمند فرويد : « معالم التحليل النفساني » ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاق ، الطبعة الرابعة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦ ص ٦٤/٦٣ .  
(٣) ، (٤) المصدر السابق ص ٦٥ .

بطريقة دقيقة . فقد تظهر مرحلة منها بالإضافة إلى مرحلة أخرى . وقد تظهر كل مرحلة منها قبل أن تنتهى المرحلة السابقة نهائيا . وقد توحد هذه المراحل جميعا في وقت واحد»<sup>(٥)</sup> .

كما يعود ليقرر بعد ذلك هذه الحقيقة الهامة التي تفيدنا ، لا شك ، في تفسير وضوح ظاهرة مص الثدي في شعر نزار فيقول :

«قد يبلغ الفرد مرحلة النضوج التناسلي ، ولكن هذا النضوج يكون ضعيفا بسبب تلك الأجزاء من اللبido التي لم تتقدم تقدما كبيرا وإنما ظلت ثابتة عند بعض الموضوعات والأهداف في المراحل السابقة للمرحلة التناسلية .

ويظهر هذا الضعف فيما يديه اللبido من رغبة الى العودة (أى النكوص) إلى شحنته النفسية السابقة للمرحلة التناسلية إذا ما حرم من إشباع رغبته التناسلية أو إذا صادف عقبات في العالم الخارجى»<sup>(٦)</sup>

وفي مواضع كثيرة من مؤلفاته يؤكد «فرويد» أهمية المرحلة الفمية ويقرر أن مص الطفل لثدى أمه هو «النموذج الأصل لكل علاقة حب»<sup>(٧)</sup> ويقول في موضع آخر :

«لو أن الطفل الرضيع يستطيع التعبير عن نفسه فلا شك أنه كان سيقرب بأن عملية مص ثدى أمه هى بلا شك أهم شيء في الحياة . ولن

---

(٥) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٦) المصدر السابق ص ٦٩

(٧) سيجموند فرويد ، « ثلاث رسائل في نظرية الجنس » ترجمة الدكتور محمد عثمان

نجلى ، دار القلم ، ١٩٦٠ ، ص ١٦٦ .

يكون مخططاً في ذلك ، لأنه عن طريق هذه العملية يشبع في نفس الوقت أعظم حاجتين في الوجود ولن ندهش بعد ذلك حين نعلم عن طريق التحليل ضخامة الدلالة العقلية لهذه العملية التي نظل محتفظين بها طوال حياتنا . إن المص للحصول على الغذاء هو نقطة البداية التي تتطور منها الحياة كلها ، وهو النموذج لكل أنواع الإشباع الجنسي اللاحقة التي لا يمكن تحقيقها ، والتي تتطلب أحياناً خيالاً ، وكثيراً ما تتحول إلى انحرافات فالرغبة في المص تتضمن بداخلها الرغبة في ثدى الأم . وهو لذلك الموضوع الأول للرغبة الجنسية وليس بوسعى أن أقدم لكم فكرة كاملة عن أهمية هذا الموضوع الأول في تحديد كل موضوع آخر يختار فيما بعد . والأثر العميق لهذا الموضوع الأول ، الذي يبدو من خلال عمليات التحويل والاستبدال على أبعد ميادين الحياة العقلية ،<sup>(٨)</sup> .

أعتقد أنه ليس من الصعب الربط بين هذه الاستشهادات من آراء «فرويد» وبين الاهتمام الشديد الذي يوجهه نزار في شعره للنهد واقتراحه في ذهنه بعملية المص والرضاع . ولا أريد أن أسرف في التطبيق ؛ فأزعم أن هذه الظاهرة النفسية في شعر «نزار» تدل على انحراف أو شذوذ ، وإنما أكتفى بالإشارة إلى أهميتها في فهم شعره من ناحية ، وفي فهم تكوينه النفسي من ناحية أخرى ، لما نعلمه من أن الشعر أكثر الفنون الأدبية التصاقاً بالجانب الذاق للفرد ، وأكثرها تعبيراً عن وجدانه وتجاربه الشخصية وأقل ما يمكن أن يقال عن هذه الظاهرة عند

---

Sigmund Fried Introductory lectures of psycho analysis, (٨)  
London. George Allen& unwin 2nd, 1952, P. 264



نزار «أنها أثر واضح من آثار المرحلة الفمية الطفولية وأن وضوحها على هذه الصورة القوية في شعره لا يستلزم بالضرورة شذوذاً أو انحرافاً ، «فرويد» نفسه يقول عن مراحل التطور الثلاثي للغريزة الجنسية :

«إن كل مرحلة لا تتبع الأخرى بصورة مفاجئة ، ولكن شيئاً فشيئاً ، وعلى ذلك فثمة جزء من خصائص المرحلة المبكرة موجود دائماً إلى جوار خصائص المرحلة التالية ، وحتى في التطور الطبيعي لا يكون التغير كاملاً أبداً ، فالتكوين النهائي غالباً ما يحتوى على مظاهر من التثبيتات اللبديدية المبكرة»<sup>(٩)</sup> وامتداد آثار المرحلة الفمية إلى مرحلة النضج الجنسي بهذه الصورة الواضحة لا شك أن له أسبابه الخاصة في حياته وظروف نشأته وتجاربه المبكرة كأن يكون قد فطم مبكراً ، أو قامت عوائق حالت بينه وبين الاستمتاع الكامل بمرحلة الرضاع ، أو غير ذلك من الأسباب التي لا سبيل إلى استكناها بصورة أكيدة إلا عن طريق التحليل النفسي وما يتطلبه من استبطان ذاتي لخبرات طفولته وذكرياتها المطموسة في لا وعيه . .



وفي شعر «نزار» ظاهرة نفسية أخرى أقل أهمية من الظاهرة السابقة ، ولكنها تستوقف النظر مع ذلك ، لأننا لا نكاد نجد لها نظيراً بمثل هذا الوضوح والإلحاح عند شاعر سواه . فنزار في غزله المادي بالمرأة ، لا يكتفى بوصف كل أجزاء جسدها ، مع الاهتمام بنهدها

---

Sigmund Freud: Collected Papers, vol., V, London. The Hogarth (٩)  
Press and The Institute of Psycho- Analysis, 1950, p. 330

بصفة خاصة ؛ كما أسلفنا ، وإنما يبدى كذلك اهتماما غير عادي بملابسها وأدوات زينتها . وهذه ظاهرة نفسية معروفة في شعرنا العربي القديم ، وهى التى اصطلح على تسميتها بالنسب ، الذى يتمثل في ذكر الشاعر الحاجيات محبوبته وملابسها وحيواناتها والأماكن التى تغشاها ، ولكنى لا أعتقد أن شاعرا من شعراء العربية قال في هذا الموضوع قدر ما قاله «نزار» فيه ، فهو لم يترك قطعة واحدة من ملابس المرأة الخارجية والداخلية وأدوات زينتها لم يتغن بها في شعره . . ذكر القميص ، وثوب النوم ، والمنامة (البيجامة) والدانتيل ، والمشط ، والمرآة ، والجورب ، والقفاز ، والحقيبة ، والقرط ، والمانيكير وقلم الحمرمة والأصباغ ، وأكثر من ذكر الشال ، والوشاح ، والازرار . . . . إلى آخر هذه التفصيلات الأنثوية الدقيقة . . . حتى الخلف المقصب والصندل النسائي لم ينجوا من تغنيه وتشبيهه . . وفيما يلى عناوين بعض قصائده وهى وحدها كفيلة بتأكيد تفشى هذه الظاهرة في شعره :

«أثواب» ، «رافعة النهد» «ثوب النوم الوردى» ، «القميص الأبيض» ، «كم الدانتيل» ، «إلى رداء أصفر» ، «مذعورة الفستان» ؛ «القرط الجميل» ، «إلى وشاح أحمر» ، «الجورب المقطوع» ، «المايوه الأزرق» ، «الصليب الذهبى» ، «كريستيان ديور» .

«ونزار» نفسه يقرر فى كتابه «الشعر قنديل أخضر» ، أهمية هذا المصدر فى إلهامه الشعرى فيقول :

«مادام هناك عقد واحد فى جوارير حبيبتي لم أكتشف حياته . . . مادام فى خزانتها ثوب واحد لم يره فضولى بعد فلا فرار من الشعر

ولا انفلات من أصابعه الساحرة « (١٠) ، . . . . والأشياء  
الصغيرة . . . الصغيرة التي تمتلكها حبيتي قواريرها ، عطورها ،  
مروحتها ، أمشاطها ، ثوبها الجديد ، المنقول عن شجيرة دراق  
مزهرة . . . كل هذه الأشياء ماذا تكون لو لم أصبغها بدمي . . ودم  
قصائدي ؟ . . « (١١) ومن خير الأمثلة على هذه الظاهرة في شعره  
قصيدته «غرفة» التي يقول فيها :

أشياؤك الأنثى بها تثيره تراحم  
فدورق العبير يبكى والوشاح واجم  
وعقدك التريك أشجاء الحنين الدائم  
وذلك السوار يبكى حبتا - والخاتم  
وفي الركن . . مندبل يتأدبني شفيف فاعم  
ما زال في خيوطه منك . . . عبيرها ثم  
وتلك أثواب الهوى . . . مواسم مواسم  
هذا قميص أحمر كالنار . . . لا يقاوم  
وثم ثوب فاقع . . . . وثم ثوب قاتم ،

وهذه الظاهرة تمثل إحدى الخصائص الفنية التي تميز شعر نزار ،  
ولكنها في الوقت نفسه لا تخلو من مدلولات اجتماعية ونفسية ،  
ولا يستقيم فهمنا لهذه الظاهرة إلا إذا تناولناها من كافة جوانبها ،  
فهى من الناحية الاجتماعية تدل دلالة قاطعة على الطبقة  
الأرستقراطية اللاهية التي ينتمى إليها الشاعر ، وعلى نوع النساء

---

(١٠) نزار قباني : « الشعر قنديل أحضر » ، بيروت ، المكتب التجارى ، ١٩٦٣ ،  
ص ٦٢ .

(١١) المصدر السابق . ص ٦٧ ، ٦٨

اللاثنى يتعامل معهن ، ويستوحيهن شعره ، فهو شاعر مترف لا هم له سوى البحث عن المتعة والإثارة ، ونسوته غوان من المحترفات وأشباه المحترفات ممن لا هم لهن غير التجميل والتزين بأفخر أنواع الثياب وأحدث ما أنتجته مصانع الزينة والعطور النفيسة ، والتصدي للذكور لاستشارتهم والمغامرة العابثة مهم . . .

أما الدلالة النفسية لهذه الظاهرة ، فنجدها مرة أخرى عند « فرويد » فيما يسميه بالفتيشية Fetishism وهو التهيح الجنسي من رؤية جزء من بدن الشخص المحبوب ، أو رؤية شيء آخر يتعلق به كملابسه مثلاً<sup>(١٢)</sup> ويربط « فرويد » بين هذا الانحراف الجنسي ، وبين الحالة السوية فيقول :

« . . هناك درجة معينة من الفتشية موجودة في الحب السوى ، وعلى الأخص في تلك المراحل من الحب التى يبدو فيها أن الهدف الجنسي السوى لا يمكن بلوغه أو الذى أعيق تحقيقه :

« جئنى بمنديل من صدرها  
أو بربطة الساق التى ضنطت على ركبته »<sup>(١٣)</sup>

وتصبح الحالة مرضية فقط عندما يتجاوز الاشتياق للفتيش الحد الذى يكون فيه مجرد شرط ضرورى متعلق بالموضوع الجنسي ، ويأخذ بالفعل يحل محل الهدف السوى ، وكذلك عندما ينفصل

---

(١٢) سيجوند- فرويد « ثلاث رسائل فى نظرية الجنس » ، ص ٥٦ . والنص من تعليق المترجم .  
(١٣) هذا الشعر من مسرحية « فاوست » لجوته .

الفتش عن فرد معين ويصبح الموضوع الجنسي الوحيد . تلك هي  
حقا ، الشروط العامة لانتقال تغيرات الغريزة الجنسية إلى مجال  
الانحرافات المرضية . « (١٤)

والشواهد « الفتيشية » في شعر « نزار » على كثرتها ، لا تكفى  
وحدها للدلالة على وجود انحراف في تكوينه النفسى ، إذ من  
الممكن ، وفقا لما يذهب اليه « فرويد » ، أن تكون تعبيرا عن موقف  
طبيعى سوى ، ولكنه بلغ أقصى مداه ، دون أن ينزلق إلى الطرف  
الآخر من الانحراف والشذوذ ويرجع ذلك ما سبق أن لاحظناه من  
افتتان الشاعر بجسد المرأة بالاضافة إلى تعلقه الشديد بملابسها  
وحاجياتها على أن بحث هذه النقطة ليس مما يدخل في مجال بحثنا ،  
وإنما هو عمل المحلل النفسانى كما قلنا من قبل .

يكفي هنا أن نلاحظ الظاهرة وتكررها الواضح في شعره وكتاباته  
ثم نشير إلى دلالتها النفسية بشكل عام .

\* \* \*

وفي شعر نزار ظواهر نفسية أخرى تستلفت النظر ، ولكنها ليست  
في مثل أهمية الظاهرتين السابقتين ، فقد نلمح في بعض أبياته آثار  
« نرجسية واضحة في مثل قوله :

« أعيدبنى إلى أصلي جيلا فمهما كنت .. أجهل منك نفسى »  
« كفانى من المجد تسبيح ثغر جميل بحمدى »

---

(١٤) سيجموند فرويد « ثلاث رسائل في نظرية الجنس » ، ص ٥٨ .

وغير ذلك مما لاحظته محبى الدين صبحى ، فقال عنه إنه  
 « لا يتحدث عن المرأة كشيء موضوعى فى العالم الخارجى ، وإنما  
 يصفها - حين تروق له - من خلال مشاعره وأحاسيسه وهو فى كثير من  
 الأحيان يكتفى بعرض أحاسيسه بها ومشاعره عنها دون أن يبرزها  
 فنزار يتحدث عن المرأة من خلال نفسه ، وهذا يعنى أنه يتحدث عن  
 نفسه . . . »

وقد نلمح فى أبيات أخرى آثار « ما زوكية » غير خافية :

أبحث يا عارية الشفاء  
 أبحث يا مية الشفاء  
 عن شفة تأكلنى  
 من قبل أن تلمسنى «

« والحلمة الحمقاء ترصدنى بظفر مجرم  
 وتغط أصبعها . . وتغمسها بحبر من دمي . . »

ويؤيد هذا الميل لديه كلمته الثرية الصارخة :  
 « أنا أحب نزيفى ، وألتذ بطعم دمي السائل . . أعانق جرحى  
 وألثمه ، وأرجوه ألا يغلق فمه . » وكذلك لا نعدم انعكاسات « سادية »  
 ضارية فى بعض قصائده . .

« لو مر تفكيرى على صدرها  
 حرقنها حرقا بأفكارى  
 أو أفلتت حلمتها صدفه  
 حذجتها بعين جزاء »

«دونتك هذا الباب هيا أخرجى ،  
فأذورة السننائة الأئمة  
أعوذ بالإسلام .. من جيفة  
إن كنت يا جرثومى .. مسلمة،

وقد تمتزج المازوكية بالسادية فى القصيدة الواحدة :

إن عانقتنى كسرت اضلعى وأفرغت على فمى غلها  
بجها حقدى ، ويا طالما وددت إن طوقتها قتلها

ونزار مغرم بنسج كثير من قصائده على منوال القصة القصيرة وهو  
ناجح فى هذا المجال إلى أبعد حد ، غير أن الذى يستلفت النظر فى هذه  
القصص الشعرية ، أن معظمها مروى على ألسنه نسوة ، وتتضح هذه  
الظاهرة بصفة خاصة فى ديوانه «قصائد من نزار» ففيه وحده تسع قصائد  
من هذا النوع : «لماذا» ، «رسالة من سيدة حاكمة» ، «نفاق» «كرستان  
ديور» ، «القميص الأبيض» ، «حبلى» ، «مع جريدة» ، «أوعيه  
الصيد» ، والنصف الأخير من قصيدة «شريرة» ومن هذا القبيل أيضا  
قصيدته الغنائيتان المشهورتان :

«أيقظن» ، «ماذا أقول له»

غير أن هذه الظواهر النفسية الأخيرة ليست على نفس الدرجة من  
الأهمية والوضوح كالظاهرتين اللتين فصلنا فيهما القول من قبل وإن كان  
اجتماع هذه وتلك فى دواوين شاعر دليلا أكيدا على شدة تعقد نفسه

وتباين انفعالاته ، وهذا أمر طبيعي للغاية بالنسبة للرجل العادى ، فما بالك بالفنان الحساس المرهف . وهل أدل على هذا التعقد والتباين من أن نجد ذلك العاشق ، الواقى للمرأة ، المفتون بجسدها وأثوابها وكل ما يتعلق بها ، يثور فى بعض الأحيان عليها ويلعنها ويصفها بأنها «لبوة» و«ذئبة» و«جرثومة» و «قاذورة نثانة» ، وينادىها بقوله «يا جولة الثعبان يا مجرمة» ، ويتحدث عن شهوتها «السافلة» ، «ويشبه ساقها بالأفعى الرقطاء» ويخشى منها على مجده الفنى فيقول لها فى قصيدته الطويلة الرائعة «لن تطفئى مجدى»

«كفناك فحيحا بصدر السرير  
كما تنفخ الحية الصائلة»

ومن مظاهر هذا التناقض أيضا ، أن «نزار» الذى لا يرى فى المرأة سوى جسدها الفاتن المثير ، له أبيات أخرى يسمو فيها إلى آفاق رفيعة من الهوى ومن مظاهر هذا التناقض أيضا ، أن «نزار» الذى لا يرى فى المرأة سوى جسدها الفاتن المثير ، له أبيات أخرى يسمو فيها إلى آفاق رفيعة من الهوى العذرى الرقيق :

لا تتركنى ، لم يكن  
لولاك ، هذا العالم

، ماذا تصير الأرض لو لم تكن عيناك . . . ماذا تصير ؟  
ولولا نعمة رجلك هل طرز الأرض عشب ؟  
تدوسين أنتى للصبغ نفس وللصخر قلب ؟  
ترى يا جميلة ، لولاك ، هل ضج بالورد درب .



ولولا اخضرار بعينيك ، ثرا المواعيد رجب  
أيسبح بالضوء شرق أيغمر باللون غرب ؟

غير أن هذه الأبيات وأمثالها في دواوين نزار قليلة جدا بالقياس الى قصائده التي تغلب عليها نظره الشهوانية للمرأة ومن ثم فهي لا تكفى للتخفيف من لونها الدموي الفاقع .

ولن تكمل الصورة التي نحاول تقديمها لنزار قباني إلا بوقفه قصيرة عند قصائده الاجتماعية القليلة التي حاول فيها الخروج بشعره عن دائرته المغلقة ، دائرة جسد المرأة ، والغزل الحسى المحموم بكل عضو من أعضائها فمن الطبيعى أن يرفض مثل هذا الشاعر كل محاولة للالتزام بمشكلات مجتمعه :

«الالتزام ابن الماركسية المدلل ، مربرؤ وسنا في أوائل الخمسينات مرور الدوار المباغت فحول شعرنا إلى (مانيفستو عقائدى) واستتببت القصائد من مخيلة الشعراء الملتزمين كما تستببت البطاطس في أحد الكولخوزات ثم انكفأ الالتزام من شواطئنا تاركا وراءه طروحا شعرية عن (ديان بيان فو) و (كوريا) ولدت بدون عظام وبدون ملامح .» (١٥) .

، « إننى ضد نظام السخرة في الأدب . ذلك النظام الذى جعل ألوف القصائد العربية تمسح جباهها بأقدام الحاكم أو الأمير . والالتزامية الحديثة كما نلمحها في آثار ليست سوى شكل جديد من أشكال نظام السخرة مع فارق واحد وهو أن المسخر كان فى الماضى فردا

---

(١٥) نزار قباني . « الشعر قنديل أخضر » ص ٤٦ .

وأصبح اليوم نظاما اجتماعيا أو عقيدة سياسية ، أى أننا استبدلنا ديكتاتورية الفرد بديكتاتورية المجموع»<sup>(١٦)</sup> .

ورغم هذا الموقف الجمالى الانعزالى فالشاعر يدرك بعقله أزمة عصره ومشكلات بلاده .

«إننى لا أنكر أن الإنسانية كلها تعاني أزمة مصير ، وأن جيلنا هو جيل الغبار الذرى والهواء الملوث ، والعقد الفرويدية المميتة ، الجيل المصلوب بلا صلب ، المشوه من داخله منذ ولادته .

إننى أعرف هذا ، ولكننى أعرف أيضا أن للإنسان العربى أزماته الخاصة ، أزمات واقعية تتصل بالرغيف ، وبالدواء وبالعلم وبسرطان اسرائيل اكثر مما تتصل بالمجردات الفلسفية التى لا تلتفت إليها الشعوب إلا وهى فى قمة شبعها وبطرها الفكرى»<sup>(١٧)</sup> .

بل وجاء عليه وقت تنكر فيه لمفاهيمه الفنية القديمة وكان ذلك أثناء العدوان الثلاثى على مصر ، وقد عبر عن هذا التغير الذى فرضته عليه ظروف المعركة الطاحنة فى رسالة إلى صديقة مجندة «أسماءها البنادق . . والعيون السود» حتى فى هذه الظروف الخطرة لم يستطع ان يتخلى عن هيامه بالمرأة ، فاختار أن يوجه حديثه الجاد الى امرأة ، وإن يستهلها بوصف التغير الذى أحدثته المعركة فى جمالها وثياها ، وبما جاء فى هذه الرسالة :

(١٦) المصدر السابق : ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(١٧) المصدر السابق : ص ٥٠ ، ٥١ .

«هكذا هدمت المعركة كل مفاهيمي الجمالية . . . وفنى ،  
كجمالك ، تغير يا صديقتى بحركة داخلية تلقائية . . مد أظافره ونشر  
ريشه كما يفعل الطائر أمام خطر داهم بدافع من غريزته . .  
لقد أخذت القصائد مكانها فى الخنادق . . وتحت الأسلاك  
الشائكة وحاربت بجميع ما يحمل الحرف من طاقة وقوة تفجير . .» (١٨)  
وهذا التغير الذى يشير نزار إلى أنه طرأ على فنه يتمثل فى قصيدة واحدة  
قالها من وحي معركة بورسعيد وهى «رسائل جندى مصرى فى  
السويس» ، وهى قصيدة متوسطة من الناحية الفنية ، كل ميزتها أنها  
فيلت والمعركة مشبوبة الأوار ، فقامت بدورها فى رفع المعنويات ،  
وتأكيد مشاركة الشعراء العرب جميعا ، حتى الغزلين واللاهين منهم ،  
للشعب المصرى المناضل فى محنته ، ولكنها لا يمكن أن تعيش بعد  
انقشاع غبار المعركة مع القصائد الممتازة التى قبلت وقتها .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن بقية قصائده الوطنية وهى «قصة  
راشيل شوارز نيرع» التى يصور فيها موقف يهود العالم من العرب وكيف  
يشترون ضمائر السياسيين ليدعموا دولتهم المزعومة فى فلسطين ولا حظ  
هنا أيضا أن الشاعر رغم جدية الموضوع وخطره ، قد آثر أن يديره حول  
امرأة . ولنزار قصيدتان وطنيتان أخريان . «من شاعر سورى إلى  
مواطن أمريكى» و «جميلة بو حريد» وكل هذه القصائد الوطنية لا تخلو  
من إحساس صادق ونبض ولكن الافتعال والصنعة واضحا فيها مع  
ذلك ، بحيث لا يمكن أن ترقى أى منها الى مستوى غزلياته الحسية

---

(١٨) المصدر السابق ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

العابقة بعطر المرأة الفاغم وسخونة الدم الهادر في العروق . . قصيدة اجتماعية واحدة في شعر «نزار» نجت من غلبة الصنعة والافتعال ، وفاضت بالصدق والحرارة ، وهي «خمر وحشيش وقمر» وتفسير ذلك ليس بالأمر العسير ، فهي لم تكتب استجابة لمناسبة وطنية حرص على أن يشارك فيها كغيره من الشعراء وإنما هي أنة ألم طويلة عبّر فيها عن ضيق بالحياة الغافية التي يحياها المجتمع الشرقي ، ولاشك أن زيارته للعواصم الغربية كانت من بين العوامل التي فجرت في نفسه هذه الهجائية الثورية للمجتمع العربي المتخلف .

ومن الواضح أن قصيدة اجتماعية جيدة واحدة ، لا يمكن أن تغير من ملامح شعر نزار ، أو تخرج به عن دائرته المحدودة المغلقة . . دائرة الجسد النسوى وكل ما يتعلق به من قريب أو بعيد . .

إن نزار قباني شاعر كبير بلا ريب ولكن بشرط أن يظل داخل ميدان تخصصه وافتنانه ، أو على الأقل هذا ما نستطيع أن نتبينه من إنتاجه المنشور حتى الآن ، فلنقل معه في ختام الحديث .

«هذا أنا بكل سيئاتي  
بكل ما في الأرض من غرور  
كشفت أوراقى فلا تراعى  
لن تجدى أظهر من شرورى»  
فهذا أصدق وصف ينطبق عليه وعلى شعره .

(مايو ١٩٦٦)

(٢٩)

عبد اللطيف النشار  
عميد شعراء الاسكندرية

لصدور ديوانه عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب» معنى إنسانى كبير . . فقد عاش حياته الطويلة كلها فى الظل ، لا لأنه كانت تنقصه الموهبة الأصيلة التى تتيح له الشهرة والتألق ، ولا لندرة إنتاجه فهذا الديوان الكبير (أكثر من ٤٤٠ صفحة) ليس إلا قطرة فى محيط إنتاجه الغزير الذى مازال موزعا بين مختلف الصحف والمجلات ومقتنيات الأهل والأصدقاء . .

كان شاعرا موهوبا ، وناثرا مجيدا ، ومترجما بارعا لا يستعصى عليه نص إنجليزى . . وما أكثر ما ترحم من روائع الشعر الإنجليزى شعرا عربيا رصينا ، لا أثر فيه لتعقيدات الترجمة وافتعال تركيباتها . ومن المعروف أن ترجمة الشعر شعرا هى أشق أنواع الترجمات فى كل الآداب . .

لماذا اذن لم يلمع ولم يحتل مكانته بين كبار أدباء جيله . . جيل العقاد والمازنى وطه حسين والحكيم ويحيى حقى ، مع أنه نشر إلى جوارهم فى كبريات المجلات الأدبية التى كانت من أهم أسباب شهرتهم وذيوع صيتهم ، «كالسياسة» «والرسالة» «والثقافة» ؟

ترى هل لأنه كان مخلصا للاسكندرية ، مسقط رأسه ، مصر على الإقامة بها معظم سنى عمره ، ولم يهجرها إلى العاصمة ، حيث تتركز الأضواء وعوامل الشهرة . . لم ينتقل إليها إلا فى أواخر حياته ، بعد خروجه إلى المعاش ، ليعيش إلى جوار وحيدته «رفيعة» التى عينت فى وزارة الثقافة بالقاهرة ، قبل انتقالها مع زوجها إلى لندن . .

أم لأنه كان خجولا بطبعه ، منطويا على نفسه ، يؤثر العزلة ، ولا يتقن استخدام فن العلاقات العامة في الدعاية لنفسه ولإنتاجه . .  
 أم لأنه وزع طاقته بين الشعر والنثر والترجمة ، واستأثرت الترجمة بالجانب الأكبر من جهوده ، وفضل المترجم مازال منكورا في بلادنا مهما عانى وأبدع ؟

### تل من الكتب

أيا كان السبب الحقيقي لتلك الظاهرة الغريبة ، فلاشك أن عبد اللطيف النشار عاش حياته كلها بعيدا عن الأضواء ، غير معروف إلا لأدباء جيله ، ومثقفى الإسكندرية ، حيث ظل ينشر إنتاجه الأدبي في صحفها المحلية بانتظام غريب ، وبخاصة في جريدتى «البصير» و«السفير» ويشارك في متندياتها الأدبية ، واحتفالاتها بمختلف المناسبات القومية والمحلية ، حتى أصبح من بين معالمها الثقافية البارزة . . وإن لم يصل صيته إلى العاصمة التى ظلت تحتكر الشهرة والمجد لمن يقبل شروطها ، وأولها أن يهجر مسقط رأسه ويقيم بها . . ولذلك اعتبرت أن صدور ديوانه أخيرا ، ولو بعد وفاته ، يمثل معنى إنسانيا وحضاريا كبيرا . . معنى الوفاء لأديب لم يتح له أن ينعم بالشهرة في حياته . . ومعنى التقدير للمجهود الأصيل مهما طال الزمن ، وتكاثفت المحبطات . . وهو ما يبعث في نفوس العاملين الجادين شيئا من الأمل والتفاؤل بأن جهودهم لا بد أن ترى النور يوما ، وتجد التقدير . . ولو بعد حين . .

كان لابد أن ألقاه ، وأن تتوثق الصلة بيننا ، فأنا من أبناء

الإسكندرية قضيت فيها كل طفولتي وشبابي ، وشقيقي الأكبر الكاتب والناقد الصحفي محمد دواره كان من أصدقائه المقربين . . تزاملا سنوات عديدة في عدة صحف ومجلات . . «الغفر» و «وادي النيل» ، في العشرينات والثلاثينات ، ثم «دنيا الفن» في الأربعينات . . وعن طريقه تعرفت به والتقيت به عدة مرات . .

وحينما التحقت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ؛ جامعة الإسكندرية كانت أسرة القسم تقيم العديد من الندوات والاحتفالات والمهرجانات وكان رئيس القسم أستاذنا محمد خلف الله أحمد يحرص على دعوة كبار أدباء الإسكندرية وشعرائها ليشاركوا في ذلك النشاط الأدبي . . وكان «النشأ» من ناحيته حريصا على تلبية تلك الدعوات ، وإنشاد أحدث قصائده فيها ومن ثم تجددت لقاءاتي به . .

وتشاء الظروف بعد ذلك أن أسكن بعد زواجي بشارع الرصافة بحى محرم بك ، قريبا من بيته بشارع أمير البحر في نفس الحى . . فتوثقت صلتنا أكثر وأكثر . . فما من مرة عدت فيها في ساعة متأخرة من الليل إلا وجدته ساهرا في مقهاه الأثير بشارع «محرم بك» قرب مخزن الترام . . . مكبا على القراءة والكتابة ، ولا يمكن أن يدعى - مهما كنت مرهقا - دون أن أشاركه جلسته ساعة أو أكثر . . نقضيتها في مناقشات أدبية حامية . . تنهما في الطريق إلى بيتي بعد أن يغلق المقهى أبوابه ؟

لا أذكر الآن الموضوعات التي كنا نخوض فيها ، ولكني أذكر حماسه الشديدة لأفكاره وآرائه المتجددة بتجدد قراءاته الغريزة وتأملاته العميقة . . كان يتابع أحدث الصحف والمجلات العربية



والإنجليزية ، ويقتنى ثروة من الكتب ، فلم يكن يبخل بأى مبلغ لشراء الكتب الجديدة والقديمة . . ويضع أمامه على مائدة المقهى وفى جيوبه عشرات الأقلام من كل نوع ولون . .

حكى بعض عارفه أن أباه أعطاه ذات يوم فى شبابه مبلغا كبيرا من المال ليدفعه مهرا للعروس التى خطبها ، فإذا به يفاجأ به عائدا بعد ساعات وأمامه عربة نقل كبيرة يجرها حمار ، وفوقها تل كبير من الكتب اشتراها بمهر العروس !

### تواضع النحلة

فى كل مرة لقيته كنت أجده متحمسا لفكرة جديدة غير الفكرة التى كان متحمسا لها بالأمس . . وما أقل ما حقق من تلك الأفكار الطموحة والمشروعات الخيالية . . وما أندر ما حدثنى عن ماضيه وما حققه فيه من انتصارات وأمجاد ، شأن غالبية الأدباء والشعراء . حتى صغار السن منهم . ولكنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه لم يقل بعد شيئا هاما يستحق البقاء والخلود . . ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى تدفق إنتاجه وغزارته واستمراره حتى آخر سنوات عمره ، بالرغم من تجاوزه السابعة والسبعين . . غير أنى أعتقد أن هذه الاستهانة من جانبه بإنتاجه الأدبى كانت من أهم أسباب استهانة الغير به .

ومع ذلك فإنى أشهد أنى لم أسمعه مرة واحدة يشكو من خمول الذكر أو تجاوز الشهرة له . ولم أحس أنه عانى من ذلك بأى شكل . . بل كان يعمل بجهد وإصرار وحماسة ، كأنا ليحقق وجوده ، كالنحلة التى

تفرز ، عسلا ، لأن هذا هو عملها الطبيعي ومبرر وجودها ، لا تنتظر عليه جزاء أو ثناء من أحد ..

في كل يوم له شعر جديد .. يقنع بانشاده في أى منتدى يدعى إليه ، فإذا لم يدع قنع بقراءته على اصدقاء المقهى .. وقد ينشره بعد ذلك .. أولا ينشره ، في إحدى المجلات الصغيرة الخاملة نظير أجر ، أو دون أجر لا يهم .. لذلك فقد أفادت من انتاجه مجلات عديدة مستغلة قناعاته وتواضعه ، فتبخس الأجر ، أو تتجاهله ..

وكان محفوظه من الشعر العربى والإنجليزى كبيرا يكثر من الاستشهاد به في أحاديثه .. أذكر مناسبات عديدة كان يسمعى فيها قصيدة إنجليزية لأحد مشاهير الشعراء ، ثم يتبعها بترجمته الشعرية لها ، قد ينشد ترجمة للأبيات نفسها لشاعر آخر ، ليقارن بعد ذلك بين الترجمتين دون أن يفرو أو يتعثرو . فأعجب لذلك الشيخ الموهوب الذى لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية كيف استطاع أن يجيد اللغتين فهما ونطقا على هذه الصورة التى تفوق بها على غالبية أساتذتى فى الجامعة

### قمة الود .. وقمة النفور

لا يمكن أن أتحدث عنه دون أن أذكر تلك الصورة القلمية البارعة التى رسمها له صديقه يحى حقى فى مقال كتبه عنه

«إذا ذكرته باحثا عن خلقته التى أريدت له فى الحياة لم يمثل لذهنى يوم عرفته وهو فى ربيع الشباب ، بل ايام شهدته وهو فى شتاء

الشيخوخة ، حيثئذ أستطعت أن أقول إنني عرفتة ، هو الآن هو ، أما من قبل فكانت مراحل عمره خطوطا تجريبية تريد أن تتجمع لترسم صورته الصادقة . . ليس هو هو إلا حين أصبح له ، في شيبته البيضاء ، فم يروعك تعبيره الأليم عن العطش ، لا ماء في الأرض يرويه ، لم يعان منه فجأة ، بل بعد هثان طويل ، كأنه قضى عمره كله يجرى وراء غاية تهرب منه . . السعادة ؟ النجاح ؟ معنى الوجود ؟ لقاء النفس وجها لوجه أمام لقاء وجه الله سبحانه . .

«مكافح وصوفي معا ، هكذا كان ، ونظرة شاخصة حائرة بين أن تعلق بك كالغراء تريد أن تحتويك بود داخل فؤاده ، وبين أن تهملك نفورا منك وتتجاوزك إلى أفق بعيد . كأنما يريد ولا يريد أن يفضى لك بسر مهول ، إنه يلتمس ويرفض معا استجابتك له . لم أرقط مثل هذا الجمع بين قمة الود وقمة النور ، لا عن عمد ، بل لغلبة حساسية مفرطة»

### «ياهر حبا بالعرج !»

وتحدثنا وحيدته «رفيعة النشار» في تصديرها لديوانه عن نشأته وحياته فتقول إنه ولد بدمياط عام ١٨٩٥ ، وورث موهبة الشعر عن أبيه وجده الكبير ، وتعلم في الكتاب حيث حفظ القرآن ، ثم بالمدرسة الابتدائية حيث أتقن اللغة الإنجليزية إذ كانت تدرس بها جميع المواد ، فأهله ذلك للإشتغال بالترجمة في سن مبكرة . واشتغل بالصحافة أكثر من ستين عاما . وبعد أن تلمح إلى أهم كتاباته تختم حديثها قائلة :

«ورغم تفكيره العميق المتزن ، وآرائه الصائبة المجددة في شتى

ضروب الفن ومناحي الحياة ، فقد كان شديد التواضع والانزواء ،  
 قليل الكلام عن نفسه ، غير منصف لها ولا لأدبه وعلمه واطلاعه  
 الغزير . . ولعل لوظيفته الرتيبة المملة في المحاكم دخلا في ذلك كبيرا إذ  
 يقول :

«ثلاثون عاما في المحاكم أفسدت  
 يساني . . فأصبحت الغبي المغفلا»

ويضيف أحمد مصطفى حافظ جامع ديوانه إنه منذ وفاة شريكة  
 حياته انطلق في بوهيمية محبة إليه (الواقع أن هذا الانطلاق كان إحدى  
 سماته المبكرة) . وقد كان لرحلته الطويلة إلى لندن حيث كانت تقيم  
 وحيدته أبعد الأثر في تفكيره وانعكس ذلك في كتاباته وشعره . من ذلك  
 قوله :

«سبعة الأشهر فيها ساعة  
 ثم مرت . . ولكل منتهاه  
 وأراني الله في شيخوختي  
 ما تمناه فؤادي في صباه  
 لندن يجهلها أبناءنا  
 والذي في أرضه ألقى عصاه  
 الذي قد جاء فيها دارسا  
 حصدا لهم لنيل (الدكتوراه)  
 إنما يعرفها مثل أنا  
 قارئ يدرك أسرار الحياة  
 يصعد الأهرام من أسفلها  
 قارئ وهو يدري مرتقاها . .

وأصيب بعد عودته الى القاهرة في حادث تصادم سيارة ترتب  
عليه اختلال في مشيته ، فأوحى له ذلك بقصيدة طريفة جعل عنوانها  
«يا مرحبا بالعرج» مما قاله فيها :

«نحو الشمانين ولا أبتل  
بملة .. هل ذلكم يعقل ؟!  
مادامت الأروؤس في صحة  
فهين أن تبتل الأرجل  
(أبو الوفا) و(المازني) قبله  
كلامهما في مشيه يحجل  
وكننت إذ أمشى يقال انبرى  
لا يعرف الريث ولا يعجل  
فصرت (تيمور لنك) في مشيتي  
بل عله في مشيه أجهل !  
وطالما أخطأت في صحتي  
فالآن إذ أغضب لا أركل ...

من الواضح أنه يشير في البيت الثالث إلى الأدبيين الكبيرين محمود  
أبو الوفا وإبراهيم عبد القادر المازني ، وكلاهما كان يعرج في مشيته  
كالغازي التتاري تيمور لنك . . وفي بيت تال إشارة أخرى إلى الأدبيين  
الإنجليزين ولتر سكوت ويرون ، وكانا مصابين أيضا بنفس  
العاهة . . وهكذا جمع الشاعر في قصيدته الذاتية أشهر من أصيبوا  
بالعرج من بين أدبائنا وأدباء العرب .

## أبو الفرج الاسكندراني

وقارئ الديوان يلمس بسهولة شاعرية النشار المتدفقة ، فما من مناسبة وطنية أو اجتماعية أو فنية أو شخصية إلا وله فيها قصيدة أو عدة أبيات . . حتى لكأنه كان « يغرف من بحر » كما كان القدماء يقولون عن البحتري . . وهكذا جمع الديوان بين نماذج ممتازة من الشعر الوطني المتأجج حماسة ، والغزل الذي يفيض رقة وشجنا ، والوجداني الصوفي الحائر ، والفلسفي العميق المتأمل ، بالإضافة الى قدر كبير من المراثي والأهاجي والمداعبات الساخرة . . ووصف الطبيعة . . وبصفة خاصة في تجلياتها بالإسكندرية . . مسقط رأسه ومرتع أحلامه وصبواته .

. ان هذا الديوان الكبير لا يضم كل شعر النشار ، فله ديوانان صغيران نشرهما . منذ أكثر من نصف قرن ، وهما : «جنة فرعون» ، «ونار موسى» بالإضافة إلى قصائده العديدة التي لا تزال موزعة بين صدور المحافظين وعشرات الصحف والمجلات ، غير المشهورة من أهمها ملحمة عن «جهنم» التي عارض فيها كلا من «المعري» ودانتى ، وللنشار قصائد عديدة مترجمة عن الإنجليزية ، من بينها ترجمة لرباعيات الخيام ، وترجمة لديوان ، «زين النساء» الصوفي من شعر أميرة فارسية .

وله مئات المقالات المنشورة في مختلف الصحف والمجلات ، من أهمها سلسلة بعنوان «حديث الأحد» أرخ فيها للأدب العربي لقديم ، وأخرى بعنوان «الأغاني لأبي الفرج الاسكندراني» ، كما ألف عددا من

المسرحيات القصيرة ، وترجم كما هائلا من القصص والمسرحيات ،  
 ٢٥٠ رواية من روائع الأدب العالمى ، منها «كوخ العم توم» للأمريكية  
 هاريت بيتشر ستو ، و«الأبله» للروسي دستوفسكى ، و«أنا كارينينا»  
 لتولستوى ، و«حاجى بابا الأصفهاني» ، و«حاجى بابا فى لندن» ،  
 و«إيياشيا» للانجليزى تشارلز كنجزلى ، و«خالتي» و«وكيل البريد»  
 للهندي طاغور . . . وغيرها

ترى هل يقدر لكل هذه الأعمال أن تجمع من مظانها ، ويعاد  
 نشرها لنفع الأجيال ، ووفاء وتقديرا لجهود العاملين المخلصين  
 المتواضعين ، وما أكثرهم فى أدبنا . . . وعبد اللطيف النشار ليس إلا  
 مثالا صارخا لواحد من أبرزهم وأكثرهم إخلاصاً للأدب والثقافة .

(١٩٧٨)

( ٣٠ )

محسن الجوهري ..  
والأوبرا السياسية



عرفت الشاعر محسن الجوهري منذ عهد بعيد ، وزاملته في كلية الآداب ، ومازلت أذكر كيف كان شاعر الكلية المبرز الذى يشارك بقصائده في كل احتفال أو مناسبة وطنية ، فيبرز بقية الشعراء ، وكيف كان يتحرك بين ردهات الكلية وطرقاتها بعوده النحيف وكأنه بلبل عاشق غريد لا يكف عن ترديد أنغام قلبه الواله شعرا عاطفيا رقيقا ، كنا نسمعه بشغف واهتمام ، ونظل نستعيده لنسجله ، ونبادله بعد ذلك مع بقية الزملاء والزميلات ، تماما كما كان العرب القدماء يتناقلون شعر المجنون في «ليلي» ويحفظونه ، ومازالت الذاكرة تعي . . بعد كل تلك السنوات ، هذه الأبيات العذبة التى قالها محسن الجوهري في عيد ميلاد «ليلاه» :

«ما عبر الربيع إن فاح إلا  
من ربيع العبير في نفحاتك  
عيد ميلادك الحبيب لذاتي  
مثلا ييسم الربيع لذاتك  
يا حياة الحياة ما أنا سالى  
أكؤس الوصل في ربي سرحاتك»

لذلك فقد تملكني العجب الشديد حينما أطلعني على الخطاب الذى أرسله إليه المجلس الأعلى للفنون والآداب يعتذر فيه عن نشر بعض مؤلفاته الشعرية وهذا نصه :

جمهورية مصر  
المجلس الأعلى لرعاية الفنون

والآداب - لجنة الشعر

السيد الأستاذ محسن محمود الجوهري - الاسكندرية

تحية طيبة وبعد - نعيد مع هذا الدواوين :

١ - أوبرا «شفاء»

٢ - أوبرا «عود إلى القدس»

٣ - مجموعة دواوين «لست شاعرا»

التي سبق تقديمها منكم للجنة الشعر بالمجلس لأن اللجنة لاحظت - بصفة عامة - عند عرض هذه الدواوين أن بعضها يشتمل على موضوعات ، من حيث المبدأ ، لا تستطيع اللجنة التوصية بنشرها كاملة .  
واقبلوا تحياتي

سكرتير عام المجلس الأعلى

لرعاية الفنون والآداب

«توقيع»

ولم يكن مصدر عجبى معرفتى السابقة بشاعرية محسن الجوهري فقط ، وإنما كان مصدره أيضا ذلك الاقتضاب الشديد الذى عبرت به اللجنة عن رفضها لنشر دواوينه، فالمفروض أن هذه الدواوين قد قرئت بعناية وتمحيص ، وناقشها أعلام الشعر والأدب فى مصر وعلى رأسهم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قبل أن تنتهى اللجنة إلى إصدار هذا الحكم عليها . ومن المسلم به أن كل حكم لا بد وأن ينبى على أسباب وحيثيات يحرص كل من يصدر أحكاما قضائية أو إدارية أو فنية على أن يلحقها بأحكامه ليوضحها ويبررها ، والأحكام الأدبية بصفة

خاصة أحكام يتدخل الذوق الشخصى إلى حد بعيد في تحديدها ،  
فتفسير هذه الأحكام وتعليلها ألزم من تفسير أى نوع آخر من الأحكام  
حتى لا يذهب صاحب الانتاج ، ونذهب معه ، في تأويلها كل  
مذهب وحرام بعد هذا أن يضيع أعضاء لجنة الشعر الموقرون وقتهم  
الثمين في قراءة هذه الدواوين وأمثالها ودراستها ، ثم لا يفيد أحد من  
نتيجة هذه القراءة والدراسة ، ولا يعلم صاحب الانتاج الشعرى شيئا  
عن نواحي التفوق في انتاجه ونواحي القصور فيه ، فيحاول من جديد  
على ضوء ملاحظات كبار الأدباء والشعراء وتوجيهاتهم ، فلهذا يوفق  
ويصبح جديرا بتقدير لجنة الشعر .

لقد دفع غموض هذه الرسالة شاعرنا إلى أن يرسل للمجلس  
الأعلى الخطاب التالى .

«السيد سكرتير عام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب  
تحية قلبية وبعد . . . فبالإشارة إلى خطاب المجلس رقم . . .  
أفيد لجنة الشعر بالآتى :

أولا - غموض المقصود من كلمة «مبدأ» الواردة في الكتاب  
المذكور

ثانيا - لم تحدد اللجنة - ولو على سبيل المثال - الموضوعات التى من  
أجلها اختلفنا من حيث المبدأ .

ثالثا : لم ترسم اللجنة الخطوط التى إن ماشيتها اتفقنا أو قد نتفق  
رابعا - أشكر اللجنة وعلى رأسها الاستاذ «العقاد» للمجهود  
الذى بذلته ، فى تحقيق الدواوين المقدمة إليها ، خاصة وأنها خلت من  
المقدمة التمهيدية لها . وأخيرا أرجو أن يفهم أن المقصود من كتابى هذا

لا يعدو الرغبة في الاستشارة والاستبصار برأى اللجنة في الحقل  
الأدبي . . وشكرا .

المخلص

محسن الجوهرى

ولم يحظ الشاعر برد على استفساره حتى الآن رغم مرور أكثر من  
أربعة أشهر على إرساله ، ومازال إلى اليوم يضرب الأخماس في  
الأسداس محاولا تفهم هذا «المبدأ» الذى أشارت اليه لجنة الشعر في  
رسالتها ، واختلفت معه بشأنه وبسببيه ، فلم تستطع أن توصى بنشر  
دواوينه .

\*\*\*

ولندع الآن لجنة الشعر مع مبادئها المجهولة ، ولنحاول أن  
نتعرف على هذا الشاعر ومبادئه في الحياة وفي الفن .

أنه يعيش في عالم خاص به لا يسمح للناس باقتحامه إلا في  
الحدود التى يختارها هو ، فهو مثلا يرفض أن يتحدث عن طفولته ،  
ويرفض أن يعطى تفاصيل كثيرة عن حياته الخاصة ، وكل ما تستطيع  
أن تستخلصه منه أن من مواليد مدينة دمنهور سنة ١٩٢٥ ، وأنه أتم  
مرحلة الدراسة الثانوية بمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة ، ثم حصل  
على ليسانس الآداب (قسم الجغرافيا) من جامعة الإسكندرية ،  
ويعمل الآن مدرسا للغة الانجليزية بإحدى مدارس البنات الاعدادية  
بالاسكندرية ، وهو متزوج من زوجة يستمد منها - على حد تعبيره -  
الحب والوعى والانسانية .

يقول هذا ثم يدفع إليك بمجموعة دواوينه وأوبراته الشعرية لتأخذ منها ما تريد من الحقائق عنه ، ولا ينسى قبل أن يغادر أن يؤكد لك في اعتزاز وثقة واضحين أنه ليس «موهبة جديدة» من المواهب التي تعودت الصحف أن تقدمها إلى قرائها وإنما هو يقول الشعر منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، وعلى التحديد عقب وفاة والدته ، وكان لا يزال وقتها في المرحلة الثانوية ، ثم يضيف : «أنا لا أعتقد أنني مغمور رغم أنني لم أنشر شيئا يذكر من إنتاجي ، وإنما الغفلة وأنصارها هما المغموران» فإذا ما خلوت إلى مجموعة أشعاره وجدت هذا المعنى المعتر يتردد في الكثير من قصائده ، وهو أكثر ما يكون وضوحا في قصيدة «اللحن الأمين» :

شيع الظن ونادمني الحياة  
هدأة تغفو بها عين الأباه  
هذه الدنيا هيام كاذب  
سل بها الغادى رواحا ماجناه  
دعك من هذا الزحام الباطل  
واغتم الظل بدوح هادل  
لا تظن الراكب قد خلفنا  
إنما ضل ضلال الغافل  
لاتبال المجد في هذا الوجود  
شاردا أعرض عن كل مجيد  
أنباليه وفي أنفسنا  
نشوة تخفي على عين الجحود ؟!

أهدأَن بالله في نجوى السكون  
أنت ما شئت من اللحن الأمين  
لم يعد في هذه الدنيا لنا  
غير ما تأباه نفس لا تهون  
ليس مجدا ما تراءى للورى  
إنما المجد لقلب أبصرا  
لا لعين أغرقت في وهمها  
لا ترى شيئا وقالت ها أرى

وتصل هذه النعمة أحيانا إلى حد المغالاة في الاعتزاز بالنفس  
لتصبح شطحة من شطحات الشعراء في مثل قوله :

« سبقت مصر بألف  
من السنين فويل  
قد عطلتني وأشقت  
من الجهالة عقلى  
لكنها عند عطلى  
حازت به ألف عطل »

\*\*\*

ونتوقف بعد ذلك عند قصيدة هامة في دلالتها على مدى تعلق  
الشاعر بأمه الراحلة ، وحزنه الشديد على فقدانها حزنا فاضت به نفسه  
في أولى محاولاته لقول الشعر ، وإذا كان الشاعر لم يضمن مجموعته  
هذه القصيدة الأولى ، فإن قصيدته «أمى» كافية لتوضيح ارتباطه  
العاطفى الشديد بأمه وهو ارتباط يذهب علماء النفس في تفسيره  
مذاهب شتى ، يقول الشاعر :

«باترابا وطنته رغم عفى  
أنت أحق على من آمالي . .  
فيك أمة لطيفة تتملى  
هائمات الأبناء عن أحوالى  
وهى فى صدرك الدفء شعاع  
عانقته برودة الأجال  
ليتنى مت قبلها يا رفيقى  
قبل إيداعها بكهف الزوال  
آه يا دمع فامتزج بدمائى  
فهى حمراء واندلع باشتعالى،

إلى أن يقول :

«إننى لم أزل وليدك فى المهد  
وإن كنت فى عداد الرجال  
أيها النور فاكتب فى عيونى  
وانسدل ظلمة على أهوالى»

وتسرى هذه النزعة العاطفية الحزينة فى الكثير من قصائد الشاعر  
وتصبغ نظراته للحياة فى كثير من المواضيع بذلك اللون الرمادى  
المتشائم ، الصادق التعبير مع ذلك ، عن حالة نفسية كثيرا ما تسيطر  
على النفوس الكبيرة وهى ترى نفسها مضطربة فى عالم الصغار .

«يا إلهى آهة مناسبة فى أثر آه  
ولك الفضل الذى لا ينتهى عند التناهى  
أصبح الناس وأمسوا بين مجنون وواهى  
وأراهم فأرى نفسى وقد غام اتجاهى

أضحكتني ضيعة الحال وظنوه التلاهي  
حسدوني مصفق الحس وهم رجع انتباهي  
بين أصنام من الوعى جلايد الجباه  
كلهم جاث على الجهل غرير متباهي  
في قيود المعجز محجوز بأهواء الشفاء»  
والشاعر فاطن إلى ما بأنغامه من تشاؤم حزين مسرف فيقول :

لا تقولوا تشاءمت  
ودنيا الناس رقص  
إن مصرا دون خلق الله  
مأساة تقص . . . .

وهو يلتمس بعد ذلك السلوى والعزاء من أفاعيل الزمان في رضا  
نفسه ، وثقته بصدق مؤهبتة ، وعزلته عن موكب المنافقين  
والمرجفين :

«أياسماء الرضا طلى على داري  
طلى على مهجتي في كوخها العارى  
أنا السيد وهذا الكوخ زاويتي  
من الحياة وهذا الصمت مزماري»

\*\*\*

وللى جانب هذه النغمة الحزينة المتشائمة نجد نغمة عاطفية  
أخرى كلها لإشراق ومرح وإقبال على الحياة ، لعل خير نماذجها تلك  
القصائد الغزلية الرقيقة التي كان الشاعر يقولها أيام كان طالبا بكلية  
الآداب ، وقد ضابعت أصول معظمها لدى بعض زميلاته اللاتي كن  
يستعرنها منه لنقلها ، ثم فرقتهن الأيام فمتهن من تزوجت ومنهن من



ارتحلت إلى بلاد أخرى ، وتعذر على الشاعر الاتصال بهن ليجمع  
منهن حبات قلبه التي كان يصوغها كلمات ، وهكذا سيظل ديوانه  
ناقصا هذا الجزء الهام من شعره العاطفى ، وإن كانت هذه الروح  
العاطفية المشرقة المقبلة على الحياة قد سرت في الكثير من مواقف  
أوابرانه الحديثة فأكسبتها عذوبة وصدقا وجمالا ، فهو يستهل أوبرا  
«عود إلى القدس» مثلا بهذا الحوار الواله بين «نوار» وفتاها «خالد» وقد  
انفردا في خلوة :

«خالد : آه للبسمة ريا شفتيك  
آه للماء الذى فى وجتتك  
آه للنور الذى فى مقلتتك  
والشعر غرد ضاح لديك  
الربيع الطلق لحن هو أنت يا حياى  
نوار : يا حبيبى بين يديك  
مهجة حرى الهوى همفو إليك يا حبيبى»

\*\*\*

وإذا كانت النزعة العاطفية الغنائية بشقيها المتشائم والمشرق  
تغلب على الإنتاج المبكر لشاعرنا ، فإننا نلمس إلى جوارها نغمة وطنية  
حارة متدفقة فى قصائد مثل «ابسمى للحرب» ، و«تولى الظلام» و«إيه  
يا طير» كما نلمس سخط الشاعر وثورته على الأوضاع الفاسدة التى  
كانت تسيطر على الحياة فى بلادنا قبل ثورة ٢٣ يوليو فى عدة قصائد مثل  
«الجمهورية» و«الزحف المقدس» و«الغيب إباء» التى يقول فيها :

«يوما ستذكره يا نبيل أنباء  
مطمئنتات بأن الغيب إباء»

إلى أن يقول :

«وأسوأ الموت أن نحيا بمجتمع  
عماد مبناه ألقاب وأسَاء»

\* \* \*

إما إنتاجه الحديث ، وخاصة بعد أن وجه معظم جهوده في السنوات الأخيرة إلى تأليف الأوبرات ، فتغلب عليه نزعة إنسانية عميقة ، ومشاركة إيجابية فعالة في المشكلات الإنسانية العالمية ومشكلات الوطن العربي الكبير إلى جانب علاجه لبعض المشكلات الاجتماعية في مجتمعنا المصري ، فهو يعالج في أوبرا «من أجل السلام» مشكلة منع استخدام الأسلحة الذرية ونزع السلاح ، ويعالج في أوبرا «عود إلى القدس» مشكلة فلسطين والللاجئين ، كما صور بها الجزائر في أوبرا «النصر للجزائر» وناقش فلسفة الحرية والحب والسلوك الإنساني في أوبرا «شفاء» وله بعد ذلك عدد من الأوبريتات الصغيرة التي كتبها في الأغلب استجابة للمناسبات وبحكم عمله كمدرس يجب أن يسهم في نشاط تلميذاته ، ومن هذا القبيل أوبريت «معونة الشتاء» و«كفاح» .

وقد أخرجت له عام ١٩٥٦ أوبرا «حسن البصري» المستوحاة من «ألف ليلة وليلة» ، بعد أن لحنها الموسيقي المثقف «كامل صليب» .

وسرت هذه الروح الإنسانية إلى قصائد الشاعر الحديثة في شكل اهتمامات سياسية واجتماعية عديدة ، فهو يعالج المشكلات العمالية « بمعناها الإنسانية العام لا بالمعنى الطائفي الضيق المفتعل» - على حد تعبيره - ، ويرى أن كل فرد من أفراد المجتمع يعمل فهو عامل له سمات

النفس البشرية من حب وعبادة وحق وواجب وثورة ورضا . . ومن  
أجمل قصائده في هذا المعنى قصيدة «دعاء عامل» التي يقول فيها :

» ان يكن يرضيك عيشى بين قوم غافلين  
لم يشبوا في سوى الشح وغبن العاملين  
فهو يرضيني كذلك  
ولو أني أطمع  
في غنى رب غنى  
وحيد . .  
ان تكن تخبر إيماني بإيماني تميم

سوف أصبر

عاملا

ثم أصبر

عاطلا

ثم أصبر

أملا

دائما أصبر يارب ولن ينفد صبري

لا ولا شكرى على نعمائك لن ينفد

شكرى . . «

ونفس الاتجاه نجده في هذه القصيدة الطريفة المرة السخرية

«عمل بدون أجر» :

» أنت يا من ترسل الصبيحة تلوى بيتنا :

اعملوا

ويجول اللحظ فينا منك يحوى ويلنا

وكانا أغبياء  
أو كانا جبناء  
اعملوا  
لا نقاش  
وكانا أغبياء  
أعملوا  
لا جدل  
وكانا جبناء  
يا حمار  
لا ولا شأنك من شأن الحمير الطيبة  
كيف نعمل  
دون مال  
نحن لا نسرق شيئا  
أنت تسرق  
نحن عقل وفؤاد  
أنت أحمق

.....

قد ذوى جسمى الصحيح  
يا شحيح  
وبجسمى ألف داء  
يا عياء  
وذكائى عبقرى  
يا غبى  
طفلى المحموم فى غيبوبة ليس يجيب  
قد تركته

في يدى أم دميعة  
عاجزة  
ثم ولدى  
من ضحايا العابثين  
ما أسوته  
مات في البيت ومثلى  
كان يعمل  
ثم يأمل  
مطرق الصمت العظيم  
لا أمل  
مات طفلى  
كان يرجى للبناء»

\*\*\*

وبعد . . فإن هذا الشاعر ليس موهبة جديدة في مرحلة  
التكوين ، ولكنه شاعر ناضج حقا وإن كان محاطا بأكوام هائلة من  
الإهمال وعدم التقدير . وهو إن سعد بعمله كمدرس يربى للوطن  
جيلا جديدا متفتحاً ويزرع في نفوسه الأمل والإيمان ، فإنه في نفس  
الوقت فريسة للقلق والإرهاق المادى والأدبى الذى يعرفه موظف

الحكومة الصغير ، يعانى من قيود الوظيفة وروتينها وما تفرضه عليه من  
اهتمامات صغيرة تافهة يتمنى لو أتيح له أن ينجو منها ليتفرغ لتجويد فنه ،  
خاصة وأنه قد اتجه أخيرا إلى علاج فن «الأوبرا» الشعرية العسير الذى  
يحتاج إلى دراسة طويلة وممارسة أطوال حتى يوفق إلى إنتاج يقف على قدم

المساواة مع أعظم الأوبرات العالمية . وهو يرى أن إنصاف الدولة للأديب  
المخلص ذى المبدأ أو الوعى إنصاف للملايين . .

وسواء تحقق له ما يتمناه لنفسه وما نتمناه له من إنصاف وتقدير أولم  
يتحقق فإنه ماض فى طريقه بإصرار الفنان الصادق وهو يردد :

« أنا لن أسكت مادام فؤادى  
نايض الإيمان جياشاً بزادى  
وإذا ما قيدوا منى لسانى  
فأنا الحر ولازال سراحى  
فى مدى الحو ما حدث رياحى  
قلمى فليقصفه  
قصفه للبعض نفع  
ورشادى سفوه  
ذاك للأمعاء شبع  
ويله ذاك الفريق  
جاهل . . والجهل ضيق  
كدت أبكى عليه  
ثم شحت مقلتى . . . »

\*\*\*

ولقد صدق الشاعر ، فليس بوسع الإهمال وسوء التقدير ،  
وليس بوسع قوة فى الوجود أن تخرس البلبل الغريد عن ترديد النشيد  
طالما فى صدره أنفاس تتردد . .

ولكننا مع هذا نريد له إنصافاً وإنصافاً سريعاً . . لأن فى إنصافه  
إنصاف للملايين !!  
(نوفمبر ١٩٥٧)

(٣١)

بيرم التونسي  
والهجاء الاجتماعي

لن أرثيه فمثله لا يرثى ، وإنما يذكر بعد مماته أكثر من ذكره في حياته . . ويجد الناس في هذا الذكر نفعا ومتاعا لا يجدونها عند كثير من الأحياء ، فهو إذن حى في مماته ، بل أكثر من مثات الأدباء والفنانين الأحياء الذين لم يقدسوا الحياة مثل تقديسه لها ، ولم يحبوا الناس مثل حبه لهم ، ولم يكرهوا الظلم والاستغلال والابتذال مثل كراهيته لها . . ولم يتح لواحد منهم أن يحيا حياته الخصبه العريضة بين الفقراء والمنبوذين ، ويعرف أدق تفاصيل المأساة الحقيقية التى يعيشونها وهم سواد الشعب وأصحاب كل الحق . . لقد تعذب معهم ، وشقى بكل ما فى حياتهم من قذارة وسوقية وابتذال ، وعانى من أطماعهم وشهواتهم وحرمانهم ، ومن الخرافات التى تملأ رؤوسهم وتفسد حياتهم ، واستطاع أن يعبر عن كل ذلك فى فنه الصادق الأصل . . وحاول أن يثور على الأوضاع الظالمة التى تفرض على سواد الشعب هذا اللون القاتم من الحياة ، فنفاه الظالمون البغاة ، وقضى عشرين عاما بعيدا عن وطنه وقاسى الجوع والحرمان وألم العمل اليدوى الشاق ، وشهد فى الوقت نفسه لونا أرقى من الحياة ، وعادات أنظف وأسمى ، ولم يستطع طوال هذه السنوات أن ينسى وطنه ولا آلام شعبه ، فظل يتغنى بالحنين إلى بلاده ، ولا يكف عن التعبير عما يتمناه لها من حرية ، ولشعبها من ارتقاء وتقدم . . متخذاً من أساليب الحياة الجديدة التى عرفها فى أوروبا مدرسة ينقل صورها النافعة إلى لغة بلاده بأسلوبه المرح الرشيق المليء بالسباب



والهجاء . . إنه نفس الأسلوب الذى يتحدث به الشعب الذى  
أنبته . . ومن هنا سهل عليه أن يؤثر فى جموع الشعب الكبيرة .

\* \* \*

ولد محمود بيرم التونسي فى الرابع من مارس سنة ١٨٩٣ فى  
السيالة بحى الأنفوشى بالإسكندرية ، وتلقى دروسه الأولى عن حياة  
الشعب فى ذلك الحى المعروف بشعبيته وحى رأس التين المجاور له ،  
لنسمعه وهو يصف لنا طبيعة الحياة فى ذلك الحى وقت طفولته :

« كان حى رأس التين المجاور للأنفوشى صورة طبق الأصل من  
عشش الترجمان القاهرية ، الرجال يرقصون القردة ، والنساء تسعى  
فى الأزقة بمعيز ترعى القمامة ، والأطفال يجمعون السبارس . .

كانت أكثر مبانيهم مؤلفه من عشش الصفيح المرقعة بالخيش  
والأبراش يعلوها الدجاج والمعيز وكان قسم كبير من هذه العشش يمتد  
فى شارع رأس التين الموصل إلى السراى العامرة يتفرج عليه السفراء  
والقناصل فى كل تشريفة !!

وأسوأ ما كان يعرف عن أهل رأس التين هو الشجار الذى يقع  
بين نسائهم . . . « بتعاير يهتز لها عرش الرحمن ، وبألفاظ ترقص  
عليها الشياطين . . . »

ومن هذه التعابير والألفاظ تزود بيرم التونسي بحصيلة لغوية  
شعبية لم يشاركه فيها أديب آخر ، واستطاع أن يستغلها فى أزجاله  
الاجتماعية والسياسية استغلالا فنيا مثيرا حقا . . وكانت فى يده أداة  
فنية لها خطرهما فى تصوير الفساد والانحطاط وهجاء التفاهة والقذارة

والابتذال ، وحينما كتب إليه قارىء يلومه لاستعماله مثل هذه الألفاظ والتعابير كان رده عليه :

«رويدك أيها الكاتب الملتهب فقد نقلنا إليك شيئا سمعته بأذنك عن شيء رأيناه بأعيننا . إننا قبل أن نحاول تبرير مسلكنا نوافقك على أننا خططنا بهذا القلم تلك الألفاظ البذيئة كما قلت ، المخجلة كما وصفت ، وقد كان غرضنا أن تكون بذيئة ومخجلة ، ولئن تلتطخ صفحات «المسلة» بمثل ما رأيت فهو أحب إلينا من أن نرى ما خورا مفتح الأبواب في أكبر ميادين العاصمة وفيه الآداب تذلل والمروءة تنتهك وأموال الشبيبة تضيع .

وما كنا نتوقع أن يكون بين قراء «المسلة» قارىء تحفى عليه أغراضها فيسوء الظن بنية كاتبها فإذا فهمت أنت أننا نريد بما كتبنا هدم الأخلاق ونشر الفساد فأنت ضال عن منهجنا قصير النظر عما ذهبنا إليه

هذا الطبيب يعالج الداء في بدء الأمر بالعقاقير البسيطة فإذا خبث الداء واستعصى فلا سبيل إلا إلى عملية جراحية تنزف الدم والقيح ، أو البتر حيث يكون الشفاء أو الموت وكلاهما صلاح وإصلاح . . .

هذا النص لا يفسر لنا فقط ، لماذا كان بيرم التونسي يستعمل أحيانا بعض الألفاظ السوقية والصور الخارجة ، وإنما يوضح أيضا - وهذا أهم - سر هذه الحدة القريبة من الهجو التي نلاحظها في كثير من أزجاله وهو يكشف لنا فيها عن مخازي حياتنا وتخلف عقولنا

وطموحنا . . والأمثلة على ذلك كثيرة في ديوانه بجزئية ومن ذلك قوله  
في زجل يطالب فيه بتحرير المرأة بعنوان «بردون يا شعراوى» :

غلبت أقول للرجال  
خلوا المره حره  
تخس رخره المجال  
تفهم وتندرى  
العاقلة بنت الحلال  
ما يضرهاش بره  
لكن بتنصح في مين  
روس جامده سنطاوى  
راية ولاد العرب  
في الأرض منكوسة  
طول عمرها والسبب  
إحسان ونفوسه  
والله الى قال ما كذب  
نسواننما موكوسه  
حق الى متعلمين  
بردون يا شعراوى  
جهل النساء بالعلوم  
خلانا أنتيكه  
نفهم في فن الهدوم  
رقعه وتشتيكه  
وفي البلد عا المعموم  
ما تلقى فابريكه

## غير فابريكات الطحين

فليحيى بدرأوى

والواقع أن فنانتا الكبير كان معذورا في تلك النعمة الهجائية الحادة التي لا تتردد في كثير من أزجاله ؛ فقارئ ديوانه لا يكاد يجد مظهرا من مظاهر الفساد في حياتنا إلا وتناولها «بيرم» بزجل أو أكثر من أزجاله ، وبخاصة في الناحية الاجتماعية وهي اللون الغالب على الديوان ، فالكثير من أزجاله ترسم لوحات حية لأنماط الحياة وأساليب العلاقات والتقاليد السائدة في أحيائنا الشعبية بحيث يحق لنا أن نعتبر الديوان من هذه الناحية وثيقة اجتماعية لا نظير لها . . وهو يعرض هذه الصور بأسلوب قصصى ملء بالدعابة والمرح ، ولا يخلو من نقد اجتماعى مرير يتوارى بين السطور أحيانا ، ويصرخ في صراحة أحيانا أخرى . . .

الولادة والطهور ، وأساليب تربية الأطفال وتعليمهم ، وعلاقات الحب والزواج ، والشجار والطلاق ، وأساليب الطعام والشراب والنوم ، والزار ، «وعربة سوارس» ، و «حانة مانولى» ، ولوكاندة الحاج سالم . . . وغير ذلك من مظاهر الحياة الشعبية في بلادنا يتناولها «بيرم التونسي» في ديوانه بريشة فنان واقعى حاذق يرسم أدق التفاصيل ، وأقبح المشاهد ، ولكنه لا ينشد من ورائها إلا العلاج الحاسم كما أكد ذلك في رده على القارئ . .



ولمى جانب هذه اللوحات الواقعية نجد أزجالا أخرى يعالج فيها الشاعر مشكلاتنا الاجتماعية العامة علاجا أكثر صراحة وإيجابية ،

ومن خير الأمثلة على ذلك زجله المشهور ، الذى يصور فيه حال  
«العامل المصرى» فيقول على لسانه :

«ليه بيتى خربان  
وأنا نجار دواليبيكم  
ليه فرشى عريان  
وأنا منجد مراتبيكم  
ليه أمشى حافى  
وانا منبت مراكيبيكم

هى كده قسمتى ؟  
الله يحاسبكم ا  
ساكنين علالى العتب  
وانا الى بانيتها  
فارشين مفارش قصب  
ناسج حواشيتها  
قائنين سوائى دهب  
وانا الى أدور فيها  
يارب ماهوش حسد  
لكن بعاتبيكم ،

وفى هذا القسم من أزجال بيرم التونسي نجد دعوة حارة تتكرر  
كثيرا لتحرير المرأة وتثقيفها ، فهى نصف المجتمع الذى لن تتحقق  
نهضة حقيقية دون مشاركة إيجابية منه .

ونجد كذلك دعوة أخرى لا تقل عن سابقتها قوة وحرارة

للتصنيع ، ولوم للشباب على تزامهم على الوظائف الحكومية بدلا من اقتحام أبواب العمل الحر الذى ينفرد بخيراته الأجانب . .

ويتعرض «بيرم التونسي» فى نقده الاجتماعى لكثير من مشكلات حياتنا كأساليب التربية والتعليم ، ويقارنها بمثيلاتها فى الخارج ، وفساد الروتين الحكومى ، وتضييع الوقت فى الجلوس على المقاهى وتناول الخمر والمخدرات ، والاختلاسات ، ونظام الوقف ، ومشايخ الطرق ، وإسراف الأغنياء فى الانفاق على ملاذهم وانصرافهم عن الإسهام فى المشروعات النافعة أو معاونة المحتاج . . كل ذلك يتناوله الشاعر بريشته الساخرة اللاذعة وبأسلوب متمم صادق لا يخلو من فكاهة وظرف رغم ما فيه من قسوة وحدة . .

\*\*\*

والشاعر مشغول بعد ذلك ، حتى وهو فى منفاه الطويل ، بقضية بلاده لا يكاد يدع مناسبة وطنية دون أن يسهم فيها بفنه الشعبى الجميل الذى اختاره وسيلة لمخاطبة الملايين من أبناء وطنه على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم .

ومن المعروف أن أزجاله الوطنية الملتهبة أثناء ثورة عام ١٩١٩ ، كانت السبب فى سخط الحكومة وسلطات الاحتلال عليه ، فلما جاوز ذلك إلى هجاء الملك فؤاد نفسه ، والتعريض بشرفه فى زجل نشره بمجلته «المسلة» تقرر نفيه من البلاد ، فسافر إلى تونس ، وهناك وضعته الإدارة الفرنسية تحت المراقبة واضطهدته ، الأمر الذى اضطره إلى الهرب إلى فرنسا حيث قضى سنوات قاسية كلها شظف وحرمان ، وعمل ، فى بعض المصانع أعمالا شاقة مضيئة ، وظل طوال هذه

السنوات ينظم الأزجال الوطنية والاجتماعية ، ويهجو فؤاد سبب نكبه  
ونكبة البلاد ، ومن ذلك زجل يقول فيه :

«ولما عدمننا بمصر الملوك  
جانبوك لنجليز يا فؤاد قعدوك  
تمثل على العرش دور الملوك  
وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون  
مانابنا إلا عرشك ياتيس التيوس  
لا مصر استقلت ولا يحزنون  
أشوف برلمائك مطرطر وأقول  
بملك صحيح ينضحك ع العقول»

ويتابه الحنين الملح إلى الأهل والوطن فيتغنى بأزجال تفيض بالركة  
والأسى . . ويرحلونه من فرنسا إلى تونس ، وينشئ هناك جريدة  
ناجحة تثير عليه ثائرة الحاكم الفرنسي ، فيقرر نفيه إلى السنغال ، ثم  
يقبل رجاءه فيرحله إلى سوريا ، ويعيش فيها عاما إلى أن تطرده  
السلطات الفرنسية من جديد ، وتقف السفينة في بور سعيد ولنستمع  
إليه هو نفسه يصور هذا الموقف الحاسم في حياته في هذه الأبيات  
الصادقة من زجله «العودة» :

«في بور سعيد السفينة  
رست تفرغ وتغلا  
والبياعين حوطونا  
بكاتر بوستال وعمله

لكن بوليس المدينة  
ماتزوغش من جنبه نمله  
بابور سميد والله حسرة  
ولسه يا اسكندرية  
هتف بي هاتف وقال لي  
انزل ومن غير عزومه  
انزل دى ساعة تجلى  
فيها الشياطين في نومه  
انزل دا ربك تملى  
فوقك وفوق الحكومة

خطيت في ستر المهيمن .  
لشط يحكم دار  
وأقول لكم بالصرامة  
اللى في زماننا قليلة  
عشرين سنة في السياحة  
واشوف مناظر جميلة  
ماشفت يا قلبى راحة  
في دى السنين الطويلة  
إلا ماشفت البراقع  
والبلدة والجلابية،

ويتوسط أهل الخير ليحصلوا له على العفو الملكى ، ويضطر أن  
يقول بضعة أزجال يؤكد فيها ولاءه للعرش ، أما أعجب هذه الأزجال  
فذلك الذى يقول فيه :



«يا ابو الفاروق يسعد عصرك  
دى اسكندرية هلال مصرك  
أما أحنا يا اسكندرا نية  
طالعين جميعا شفلية  
طبيعة فى الطين والمية  
متركة تحت سماها  
الاسكندران اذا صافح  
يفلظ ساعات ويروح ناطح  
وارثها عن جده الفاتح  
فحل الملوك اللى حاما  
الاسكندران اذا تحلق  
جلف لكن له مبدأ  
يفغوا لحد ما يتزحلق  
فى نايه عمره ما ينساها  
الاسكندران اذا تمس  
يفقد صوابه ويتعلم  
لحد ما يروح منكربس  
فى نقرة إبليس يخشاها  
لكن يقوم يغسل وشه  
ويروح يجيب لى غشه  
فى خلقتة ويروح نائشه  
راسين يعيش مسخة بمائه  
ونا اللى جيت من سياله  
فيها العيال والرجالة

شجعان ولكن يهبأ له  
 ياننتصر ياأكلناها  
 والحق نقطع له روسنا  
 نقطعها إحنا بأنفسنا  
 ما دام مليكننا وريسنا  
 عالدفة ماسك مجراها ،

أرأيت كيف أن عشرين عاما من النفي والتشريد لم تنجح في كسر  
 شوكة هذا المقاتل العنيد ، فتددت في الزجل الذي يطلب به العفو  
 والرضى نفس النغمات الثورية المتحدية التي أدت إلى نفيه في بادئ  
 الأمر ؟

على أن الحديث يطول بنا ويطول لو حاولنا تتبع حياة هذا الفنان  
 الكبير وآثاره ، يكفي هنا أن نشير إلى أن ديوانه رغم أهميته البالغة ،  
 لا يضم كل أزجاله كما أنه ليس العمل الوحيد الذي خلفه لنا بيرم  
 التونسي ، فله كتابان آخران هما « السيد ومراته في باريس » و « السيد  
 ومراته في مصر » ، وهما مكتوبان باللغة العامية في أسلوب حوار  
 قصصى بين الكاتب وزوجته ، يعرض خلاله نواحي كثيرة من الحياة في  
 مصر وفي فرنسا ، مع العناية الواضحة بالنقد الاجتماعي المغلف  
 بالفكاهة والمرح . وفي الكتاب الثانى عدد من المقامات الشعبية نسجها  
 المؤلف على غرار المقامات القديمة ، ولكن بأسلوبه الضاحك الساخر .

ولبيرم التونسي بعد ذلك عدد من المسرحيات الغنائية من أشهرها  
 « شهر زاد » التي لحنها « سيد درويش » ، و « ليلة من ألف ليلة »  
 . و « عزيزة ويونس » اللتان قدمتهما الفرقة القومية . . و « مایسة » ،

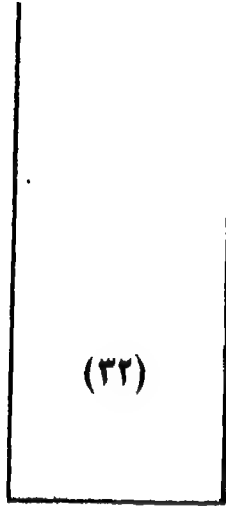
« طبخة بریمو » ، و« سفينة الفجر » التي قدمتها المطربة ملك في الأربعينات هذا عدا مسرحية زجلية أسماها « عقيلة » ، وملحمة « الظاهر بيبرس » التي قدمتها الاذاعة على حلقات استغرقت ما يقرب من العامين .

وتبقى بعد ذلك عشرات الأفلام السينمائية التي ألف قصصها وكتب حوارها وأغانيها ، من أشهرها « سلامة » لأم كلثوم عن قصة على أحمد باكثير .

أما مئات الأغاني الرقيقة التي نظمها وأسهم بها في تطوير الأغنية العربية من ناحيتي المعنى والمبنى ، فلها ليست بحاجة إلى تعريف لشهرتها .

مع هذا الانتاج الضخم المنوع الذي سيظل يتردد في وجدان لشعب لا أعتقد أننا تجاوز القصد حين نقول إننا لا نرثي بيرم التونسي لأن مثله لا يرثي ، وإنما يذكر بعد مماته أكثر من ذكره في حياته . . ويجد الناس في ذكره نفعاً ومتاعاً لا يجدونها عند كثير من الأحياء . .

( يناير ١٩٦١ )



احمد فؤاد قاعود ..

والمحمة الزجلية

أن قصة حياته وتفتح موهبته ليست أسطورة ، وليست حافلة بالعجائب والغرائب ، وإنما هى قصة الآلاف المؤلفة من أبناء هذا الشعب الذين قدر لهم أن ينشأوا وسط الفقر والأهمال والجهل .

ولد فى أسرة أقل من المتوسطة بكثير ، وكان ترتيبه السابع بين اخوته . أبوه يعمل كاتباً عمومياً فى حارة « السيدة نعيمة » المتفرعة من شارع « أنسطاسى » بالقرب من محكمة الاسكندرية ، ويقال إنه كان حاذقاً فى كتابه « العرضحالات » والشكاوى القانونية ، بدرجة جعلت عدداً من المحامين الشبان يسعون اليه ليتتملذوا عليه فى فن كتابه المذكرات ، وقد أصبح بعضهم الآن من كبار المحامين بالإسكندرية ، وما زالوا يحتفظون مع هذا بنماذج من « عرضحالات » بخط ذلك الكاتب العمومى تعتبر نماذج تحتذى فى عرض القضايا والشكاوى .

ولم يكن من الممكن أن ينعم الطفل الصغير « أحمد فؤاد قاعود » بطفولة سعيدة مع هذه الظروف التى تحيط به ، ومع هذا العدد الكبير من الأخوة الذين كان على أبيه أن يعولهم جميعاً بدخله الضئيل غير المنتظم ، خاصة وأنه كان حريصاً على تعليمهم جميعاً فى المدارس . وحتى هذا القدر الضئيل من الطفولة المستقرة اللاهية التى ينعم بها عادة جميع الأطفال قبل أن تفتح عقولهم على الحقائق الدامية التى تحيط بهم ، لم يتح لأحمد أن يعرفه ، فقد مات أبوه ، وهولا يزال فى الرابعة من عمره ، وخرج جميع أخوته من مدارسهم ما عدا أخاه الكبير الذى كان قد وصل إلى الجامعة فقررت أمه أن تكافح وتستमित فى الكفاح

لكى تجعله يتم تعليمه ، ويصبح السند الذى يمكن أن تتوكل عليه الأسرة فى حياتها . أما هو فلم يخرج من المدرسة بالطبع لأنه لم يكن قد دخلها بعد ! ولا استطاع أن يدخلها بعد ذلك أبدا .  
وتمضى السنوات بالطفل الصغير ، ويعرف الجوع والإهمال ، ويعرف أيضا ، وهو لم يتجاوز بعد الثامنة من عمره ، أن عليه أن يعمل إذا كان يريد أن يأكل، وأى عمل يمكن أن يقوم به فى هذه السن دون أن يتعرض للكثير من الآلام والظلم والعسف .

يقول أحمد فؤاد :

« كنت أحس فى هذه السنوات أنى أنسان مغبون لم آخذ حقي من الحياة . . يأتى على العبد فلا أنزل من البيت حتى لا يراى أبناء الجيران بملابسى القديمة الممزقة ، أو بمعنى أصبح لكى لأأراهم هم بملابسهم الزاهية ، فينفطر قلبى الصغير حزنا على حياتى ومصيرى . .

وحينما وصلت إلى سن العاشرة كنت أستطيع أن أتكلم فى السياسة والفن والأدب نقلا عما أسمعه من أحاديث الناس وآرائهم ، فلم أكن قد تعلمت القراءة والكتابة بعد ، ومع هذا فقد كنت أقول بعض الأجزاء الساذجة أعبر بها عن مشاعرى الطفولية ، وكنت أقلد فيها أخى الكبير الذى كان يكتب الشعر والزجل .

وقررت بعد ذلك أن أصبح كغيرى قادرا على حل هذه الرموز العجيبة التى تملأ الكتب والجرائد . . وتطوع أحد أصدقائى - ممن كانوا يذهبون إلى المدارس - بإعطائى الدروس الأولى فى القراءة والكتابة ، وما كنت أحتاج لأكثر منها ، فما كدت أعرف أن الواو والزأى والنون

تنطق « وزن » ، وما كدت أميز بين الحروف المختلفة حتى بدأت أقرأ كل ما كان يقع تحت يدي من صحف ومجلات وكتب ، ولم أكن أفهم منها شيئاً في بادئ الأمر ، ولكنني بدأت أفهم ما أقرأ شيئاً فشيئاً ، وبدأت أتقدم ، وما أن وصلت إلى سن الخامسة عشرة حتى كنت قد أصبحت زجالاً يخشى بأسه بين زجالي مجلة « البعكوة » .

\* \* \*

وأثناء ذلك كان ينتقل من عمل تافه إلى آخر أتفه منه ، وكان يرتاد في المساء بعض الملاهي الرخيصة والكباريات المنتشرة على طريق الكورنيش في الإسكندرية ، ليجلس مع بعض أصدقائه من الموسيقيين على أمل أن يوفق إلى بيع بعض ما ألفه من منولوجات وأغان لقاء قروش قليلة ، ومن أغانيه في تلك الفترة المبكرة من حياته :

« يا مشعل قلب حبيبك  
لية القسوة لية النار ؟  
ده مسيره يوم حيسيبك  
وحننألم من الأفكار  
إيه ذنبه عشان يتألم  
منك ياللى ظلمته معاك  
وتعدى عليه ماتسلم  
فكرك يعنى حيترجاك .. »

وأحسن أحمد بعد ذلك أن جميع أبواب الرزق في الإسكندرية قد أغلقت في وجهه ، فقرّر أن ينزح إلى القاهرة ، حيث الشهرة والأضواء ، والعمل الكثير . ويقول :

« كانت مغامرة كبيرة لم أحس بخطورتها إلا حينما وجدت نفسي في القاهرة فعلا كنت فتى في السادسة عشرة من عمرى وحيدا في مدينة كبيرة ، أكبر مما كنت أتصور ، ولا أعرف فيها أحدا ، وليس معى نقود ، وليست لى مهنة معينة يمكن أن أعيش منها » ..

وبدأت مرحلة من الكفاح المرير الشاق .. فقد وجد نفسه وجها لوجه أمام الحياة القاسية التى لا ترحم ، واختلط بأحط حثالات المجتمع ومارس أعمالا كثيرة لا تخطر على بال .. عمل « جارسون » فى مقهى بلدى صغير ، وعمل « بلاسيه » شائى ، يركب دراجة ويوزع « باكوات » الشائى على البقالين لقاء عمولة ضئيلة ، وعمل مساعدا لبائع كبدة متجول على عربة صغيرة ، واشتغل حمالا فى أحد محلات الفراشة ، ويائعا فى محل « حدايد وبويات » ، وعاملا فى مطبعة ...

والسبب فى كثرة تنقله بين مختلف الأعمال فى تلك الفترة التى استمرت أربع سنوات ، أنه رغم حاجته الملحة إلى أجره كان شديد الاعتزاز بنفسه وبكرامته .. حاول صاحب المطبعة مرة أن يسبه كما كان يفعل مع بقية عماله ، فأوقفه « فؤاد » عندم حده وترك العمل ، وعلى أقرب مقهى جلس ليكتب زجلا طويلا يقول فى نهايته :

« كل شغل ألقى فيها الأسطى عامل

مدفع

بقه

والشتيمة المؤلمة فوق كل عامل

توجع

نازلة

والقى جنبى الشغل ماشى بانتظام

زى ما يكون الكلام ده مش عليهم



ويجازوه على كل شتمة بابتسام  
 زى ماتكون الشتيمة مدح فيهم  
 وأما ثرت عشان كرامتى الأبية  
 طلعمون  
 يأساتدة جامعات البلطجية  
 علمون  
 دى الكرامة والشرف والانسانية  
 جوعونى !

وكان طبيعيا مع هذه الكرامة والاعتزاز بالنفس أن يظل فترات طويلة بلا عمل . يتعيش من بيع منولوجاته للطربات الأفراح في شارع محمد على ، وكان بيت لياليه في بهو إحدى المقابر الكبيرة بالإمام الشافعى لقاء خمسة قروش كان يدفعها كل أسبوع لحارس القبور . .

وأثناء ذلك كان يقرأ ، ويقرأ كثيرا ، ويقول إن أهم ما أسعده في القاهرة أن مكتباتها العامة ، وبخاصة دار الكتب ، مفتوحة للجميع دون تدقيق ولا روتين . . وبدأت تظهر آثار القراءة والاطلاع في أزجاله ، وبدأ يحس أنه لم يعد يقول أزجالا كتلك التى تعود أن يسمعها ويقرأها ، وإنما يقول شيئا قريبا جدا من الشعر وأن كان باللغة الدارجة ، فبدأ يرتاد مجالس الشعراء وندواتهم ، وأحس بازديادهم الشديد له ، وأعراضهم عنه لتواضع مظهره وصغر سنه ، فصمم على أن يقول الشعر مثلاً يقولون . وبدأ يحفظ الكثير من المعلقات وقصائد كبار الشعراء ، ولم يكن يفهم الكثير منها ، ولكنه كان يحفظها مع ذلك ، وحاول كتابة الشعر ولكنه لم يرض عما كتبه ، فعاد إلى الزجل

بعد أن قرر أن يكتبه على منوال الشعر وبأفكاره وأخيلته ، وأن يعمل  
على أن يسموبه ويمعانيه إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة الشعر .

وبدأ يعالج في أزجاله موضوعات غريبة لم يألّفها الزجل من قبل ،  
فكتب الملاحم التاريخية الزجلية كتب ملحمة طويلة عن « سقراط »  
وفلسفته يستهلها بقوله :

في	خمرة	الانحلال
والسفسطة	والجدال	
ظهر	حكيم	اليونان
وفيلسوف	الزمان	

سقراط صريع الضلال .. إلخ »  
وكتب ملحمة عن « كليوباترة ... ربة الحب والدهاء » يقول  
فيها :

في المدة ديه لع في روما أنطونيوس  
والدنيا قبلت تحلى نصها في إيديه  
وعشان يتم الشبه بينه وبين يوليوس  
دعا كليوباترة في طرسوس عشان توافيه  
واثمنت كليوباترة والرسل كترت  
لكن قانون أفروdit أقوى من العفة  
فلما لح الهوى على قلبها رضيت  
تسكر عظيم الرومان من خمرة الشفة  
وراحت له في قصرها العايم على المية  
أبودفة من غير معين تمشى لأهدافها

مقاديفه بتدق لحن بطيء بحنيه  
أما الشرع أرجوان لون شفايفها

وكتب عن « إخناتون » ملحمة ثالثة ، ورابعة عن تأميم القناة  
بعنوان « البعث » ، وله إلى جانب ذلك عدد كبير من الأزجال العاطفية  
الرقيقة من أجملها مقطوعة « الحريف » وله كذلك عدد من الأغاني  
الوصفية والعاطفية يذاع بعضها من إذاعة الاسكندرية المحلية ، وكلها  
تنبىء بموهبة أصيلة غزيرة سيكون لها شأن كبير لو ابتعد صاحبها عن  
الغرور وواصل الدراسة والاطلاع وبذل الجهد فى كل ما يقدمه .

\* \* \*

وقد ظل زجالنا الشاب الذى لم يتجاوز العشرين إلا منذ سنوات  
قليلة بلا عمل حتى تقدم لإذاعة الاسكندرية ببعض أغان لمس فيها  
المسؤولون استعداداه الطيب ، وأحسوا بما يعانى من آلام فى حياته ،  
فقرروا أن يعينوه عاملا للتليفون بالإذاعة المحلية . . وكان هذا هو كل  
استطاعوه إزاء فنان ملهم لأنه لا يحمل أى شهادة دراسية . . .

( سبتمبر ١٩٥٧ )

## للمؤلف

أولا : مؤلفات :

- ١ - « سقوط حلف بغداد » ، كتب سياسية ١٩٥٨
- ط ٢ مزيدة بعنوان « أحلاف العدوان الأمريكية » دار الكاتب العربى ١٩٦٧
- ٢ - « فى النقد المسرحى » الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥
- ٣ - « عشرة أدباء يتحدثون » كتاب الهلال ، يوليو ١٩٦٥
- ط ٢ مزيدة ، دار الفكر ١٩٨٣
- ٤ - « هكذا كتبوا » سير ودراسات لنخبة من أعلام الأدب العالمى . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥
- ٥ - « فى القصة القصيرة » الألف كتاب ١٩٦٦
- ٦ - « فى الرواية المصرية » دار الكاتب العربى ١٩٦٨
- ٧ - « دليل المتطوع لمحو الأمية » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤
- ٨ - « منهج ميسر لمحو الأمية » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧
- ٩ - « العبور » مسرحية من وحي حرب أكتوبر - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦
- ١٠ - « صلاح عبد الصبور والمسرح » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢
- ١١ - « مسرح توفيق الحكيم » ج١ المسرحيات المجهولة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤
- ١٢ - « مسرح توفيق الحكيم » ج٢ : المسرحيات السياسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧
- ١٣ - « مسرح » ٨٥ ، دار الغد ١٩٨٦
- ١٤ - « المسرح المصرى ١٩٨٦ » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧
- ١٥ - « المسرح المصرى ١٩٨٧ » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨
- ١٦ - « المسرح المصرى ١٩٨٨ » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢
- ١٧ - « المسرح المصرى ١٩٨٩ » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢

- ١٨ - « المسرح المصرى ١٩٩٠ » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- ١٩ - « حلم المتنبي » مسرحية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧
- ٢٠ - « نجيب محفوظ من القومية إلى العالمية »  
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩
- ٢١ - « تخريب المسرح المصرى فى السبعينيات والثمانينيات » ،  
كتاب الهلال ، إبريل ١٩٨٩
- ٢٢ - « أيام طه حسين » ، دار أحجار اليوم ١٩٩٠
- ٢٣ - « مسرح الثقافة الجماهيرية » الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ١٩٩٠
- ٢٤ - « السينما والأدب » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١

## ثانيا - مترجمات :

- ٢٥ - « الحضيض » مسرحية مكسيم جوركى ،  
دار الطباعة الحديثة بالإسكندرية ١٩٥٣
- ٢٦ - « ثورة الموتى » مسرحية إروين شو المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٢
- ٢٧ - « الأدب والحياة » مختارات من كتابات مكسيم جوركى ،  
الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥
- ٢٨ - « الإنسان والسلاح » مسرحية برنارد شو  
الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥
- ٢٩ - « ثلاث سنوات » ، رواية أنطون تشيخوف ، روايات الهلال ١٩٦٦
- ٣٠ - « الحياة الشخصية » مسرحية نويل كوارد ، وزارة الاعلام الكويتية ١٩٧١
- ٣١ - « الفنان فى عصر العلم » ومقالات أخرى ، وزارة الإعلام العراقية ط ١٩٧٨
- ٣٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٣٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤١ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٤٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥١ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٥٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦١ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٦٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧١ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٧٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨١ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٨٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩١ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٢ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٣ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٤ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٥ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٦ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٧ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٨ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ٩٩ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥
- ١٠٠ - « فن السينما » لبيلا بالاش ط ١٩٨٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الابداع بدار الكتب ١٩٩٤/٣٠٧٠

---

I.S.B.N 977-01-3724-3



الشعر عندى غناء عاطفى قبل أن يكون تعبيراً عن أفكار وفلسفات معقدة، أحق بها النثر .

أما ما يغلب على الشعر المعاصر من همهمات غامضة ونغمات متكسرة فهو أبعد ما يكون - فى رأى - عن الشعر الأصيل الموحى، وهو نفسه ما دفعنى إلى الاعراض عن متابعته وتقويمه ، وتكريس معظم جهودى النقدية خلال العقدین الأخيرين للمسرح والقصة والدراسات.

وهذا الكتاب يَضُم محاولاتى فى تذوق الشعر وتقويمه، أرجو أن يتضح من خلالها للقارئ مفهوماً للشعر الأصيل الذى يستثير أرقى المشاعر واجملها، ويحرك العقل دون أن يرهقه أو يحيره ويربكه .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب